

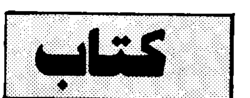

العدد الرابع - أبريل ١٩٩٤م

الكشكول

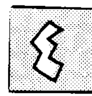
د. حسن ظاظا



بسم الله الرحمن الرحيم









الكشكول

د. حسن ظاظا

٠٨١ ظاظا، حسن.
٩٩١ظ الكشكول/ حسن ظاظا . ـ ط ١ . ـ الرياض: مؤسسة اليمامة الصحفية، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م
١٦٠ص؛ ٢٢سم. ـ (كتاب الرياض؛ ٤)
ردمك ٣ ـ ٠٢ ـ ٧٨٠ ـ ٩٩٦٠
ردمد X ١٩٠ ـ ١٣١٩
١. المقالات العربية. أ. العنوان. ب. السلسلة.

رقم الايداع ١٦٨٥/ ١٤


٤
الرياض

كتاب الرياض

الكشكول . . عنوان المقال الاسبوعي للأستاذ الدكتور/ حسن ظاظا، يتحول إلى عنوان كتاب **الرياض** الشهري الرابع، مشاركة من أ. د. ظاظا في إثـراء هذه السلسلة بعـدد من مقالاته ذات الإسلوب السهل الممتنع.

فهو الأكاديمي الغارق في الأبحاث والدراسات والتدريس منذ بدايات تخرجه إلى اليـوم، لا يكف عن الكتابة والبحث في مجالات فكرية شتى، مضيفاً ومجدداً كلما امتدت به الحياة. .

الكشكول مقال بـدأ منذ أول الثمـانينات في **الرياض** الاسبـوعي، ثم أصبح في ملحق «ثقافة الخميس» متميزاً ومستمراً ما استمرت صحة صاحبه جيدة، ولا يتـوقف إلا عندمـا لا يتمكن أ. د. ظاظا من الامساك بالقلم، وقد حدث ذلك التوقف مرتين، الأولى قبل سنتين تقريبا عندما خضـع الكاتب لاجـراء عملية جـراحية، والثـانية قبـل شهور قـلائل بـالحالـة نفسها. فلما ان أحس بالنقاهة حتى بادر بالمواصلة على نفس المنهج المتوهج أبداً والذي لم يشر ولو نزراً إلى الحـالة الصحيـة وانما ينحـو إلى المشاركـات الفعالـة في حال الانسـان في حياتـه بـاسلوب ساخـر حيناً يغلفـه التأمـل، والغوص في مخـابىء الحيـاة بحكـم الثقـافـة الـواسعـة والتجارب الحياتية الطويلة.

●● في بداية ظهور أ. د. ظاظا إلى اطار الصحـافة المحليـة أخذ مني أحـد الزمـلاء الشباب المتحمسين للعمل في ذلك الوقت بالصحافة إذنا بعمل لقاء مع الدكتور ظاظا.

وجاء الدكتـور إلى المكان الذي أخذ يتحـدث فيه عـدة ساعـات على مـرتين متتـاليتين، استغرقتا قرابة أربعة أشرطة كاسيت. . وربما تزيد. . وذهب المتحدث، وإلى اليوم والحديث في تلك الاشرطة مجهولة المكان.

وأنا أرجح ان السـائل في ذلـك الوقت لم يكن بحجم المسئـولية وقـد تورط حيث انهالت انهار المعرفة من فكر الاستاذ ظاظا واخذت تتشعب حسب طلب السائل الذي لم يـركز عـلى جانب معين من جـوانب هذه المـوسوعـة التي تمشي على قـدمين، وأمـام هذا التـدفق المعرفي كـانت الحيرة وربمـا ترك الحـديث إلى أجل، وقـد طال الأجـل، وتوالت «الكشـاكيل» عـلى صفحـات **الرياض** ـ ومازالت ـ لعـدة أعوام تـواجه القـراء في أوقات منـتظمـة تنبىء عن انتظام وتنظيم عقل صاحبها الذي يعطي باستمرار ما يُتقبل ويستساغ عند المتلقين الـذين لا يتحرجون من السؤال عن الكشكول لو حدث أن تأخر إلى ان تعرف الأسباب، وهذا دليـل تقدير المتلقين لحجم الفائدة التي تأتي عبر اسلوب جذاب لا التواء فيه ولا تعـرج، إذ يخاطب الـروح والعقل معـاً، فيكون بمثـابة الضـروريات للمتلقي الـذي يبحث ويريـد المـزيـد من المعارف.

الاستاذ ظاظا عَلَمٌ من أعلام الفكر العربي المعـاصر، وله وزنـه في عالم البحث والتعليم.

اذ يتميز بفكر ثاقب متطور يشير إلى ذلك الأعمال التي قام ومازال يقوم بها ومدى أهميتها. وتخصصاته في اللغات التي توزع مجموعة وليس في طاقة أي فرد أن يتحملها ويلم بها إلا من هو في قدرة أ. د. ظاظا الذي يعد من جيل العمالقة في الفكر العربي لما قدم ويقدم وبشهادة الجامعات التي تشرفت بانضمامه إلى التعليم بها.. وله من التلامذة والمريدين الكثرة الكاثرة من ذوي المؤهلات العليا والمناصب الرفيعة في العالم العربي.

وهذا الكتاب الذي جاء من عدد من المقالات يحتوي على معلومات شتى أجادها الكاتب، ومع التباين في العناوين والطرح.. إلا أن توجهاً واحداً يشبه الخيط الموصل للمقالات ببعضها يتمثل في معالجة الأمور ذات المساس بالفكر اليهودي الذي كان شغله الشاغل منذ أن كان الكيان الاسرائيلي في اراضي العرب.

فالدراسات التي كانت مستقلة في كتب عن الفكر اليهودي تلقي بظلالها على عدد من المقالات لإدراك أ. د. ظاظا بدوره كمفكر عربي صاحب قضية مهمة وهي التعليم.. التعليم بمراحله ومنابره المتعددة من الجامعة إلى الكتاب.. والصحيفة.. فالمجلة.. والحديث الخاص والعام لكونه رجل علم، والعلم يصاحبه في كل تحركاته، ولأنه صنيعة العلم فهو بدوره يصنع العلم، فبقدر ما أخذ فهو يعطي ومازال، نظراً لإيمانه بأن العلم مشاع والعالم بطبعه يريد أن ينشر الضوء المعرفي في محيطه ولا يبخل على أحد لكون ضريبة العلم هي التعليم بالوسائل المتاحة.. وما أكثر الوسائل التي يملكها أ. د. ظاظا كاتباً ومتحدثاً حيث لا فرق بين هذا وذاك إن قرأته استفدت وإن سمعته تعلمت. فكل موضوع له فيه حديث العارف إما تخصصاً وإما اطلاعاً.. وتجربة في أحيان.

وليس من شك في أن هذا الكشكول يعتبر قطرة من بحر الكاتب، ولكنه عند المتلقي هو البحر الزاخر باللآلىء والدرر. وليس أمام هذا المتلقي إلا ان يتدرج في الاقتراب من أعماقه لكي تعم الفائدة التي كان يتوخاها من هذا العَلَمْ.

وستكون وقفات تأمل في هذا الحصاد الجيد الذي يُدْخِلُ الرقم (٤) في خانات كتاب **الرياض** وإصدارات مؤسسة اليمامة الصحفية التي لقيت الاقبال من القارئين مما شجع على الاستمرار في توالي الاصدارات تباعاً وفي أوقاتها المحددة من كل شهر وسلوكا في الطريق التوجيهي المهم الذي تضطلع بعبئه أي مطبوعة تعي حجم المسئولية وعِظمها، فتكون وسيلة للقيام بدورها الفعال في مجالها لتعميم الفائدة، وهذا هو الرجاء المأمول والدائم.

سعد الحميدين



سيوف واقلام.

في كثير من الاحيان تتلاحق الحوادث في منطقة الشرق الاوسط هذه، وتشتبك، وتتراكب، حتى يصبح فهمها عسيرا، فضلا عن تحليلها او تفسيرها، ويطبق فوقها ظلام كثيف يجعل السلوك في متاهاتها امرا مرهقا، محفوفا باخطار اهونها فقدان معالم الطريق، فامريكا واقفة بكل ثقلها مع الصهيونية الطاغية في فلسطين، وروسيا جاثمة بكل جبروتها على افغانستان، وبين هذين القوسين مذابح والوان من الدمار والتخريب والتشريد، اشدها هولا وحمقا وظلاما الحرب الايرانية العراقية، التي تكشف عورات الاسلام كله امام اعدائه والحاقدين عليه، وهم كثير في هذا العالم المجنون، وتحت اعين الطامعين فيه وهم اكثر، وهكذا تنطمس معالم الطريق، فيصير الخلاف ايسر من الوفاق، ويصبح التخبط والتصادم، في كل مكان، اهون من الفصل والبت والحسم، مما يتيح فرصا ذهبية تاريخية نادرة لكل من يحلم بالاجهاز على ما بقي منا.

وتفرك الصهيونية كفيها المخضبتين بدمائنا، وتضحك ساخرة شامتة، وتروح مرددة ففي تعليقاتها وتفسيراتها انها بريئة من هذه الدماء براءة الذئب من دم يوسف، الذي جنى عليه اخوته والصقوا جنايتهم بذلك الذئب المظلوم، ويمضي المعلقون الصهاينة في الالحاح في مثل هذه الخواطر، حتى ليزعمون انهم قد غدوا المشجب الذي يعلق عليه الجيران حماقاتهم واخطاءهم، وانهم في وسط هذا الهياط والمياط كبش الفداء المسكين، الذي يحمل آثام الجبابرة المذنبين. وهم يسوقون ذلك بحذق وبراعة تخدع الاذكياء، فتلين الاذان لدعواهم، ونغرق الافهام فيما شاءوا من الظلام والابهام.

في مثل تلك المواقف والروس والامريكان بالمرصاد، من الصعب ان يسأل الانسان اين سيوف العرب؟ لكن - على الاقل - اين اقلامهم؟ اين بيانهم الذي يكشف الخفايا، وينير الزوايا، ويفضح الخبايا؟ اين اصواتهم لا للجعجعة، ولا للضعضعة، ولا للتملق والتسلق، ولا للقبائح والفضائح، ولا لتخيلات الدراويش، واوهام مساطيل الحشيش، بل لشق الطريق السوية، نحو الهدف، وتوجيه الناس اليه قبل ان يفوت الاوان؟ اين الاقلام العربية الجديرة بان تكون طلائع للسيوف؟

واقول لمن لا يعرفونني، انني من ازهد الناس في العنتريات، لكنني أؤمن بان معارك المصير لا بد ان تقود الاقلام سيوفها، بحكمة، وذكاء، وشهامة، وتقديس للحق. ان القلم هو الذي يصحح المسار، وهو الذي يودع جوهر الحقيقة في القلوب، وهو الذي يفجر براكين الحمية والنجدة من اعماق الايمان، بشرط ان يكون قلما نزيها، فالقلم مثل السيف لا يعمل الا في يدي بطل.

اما القارىء لآثار القلم، فانه مطالب بنوع آخر من البطولة، هو حب المعرفة، والبحث عنها، وارهاف الوجدان، وشفاء النفس من الكثافة والعتامة، حتى يخرج الرأي العام العربي من اللامبالاة والفردية المتقوقعة، والبلادة السعيدة المطمئنة الى الاحساس الدقيق المضني الذي يتحول الى ضحك وبكاء، ومن ثم الى وقفة جادة، واضحة، يعلم صاحبها ما يريد، ويقدر على الوصول اليه، وباختصار حتى يحقق الانسان العربي انسانيته الكملة في الحدود التي احسن التعبير عنها الناقد الانجليزي (وليم هازلت) اذ قال: الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يضحك ويبكي، لانه المخلوق الوحيد الذي يصدمه ماهو كائن، بالنسبة لما يجب ان يكون، اما ان ترتطم بنا الصدمات بلا انفعال ولا احساس، فذلك ليس من شيم الانسان، بل هو اليق بالاصنام، والاقلام بلا قراء، كالسيوف بلا جنود، وعلى القارىء ان يتعلم كيف ينبذ السيوف الكليلة، والسيوف الخشبية، وسيوف المواكب والحفلات، والا يرضى بسيوف الحق بديلا. فعندئذ فقط لن يلمع من الاقلام الا كل فيصل حسام.

لقد حاربنا العدو الصهيوني ـ وما يزال ـ بالسيف، لكنه قبل ذلك، ومع ذلك، جرد اقلامه الحادة والباهرة، والمسمومة، وكاد يقتلنا بها ونحن نيام، والا فاين عندنا الدراسات المفصلة العميقة للفكر الصهيوني ادبا وفنا؟ اين اطلاع جماهيرنا على هذا التيار الجارف الذي يتعاون منذ نشأته مع غيره من التيارات اليهودية والعالمية، في السياسة والحرب والاقتصاد والاجتماع، على زلزلة الارض تحت اقدامنا؟ انا اعلم ان قلة من شبابنا قد تخصصت في هذا الميدان، اكثرها كان من تلاميذي، لكن اكثر ذلك قد بقي في الحلقات المغلقة للبحث العلمي الاكاديمي، بينما ظلت الجماهير العربية العريضة لا تكاد تعلم عن العدو الذي ساقها القدر لمواجهته الا الهراء الذي تلوكه توعية ساذجة عرجاء، والا الدعوات التي يصبها عليه الخطباء، والاهاجي التي يصوبها اليه الشعراء، اما هو فسعيد بذلك خلي البال، وقد وقع الرأي العام الاوروبي قبلنا في هذه الملمة المدلهمة، فقد كان الناس هناك يكرهون اليهودي، ويتقربون بهذه الكراهية الى الله، فهو في دينهم قاتل المسيح وهو في مجتمعهم نموذج للطفيليات التي تنشر القذارة المادية والاخلاقية، وهو المرابي الجشع الذي يخرب ديارهم ويمتص دماءهم، فظلوا يتلقفون ما يحكى عن ذلك من نكات، و ضاحيك ومسامرات ومفارقات، فهذا مثلا يهودي يستعد للزواج وليلة الزفاف، فيذهب ـ للمرة الاولى في حياته ـ الى حمام السوق، ويتناوله اصحاب الحمام بالتصبين والتدليك والحك والفرك، وبعد ساعات من الجهد الجهيد في ازاحة القاذورات يظهر لهم. قميصه اللاصق بجلده! وهذا الحاخام يرسل ابنه الفالح ليدرس مع النصارى في جامعة برلين، ويعود الولد ليقضي اجازته في حارة اليهود مع ابويه، فيسمعه

الحاخام والولد يغسل اسنانه ويتمضمض في الحمام عندما قام من النوم، فيهرع الى امرأته مولولا صائحا: عوضنا على الله ! لقد نصروه في المدينة ! . . وآلاف من هذه النتف والطرف، وفجأة تمتلىء الاسواق بالكتب المطبوعة، بجميع اللغات الاوروبية، تحوى ما لا يحصى من النكت والطرائف في الضحك عل اليهود، وفي النهاية يقوم احد الباحثين بدراسة هذا النوع من المطبوعات فيجد معظمه صادرا عن يهود، يعملون على تسويق هذه النكت، ويرصدون جانبا كبيرا من ارباحها لمساعدة المشاريع الصهيونية، وكأنهم يفتلون الحبل الذي يجرون به التيس من شعر التيس نفسه، كما يقول المثل.

ان الاقلام العربية لم تقم بعد بواجبها في المعركة، وذلك امر مؤسف. . بينما الصهيونية تعمل دائبة في هذا الميدان منذ سنين طويلة، حتى تبدو في اعين من لا يعرفون حقيقتها نظيفة ومقنعة، وعلى حق، ويكفي ان اشير هنا الى رواية من هذا اللون من الادب العبري المعاصر، كتبها اسحق شينبرج بعنوان (السبعة الذين رحلوا). كان اولئك السبعة ستة رجال وامرأة شابة من اليهود الذين تطاردهم النازية الهتلرية، جمعتهم الكارثة من بلاد اوروبية مختلفة مختلفة في العادات والتقاليد واللغة والثقافة والحضارة، وكانوا هم انفسهم مختلفين في كل شيء، حتى في موقفهم من دينهم اليهودي، وتتوالى مغامراتهم عبر اوروبا كلها، في التهرب من المباحث الالمانية، وعبور حدود البلدان الكثيرة التي اخترقوها خلسة، والتغلب على الجوع والبرد والافلاس والخوف، بل التغلب على خلافاتهم التي تصاحبهم منذ خروج كل منهم من بلده، لكن الى اين يتجهون؟ الى فلسطين، حيث يجدون الظلال الوارفة للطمأنينة، وحيث تذوب خلافاتهم في ولاء تام للنظام الصهيوني القح، وحيث يجدون مرفأ هادئا يعيشون فيه غير خجلين ولا خائفين من ان يعلنوا انهم يهود، بصوت مرتفع، وانف شامخ، وجبهة عالية.

ولم يحاول اسحق شينبرج ان يشعر القارىء بوجوده في هذه الرواية، بل تعمد ان يعالج ابطالها بمغامراتهم ومآسيهم ببرود الجراح الذي يحرص على الا ينفعل مادام المشرط - اي القلم - في يده بحيث يخيل اليك - نعم يخيل اليك فقط - انه في قصته هذه انما يتناول ظاهرة لا تعنيه هو بالمرة.

وقد بذلت الصهيونية اقصى الجهد في اصطياد اقلام غير يهودية للمشاركة في معركتها، والحكايات حول ذلك غزيرة يصعب جمعها وحصرها، بل ان هناك فترات من زماننا يخيل للانسان فيها ان الفكر العالمي كله قد تهود، وان جميع الاقلام قد اصبحت جنودا مرتزقة في حروب اليهود. . وهنا مثال لذلك من بدايات التنفيذ لاغتصاب فلسطين، اي في السنتين الاخيرتين من الحرب العالمية الاولى ١٩١٧ - ١٩١٨م.

تحرك الجيش البريطاني الزاحف على فلسطين من مصر بقيادة الجنرال اللنبي، وكان في زمرة هذا الجيش فيلق من المتطوعين اليهود، تم جمعه وتعبئته وتسليحه باشراف شيخ المتطرفين الصهاينة، واستاذ مناحم بيجن، زئيف جابوتنسكي، وقام بتدريبه في ارض (الدخيلة) بضواحي الاسكندرية مغامر صهيوني عسكري هو ترومبلدور، كان هذا الفيلق - واسمه فيلق صهيون للبغالة - قد خاض قبل الزحف على فلسطين، معارك ضد تركيا في منطقة الدردنيل، الى جانب القوات البريطانية والفرنسية، وكان يقوده ضابط

بريطاني غير يهودي هو اللفتنانت كولونيل ج ـ هـ باترسون، ولامر ما الف هـذا الرجـل كتابا في الاشادة بالفيلق الصهيوني ظهر في الاسـواق مع دخـوله فلسـطين، على اثـر وعد بلفـور مباشـرة، وكان المؤلف يحس بما يمكن ان يثور في ذهن قـارئه من حـذر وارتياب، فـانطلق يـدافع عن حسن نـواياه بمـا يثبت العكس، اذ يقول في مقـدمـة الكتـاب: (في الصفحات التالية لم اكتب اي شيء بخبث، ولم افرط وابالغ في الثناء عندما لا يكون لـه محل..) وكما تقول العرب: يكاد المريب يقول خذوني،

والريبة بهذا الكتاب تتأكد بأمر اخر، هو انه قد ترجم فور صدوره الى لغات اوروبيـة اخرى ظهر فيها بمقدمـات فياضـة رنانـة، فمثلا صـدرت ترجمتـه الفرنسيـة في اغسطس ١٩١٨ تحمل الشارات الصهيونية، تتوسطها النجمة السداسية، وقـد كتب مقدمـة هذه الطبعة الفرنسية القائد الفرنسي الجنرال دامـار، اما المتـرجم فهو ضـابط يهودي بـالجيش الفرنسي اسمه الكابتن مرسيل سيمون.

واذا كـان الشيء بالشيء يـذكر، فـان هذا الفيلق اليهـودي ظل يقـاتـل تحت الـرايـة الانجليزية الى ان وصل الى رفح عـلى حدود فلسـطين، فاصر جـابوتنسكي وتـرومبلدور عـلى ان يـرفعـا الـرايـة الصهيـونيـة، لان هـذه هي (ارض الميعـاد) و(الـوطن القـومي اليهودي)، وما الى ذلك من الهول والهيلمان، وطبعا خضع الكولونيل باترسون والجنرال اللنبي لهذه الرغبة المقدسـة، وراح الفيلق اليهودي يجـوس خلال الـديار، ويـذيق عرب فلسطين الوانا من الاذلال.

وانـا لا اخترع شيئـا من عندي، بـل آخذ مـا انقله من المصادر الصهيـونيـة، او من مراجع (متعاطفة) معها، ومعاصرة لهذه الاحداث، فالصحفي الفـرنسي (البيرلـوندر) ـ اشهـر محرري التحقيقـات الصحفية الفـرنسيين في القـرن العشرين ـ زار فلسـطين اثنـاء الثـورة العربيـة عام ١٩٢٩ ضـد الاغتصـاب الصهيـوني لفلسـطين بمعـاونـة بـريـطانيـا ومشاركتها، والف في الموضوع كتابا عنوانه (اليهودي التائه وصل!..)

فمـما قصه في هـذا الكتاب روايـة عن رجل عـربي من مدينـة القدس اسمـه حسن، عاصر دخول الفيلق اليهـودي، قولـه: كان لي جـار يهودي جعلتـه من اعز اصـدقائي، وكانت عائلتي وعائلته ممتزجتين منسجمتين، لا نكاد نتـذكر من منـا اليهودي ومن المسلم الا عنـدما يهنىء بعضنـا بعضـا في الاعيـاد، وفي الليلة التي دخلت فيهـا جيـوش اللنبي المـدينة المقـدسة، وكـان منع التجـول مفروضـا طول الليـل، سمعت دقا عـلى البـاب، فسألت عن الطارق، فقال: انا كوهين! انزل ياحسن! فنزلت وانا اظن جاري يستنجد بي، فـما ان فتحت البـاب حتى صفعني عـلى وجهي ولعنني انـا وقـومي واهـلي، ثم راح يرقص في ابتهاج!.. وأفقت من ذهول الصدمـة الاولى، وصحت به هـل جننت؟ فعاد يعانقني معتذرا ويقول: لقد اعلنونا اننـا منذ الآن تحت الحمـاية البـريطانيـة، واننا مهـما فعلنا فلن تمتد الينا يد، ولم اصدق ما ابلغت به واردت ان اقطع الشك باليقـين، فجئت اجرب فيك!

وهكـذا صار العـربي الفلسطيني المسلم حقـل تجارب للجنـون اليهودي، تحت حمـاية الجنرال اللنبي منذ خمسة وستين عاما، وتحت حماية الرئيس ريجان الآن!

ومرة اخرى: اين الاقلام العربية؟

العقل العربي في العاصفة

القاعدة الذهبية لمن يتعاملون مع الفكر ينبغي أن تكون: الابتكار عند التأليف، والامانة في الترجمة. فإذا اجتمع إلى ذلك رخاء العقل، وصفاء الأسلوب، وثراء العطاء، فتلك غاية الغايات، على ضوئها يسير الكاتب، ومنها ينطلق الناقد. وهي تجربة أكيدة يلمسها كل فرسان القلم شرقاً وغرباً. فمما يحكي من ذلك عن برنارد شو، ان أحد من يتعاطون فن الكتابة حمل إليه شيئاً من تأليفه ليقرأه وليكتب له مقدمة. ثم راجعه بعد اسابيع فوجده ممتعضاً، يعتذر عن كتابة المقدمة المنشودة بأن الكتاب لم ينجح في اثارة حماسته واعجابه، وهنا صاح (المؤلف) محتجاً: كيف؟ ان كل ما في هذا الكتاب مفيد وجديد! واجاب برنارد شو: ربما.. لكن المفيد فيه ليس جديدا، والجديد ليس مفيدا! وانتهت المقابلة بهذه العبارة الكاوية.. وعلى منوالها سمعت أخرى من عباس العقاد، وقد جرى بحضرته ذكر أديب وصحفي رقيق أنيق، كان قد حاز شهرة واسعة بين الشباب، بالكثير الذي نشره تأليفاً حيناً وترجمة حيناً آخر. وهز العقاد رأسه باستخفاف، فسأله احدنا عن السبب في ذلك، فرد قائلاً: هذا رجل يترجم إذا ألف، ويؤلف إذا ترجم! وهكذا قضى على صاحبه بإيجاز صاعق، فهو رديء على كلتا الحالتين. إذا ألف سرق أفكار غيره من كتاب الغرب، واغتصبها لنفسه، وإذا ترجم لم يسعفه علم دقيق باللغة التي يترجم عنها، فيعمد إلى تأليف أشياء ملفقة مختلفة ليسد بها الفراغ حيث استعصى عليه الفهم. وبهذه الفوضى وأمثالها يظل العقل العربي في العاصفة مقروراً، مرتعشاً، حائراً محسوراً.

والعقل العربي فيما اعتقد هو الوثيقة الوحيدة الاكيدة للجنسية العربية. فأنا عربي لأنني نطقت أول ما نطقت بالعربية، وبها تعلمت أنا وقومي، وعلى تراثها شببت، وبقاموسها كتبت والفت. وهي أمور في ميزان التاريخ والحضارة، أهم الف مرة من الانتماء بنسب صحيح الى قحطان أو عدنان، بها تثبت بلا جدال عروبة مصر وسوريا ولبنان وشمال افريقيا، كما تثبت شعوبية اسرائيل وايران، الأولى برطانة عبرية تجتاح عروبة فلسطين، والثانية بفارسية قبلت الاسلام ورفضت العربية منذ ألف عام. وأرقى دول العالم الآن ليست بأعراق، بل هي لغات وألسنة وأوطان جغرافية، فالقومية الألمانية قد انصهرت فيها أعراق جرمانية وتيوتونية ونورمندية

وفنلنـدية وهنغـارية، والفـرنسيون خليط من الغـالة والفـرنجـة والـرومـان والكلت والفلمنـك والقـوط والبـاسـك والعـرب، وهكـذا بقيـة الأمم. لكن تبقى الألمـانيـة والفـرنسية بمثـابة الـطابع المميـز للقوميـة والحضارة في كـلا البلدين، كـالانجليـزيـة والايطالية والاسبانية في أممها. وفي زمننا هذا، الذي اصبـح ممكناً فيـه لأي انسان أن يجـوب اقطار الارض كلهـا بأسـرع وقت، لا يرد عـلى خاطـر أحد خـارج بلادك ان يسألك من أيـة قبيلة انت، لكنه يصنفـك بحسب لغتك التي تعبـر بها عن نفسـك، بحسب الأرض التي جئت منها، والتي صبغت سحنتك بصبغتها.

وليست العصبيـة العرقيـة بـالـدعـوى الجـاهليـة لـدى العـرب فقط، بـل هنـاك (جاهليون) معاصرون لنا في آسيا وافريقيا وأوروبـا وامريكـا، من أولئك المجـاهرين بالتفرقة العنصرية. وقد اثبتت علوم الوراثة والسلالات (الانتربـولوجيـا) والهجرات انها دعوى جاهلة وجوفاء تقوم على غير اساس. وكـونها جاهليـة يختلف في معناه عن كـونها جاهلة. فهـذه الأخيرة آتيـة من الجهل بمعنـاه الفكري الـذي هـو ضـد العلم والثقافة، امـا الجاهليـة فتضم إلى جانب ذلـك معاني الكبـرياء الممقـوتة، والعـدوان الارعن، والنفخة الكذابة، وما يحيط بذلك من سفاسف وصراخات وعنف وافتراء، وهي الصفة التي تجعل الانسان مخلوقاً كريهاً سادراً في غيه، ممعناً في غروره وادعـائه، نافشاً هارشاً هابشاً، على ما صوره الجاهلي عمرو بن كلثوم ببيته المشهور:

ألا لا يجـهـلـن أحـد عـليـنـا   فنجهـل فـوق جهـل الجـاهلينـا

وهنا يمكن للقارىء ان يتسلى بلعبة ظريفة، هي تصنيف المتحكمين في مصير هذا العالم المسكين إلى (جاهلي) و(جـاهل). فـالرئيس الـزائيري مـوبوتـو سيسي سيكـو - وارجو ألا اكون قد اخطأت في اسمه (جاهـل) لا محالـة، بينما ادولف هتلر (جـاهلي) وكذلك مناحيم بيجن. وسيرى القراء إذا هم استرسلوا في هذه اللعبة اننـا في (عصر النـور) حيث يندر (الجـاهل) ويشيـع (الجاهـلي) ويكـثر ويـزدهـر. وقـد يكتشفـون (جـاهليات) اقليميـة محلية، من دعـاة الاشوريـة والفرعـونية والفينيقيـة والبربـرية، يعزفون بألحان تفنن فيها جهابذة تل أبيب بينـما تل أبيب نفسهـا قد علمت يقينـاً بأن العرق وحده لا يصنـع قوميـة، وبأن اللغـة هي الحارس الأمـين على الـوطن والعقل والامة. ومن هنا كانت معركة الصهيونية في صنع اللغة العبرية الحديثة وفرضهـا على رعـاياهـا، هي أقوى معـركة خـاضتها، وأطـول معـركـة ايضـاً، لانها بـدأت قبـل الاستيطان الصهيوني في فلسطين بنحو قرن من الزمان. وكنت دائماً اسائل نفسي عن السر في عنـاية القـوم بتثبيت الدعـامة اللغـوية قبـل اغتصـاب الارض، وفي بـذلهم بسخاء في سبيل اركاب العقل الصهيوني عليها، وبما كان يبدو عليهم في هذا الصـدد من قلق، وحـرص على الـوصول إلى الهـدف بأسـرع مـا يمكن، وبـأيـة تسـاهـلات وتنازلات، حتى اللكنة في النطق، والتسامح في استعمال الـدخيل، والاقتصـار على قواعد اسـاسية في النحـو، يكاد فهم التـوراة على ضـوئها يكـون مستحيلاً. وظللت أجمع عناصر للاجابة على هذا التساؤل سنـين طوالاً، إلى ان اكتشفت، بـالصدفـة، أهم هذه العناصر.

كان ذلك في أيام حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م (حرب العاشر من رمضان). ولكثرة اعداد الأسرى من جنود الصهيونية في تلك المعارك، صدر أمر بتكليفي بالمشاركة في التحقيق مع أولئك الأسرى، وكان أول ما شد انتباهي العدد الهائل من الكتب التي عثرت عليها القوات المصرية في خط بارليف الحصين بعد سقوطه تحت قبضتها. آلاف وآلاف من الكتب باللغة العبرية. وبدأت اتصفح بعضها، وابتسم: الشباب هو الشباب في كل مكان، والسعيد منهم هو الذي يجد توجيهاً صحيحاً لا اثر فيه للجاهلية. رأيت روايات بوليسية، وقصصاً غرامية (بعضها جنسي متهتك بذيء، وموضح بالصور ايضاً). ودراسات سياسية تشمل كل فروع المروحة من اقصى اليمين الغيبي المناقبي المتزمت القائل بجاهلية الاغتيالات والانقلابات على الطريقة النازية الفاشية إلى أقصى اليسار الشيوعي الصاخب العارم الهاتف (الفصيح) جداً. وهنا وهناك دواوين من الشعر، ومسرحيات، ويوميات ومذكرات لرجالات الجيل الماضي يختلط فيهم هرتسل وحاييم فايسمان وموسوليني وبن غوريون وماو تسي تونغ، حتى جريتا جاربو ومارلين مونرو، ثم جرائد ومجلات وأشرطة راديو، شيء كثير جداً!

ولاحظت لأول وهلة كثرة الكتب المترجمة إلى العبرية في هذا (الأدب). ترجمات من جميع لغات العالم، في طبعات شعبية رخيصة كما يبدو من مظهرها ومن الأسعار المطبوعة على الغلاف في بعضها. وتذكرت ان الترجمة، في عالم طموح، أمر حتمي تقضي به الرغبة في ملاحقة العقول المفكرة، في عاصفتها الهوجاء التي ترج اركان العصر الحديث كله. وتذكرت ان دار النشر الامريكية (كتب الجيب) كانت قد كلفتني مراراً بقراءة ما يصدر في فرنسا من كتب تثير اهتمام الرأي العام في ميدان الفكر العربي والاسلامي، وان اتخير لها من ذلك ما أرى ضرورة ترجمته ونشره على القارىء الامريكي. وكانت تدفع لي مكافأة دسمة عن كل تقرير نقدي ابعث به إليها، وفي أقل من ثلاثة أشهر يكون الكتاب في الاسواق مترجماً بين أيدي الامريكان، وسألت نفسي بكثير من التردد المحتشم: وأين الترجمة التي تأخذ بيد الفكر العربي في العاصفة؟

ثم جاء دور التحقيق مع الأسرى انفسهم. ونظرت في القائمة الموضوعة أمامي، فرأيت بين الأسرى طبيباً، ومهندساً زراعياً، وضابطاً في الجيش العامل، وطالباً بالمعهد العالي للحاخامين، وما لا يمكن الاتيان عليه كله في هذا المقال، لكن استوقفني هؤلاء الأربعة بوجه خاص، لأن الذين يمثلون أمامي هم دائماً ممن لا يعرفون لغة أخرى كالعربية أو الانجليزية مثلاً لاجتياز الاستجواب أمام غيري. وامرت باحضار الأسير الطبيب. وبعد حوار قصير بالعبرية بيني وبينه قلت: ألا تعرف لغة أخرى غير العبرية يا دكتور؟ فأجاب: اعرف بعض الانجليزية للقراءة فقط، ولقراءة الضروري من البحوث الطبية في نطاق تخصصي، اما التحدث بلغة (أجنبية) فصعب عليّ جداً. وعدت اسأله: اين درست الطب؟ فأجاب: في جامعة

تل أبيب، ثم تخصصت في مستشفى هاداسا بالقدس. قلت: كل هذا بالعبرية؟ قال: نعم، لكن معظم الكتب هي نفس المراجع الطبية التي تدرس في أرقى جامعات العالم بعد ترجمتها إلى العبرية. وواصلت اسئلتي قائلا: لكن اما تشعر بالحاجة إلى اتقان لغة اجنبية أخرى؟ فقال: لا، لأن كل شيء مهم في مهنتي، حتى المقالات والبحوث القصيرة اجده مترجماً.

وكانت اجابات بقية هؤلاء (المثقفين) من نفس القبيل. لكنني اذكر ان الحديث مع الأسير (الحاخام) قد طال بشكل ملحوظ، غير ضنين بالكلام، اسمه مردخاي طويطو. قلت له: يا مردخاي، بماذا تعلل ظاهرة تقهقر معرفة اللغات الاجنبية في نظم التعليم الاسرائيلية، مع انكم كنتم معروفين منذ القدم بالبراعة في معرفة اللغات؟ وفكر طويلا ثم قال: ربما كان ذلك لعقدة نفسية معينة. فاليهودي المتشرد في بلاد الله كان عليه ان يتعلم لغات هذه البلاد، وان يجهل العبرية حتى لا تكون سبباً اضافياً لمزيد من الاضطهاد في الأمم التي كانت تكره اليهود. ولما اصبح هذا اليهودي (مواطناً) في فلسطين، التصق باللغة القومية - يريد العبرية - وترك ما سواها، وقرأ ما يحتاج إليه من الفكر الانساني مترجماً. قلت له: الا تظن ان اقطاب الصهيونية قد تعمدوا ذلك حتى (يسجنوا) رعيتهم من امثالك داخل اللغة العبرية، فلا يعرفون من أحوال العالم المحيط بهم إلا ما يسمح أولئك الاقطاب بترجمته وتقديمه لهم؟.. وعاد مردخاي طويطو إلى تفكيره العميق ثم صاح: الا لعنة الله عليهم! هذا صحيح. فلو انني كنت اعرف العربية مثلاً لوقفت على اخبار الدنيا، وأنا في هذا الحبس، من الاذاعات التي يسمعها الحراس هنا.. نعم! انت على حق! آه لو كنت اعرف العربية، لطلبت تواً من الحارس جرعة من الشاي! وقهقهت ضاحكاً وأنا اطلب من الجندي الحارس كأسين من الشاي، وأعود إلى صاحبي قائلاً: ارأيت؟ حتى كأس الشاي عندكم مترجم.

وهززت رأسي وانا اقول لنفسي: العقل العربي في العاصفة.. والعقل الصهيوني في الحبس.. ولا يزال هناك من يحلم بلقائهما!

وذهب بي التفكير إلى الحضارة الاسلامية الشامخة، وما اسهمت به من ترجمة ثمار العقل الانساني كله في رفع قواعدها، من غير هذا الرعب الغامض مما قد يكون من غوائلها، وتزاحمت أمامي الاسئلة والمشاكل.

صحيح ان الفكر الأجنبي ينطوي على غوائل، لكن تراث العروبة والاسلام ليس بحمد الله هشاً ولا متهالكاً إلى الدرجة التي نخشى عليه فيها من خطرات النسيم وهي على كل حال خير من تركه ضائعاً في الزوابع والزعازع.. نعم، الفكر العربي في المعركة خير منه في أقصى الخطوط الخلفية، والعقل العربي في سرب العقول المحلقة بأجنحتها خير من العقل العربي في العاصفة.

إرادة المستحيل

اذا حدث المستحيل سمي ذلك معجزة. وبمعنى آخر فان المستحيل المطلق غير موجود. وانما عندنا مستحيلات نسبية، كثير منها يتحقق لغيري واعجز انا عنه. ورسم حدود الممكن فن وعلم وحكمة، يستوي في ذلك الممكن للافراد، وللامم وللانسانية، وللطبيعة العظيمة، التي ما تزال معظم امكاناتها وقواها من الاسرار والعبقرية في كل زمان ومكان هي تجاوز الممكن في عصرها، او تصديق المستحيل اذا اتى ممن يتضح من ملابسات حياتهم انهم شرفاء صادقون امناء لا يغشون ولا يخادعون، ولا يضللون ولا يشعوذون، ولا يمخرقون، ولا يطرمذون. والطرمذة ـ لمن لا يعرفونها ـ هي التهويل، والمبالغة الخطابية والمسرحية الجوفاء، بقصد تحصيل فائدة ما من غير حق. والطرندان، وهو محترف هذا الاسلوب المدمر، داء وبيل يصيب السياسة والادب والدين والفن، وليس له من دواء الا ما يقابله به المجتمع من سخرية واعراض. اما صناع المعجزات فاشرفهم الرسل والانبياء عليهم سلام الله. وقديماً ـ قبل بعثة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ انتقل واحد من أكبر مفكري الرومان من الوثنية الاوروبية، الى المجوسية المانوية، ثم آمن بالمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وقال قولته المشهورة: لقد آمنت به لانه حقق المستحيل. وهذا المفكر العلامة هو الذي اصبح اسمه في النصرانية: القديس اوغسطين، صاحب كتابين جليلين من اكرم تراث الانسانية احدهما صغير اسمه: الاعترافات، والآخر ضخم جداً عنوانه: مدينة الله. كلاهما باللغة اللاتينية. ومرة اخرى اذكر هنا ما كان من حركات الترجمة في الفكر العربي في بغداد العباسيين، وفي بيروت القرن الماضي، الواقفة برسوخ وشموخ بعروبتها في وجه الطوفان التركي ثم الفرنسي، وفي قاهرة محمد علي بمطبعتها الاميرية، وجيشها من المترجمين. اذكر ذلك في حسرة، واكاد اقول: قفا نبك!..

وفي عصور الظلمات تحول المستحيل النسبي عندنا الى مستحيل مطلق، فاكتشف غيرنا طاقة البخار والكهرباء، واعدوا لنا البارود والديناميت، وعرفوا الاشعة السينية وتحت الحمراء والليزر، وحطموا الذرة وسخروها، الى ما لا يناله الحصر من معجزات العلم. بينما نحن ما نزال نردد: اذا اردت ان تطاع فمر بما يستطاع!.. واذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون!. الخ.. الخ..

وضربوا لنا في ذلك الامثال. لكنهم وضعوا فيها الطرمذان بدل العبقري.

قال الراوي: ان ملكاً في قديم الزمان دعا وزيره وامره ان يقيس المسافة بين الارض والقمر. وقال الوزير: مستحيل!. فانتهره ذلك الملك صائحاً: ليس هناك مستحيل! واصر على الامر. فخرج الوزير مهموماً كاسف البال، وراح يمشي على ضفة النهر وحيداً. وهناك لقيه أحد شيوخ النصابين المطرندين. ولما وقف منه على الخبر، قال: بسيطة! خذني الى الملك وانا اجيبه الى بغيته، والا فليصنع بي ما يشاء. ورأى الوزير النجاة على يد هذا الرجل، واصطحبه الى القصر وراح صاحبنا يعدد من اسماء الافلاك ما علق بذهنه من المنجمين، ويهول في وصف اقطار السماوات، ، وما يصعد اليها - وينزل منها - من الارواح والشياطين والجن والعفاريت، ومن يطاردهم من الملائكة كل هذا والملك ووزيره معجبان منبهران. ثم قال النصاب: انها كما ترون عملية شاقة وطويلة ومحفوفة بالخطر. واريد مائة ألف دينار من الذهب حتى اصعد بنفسي الى القمر وآتي بالقياس الدقيق بينه وبين الارض ولما سئل كم من الوقت يلزمه لاتمام هذه الرحلة التاريخية قال: اربعة عشر شهراً، وثلاثة اسابيع، وخمسة ايام، وساعتان، وثماني دقائق وست وعشرون ثانية بالتمام والكمال. والنصابون جميعاً يعرفون ان الامعان في دقة التفاصيل اسهل في سبك الحيلة.

وتسلم صاحبنا المال، واختفى الى غير عودة فأمرت المحكمة بالبحث عنه والقبض عليه. اما هو فقد احس بذلك. فذهب واحضر جملين، اوقر ظهريهما بآلاف من لفائف الخيط وذهب الى الديوان، وهو يلهث كمن جاء من سفر شاق بعيد. وسألوه عن الخبر، فقال: هذا الخيط الذي معي هو طول المسافة بين الارض والقمر. وقد صعدت بنفسي. واحس الجميع انه قد يكون كاذباً، وقالوا له: وما يدرينا ان ما تقوله صحيح؟.. قال: بسيطة!.. امسكوا بطرف الخيط، وتناوبوا عليه حتى اقوم برحلة جديدة الى (هناك)، فاشد الخيط من عندي وانتم تنظرون، ومصاريف الرحلة الجديدة مائة ألف دينار من الذهب ايضاً. واخذ المال، واعطاهم طرف الخيط، وراح يتجه نحو باب الخروج بخطى محسوبة معدودة، ويفك من الخيط بقدر كل خطوة الى ان اختفى عن الانظار. فأرسلوا من ينظر اين وصل الرجل في رحلته بين الارض والسماء، واذا به قد الصق الخيط الى بوابة الديوان بقطعة من الشمع، وانصرف وجاء الحارس يصيح: لقد هرب النصاب!.. وسألوا: كيف؟. قال: شمع الفتلة. فذهبت مثلاً بين العامة. اما الحكومة فرأت هيبتها قد تصدعت بما يتجاوز فضيحة ووترجيت او عصمت السادات ورشاد عثمان وتوفيق عبدالحي في عهد السلام والرخاء والثورة الخضراء والانفتاح في ارض الكنانة المحروسة، فآثرت ان (تشرب) المقلب، وان تغلق ملف الصعود الى القمر.

ومن يومها يبدو اننا اصبحنا نفزع من (تشميع الفتلة) وننهي انفسنا عن التطلع الى القمر، حتى كما كان يتطلع اليه اسلافنا من الشعراء. وهو امر خطير، ترك الشعر والفن والادب في يد كل آفاق وطرندان. بينما يعلم العالم كله ان مستحيلات العلم انما تحققت اولاً في احلام الشعراء، وخيالات الادباء، ورؤى الفنانين. وفي ذلك يقول هوراس في اثره اللاتيني الخالد (فن الشعر) ان الشعراء كانوا الاستاذة الاول للبشر... والشاعر الانجليزي (شيلي) يقول ان الشعراء هم المفسرون للوحي

السابح في الملكوت، وهم المرايا التي تعكس صور المستقبل امام الحاضر. وقد كان شعرنا العربي قديماً في اصفى وانقى واعلى مراتب هذا المستوى. ثم ماذا ؟ ثم لا حول ولا قوة الا بالله. ! تحول الشعراء من العطاء الى الاخذ، ومن الكلام الحر، الحلو والمر، الى الاخذ بالاسباب، والجري في الركاب، والنفخ في المجامر، والسعي بالمباخر، والشعوذة بشظايا من افكار اجنبية لا مفهومة ولا مهضومة، تصبح عندنا (مذاهب) و (مدارس) و (اتجاهات). افلا يتدبرون قول الاديب الفرنسي الفيلسوف مونتاني من ان كتابة قصيدة تافهة اسهل من فهم قصيدة جيدة. وهو كلام يحتاج الى شرح طويل ودقيق، من نقاد علماء يرعون حق الله وحق الامة فيما يقولون. وتبقى بعد ذلك صعوبة اخرى، وهي ان النقد - في الغالب - يخاطب العقل، بينما المستحيل في الشعر لا يأتي الا مع شعرة من الهوس، او كما يعبر عن ذلك خطيب الرومان الاكبر شيشرون، منذ ألفي عام، نقلا عن الفيلسوف اليوناني ديموقريطس، الذي سبقه بخمسمائة عام اخرى، اذ يقول انه لا يوجد شاعر عظيم الا وفيه بعض توابل الجنون. والناقد العبقري هو ايضاً الذي يستطيع المستحيل، اي تقديم توابل الجنون هذه بكامل مذاقها على مائدة العقل.

اما الشاعر فعليه - ان كان موهوباً وليس مشعوذاً - ان يعلم انه انما يحقق المستحيل، في عالم الفكر والفن والجمال، اذا ترك خواطره تنساب على سجيتها، بدون نفاق، او تصنع بشرط ان يكون مزوداً بما لا بد منه لاتقان التعبير، واعني اللغة الطيعة الامينة المرهفة، والثقافة الفكرية الواسعة، والدراية التامة بتراثه القومي كله في ادق ثناياه. وبعد ذلك عليه الا ينهك نفسه وشعره بالتنميق والتزويق، والكد وسهر الليالي، حتى لا تصدق عليه ملاحظة الاديب البريطاني اسكندر بوب من ان الشاعر المتكلف يحرم نفسه من النوم فيأتي شعره منوماً !

وكما اسلفت فان الشاعرية هبة، والشاعر الحق هو الذي يعطي بسخاء مما اعطاه الله.

في هذا المعنى كتب شاعر معاصر هو الفرنسي بيير لويس فلوكيه (١٩٠٠ - ١٩٦٧م) ديواناً اسمه: مزامير الحب والموت. ولم يكن هذا الرجل شاعراً فحسب، بل كان مناضلاً نشيطاً من اجل الشعر، اسس (صحيفة الشعراء) التي تصدر في باريس، ونظم مهرجانا دوليا للشعر يقام كل عامين. ومع كل هذا الجهاد فانه لم يكن في حاجة الى الشعر ليعيش، فهو رسام بارع ومهندس معماري، واستشاري في الهندسة المدنية، ولكن (توابل الجنون) التي ذكرها شيشرون جعلته يمنح كل حياته للشعر وللشعراء، من اي جنس ودين، وبأية لغة، في جميع بقاع الارض. ولهذا الشاعر، غير (مزامير الحب والموت): جسد وروح، الغضب الساطع، ماذا يقول البجع، الآس الاسود.

وقد اخترت من (مزامير الحب والموت) قصيدة تؤكد بعض ما كنا فيه:

مزمور للرعونة

طوبى للسمح المعطاء !
الذي يأكل قمحه وهو اخضر،
الذي ينقش اسم (الحب) في الرمال،

الذي يعانق الريح،
الذي يصفف ضفائر الموجة،
الذي يتناول القمر بين ثناياه،
الذي يضع المحراث امام الثيران،
انه سيموت مثل اخوانه (العقلاء) !
بانقطاع النفس،
بذوبان القلب في لهب اللا نهاية.
الا يا إخوتي في الرعونة واللذة..
يا من تقدمون اغنية عذبة.. قرباناً للحب..
إنكم أمة من جنادب البساتين المرحة..
نشوى بالجمال القدسي.. تحلق في لازورد الملأ الأعلى !.
يا أهل الهوس والرعونة ! الراقصون على الموسيقى..
يا من اذقتم المساكين طعم البهجة،
يا من سطرتم اسم (الحب) على شواطىء السماء،
يا من زينتم ضفائر السحاب،
يا من نفحتمونا بما لا يحصى من النجوم..
أنكم انتم الذين آمنتم بآيات الله،
فآثرتم الوجد والتسبيح !
إن اليد العظيمة.. الظليلة.. الحانية..
ستهديكم الى عوالم صداحة بالألحان..
ستجرحكم بنصلها الماسي جرحاً لذيذاً..
منه تقطر ابهى واصفى رؤى الخيال..
فتنشد افواهكم للابدية !
وينزل على قلوبكم مع مطلع كل فجر..
المن الحلو المتألق بالالهام..
هناك سيراكم النمل، الذي كان يهزأ بكم..
وهو امام شبابيك البنوك..
هذا النمل الطيب، الكادح، الساعي دائماً وراء الرزق..
سيحمل هو اليكم ـ هناك ـ غذاءكم من القمح والعسل.

ان في الدنيا ـ دنيانا المعاصرة ـ لشعراً كثيراً، فأما أن يستقيم شعراؤنا ـ وأعني الموهوبين منهم فقط ـ على الجادة، حتى يفلس بينهم كل مطرمذ ومشعوذ، واما ان نعود الى مدخراتنا من الاسلاف، وان نترجم عن غيرنا شعراً مستورداً، نعم ! حتى هذا، الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً.

علامات استفهام ؟؟؟؟؟

■ اشتهر الشعبي، احد فقهاء الدولة العباسية وقضاتهاالاذكياء، بنفوره الشديد من الاسئلة السخيفة، التي تصدر عن طبع كثيف وفكر مظلم، واشتهرت عنه في ذلك قصص كثيرة منها، على سبيل المثال، انه في يوم ما، على مستهل رمضان، لم تثبت لديه رؤية الهلال، وفي يوم الشك ذاك، ارهقته العامة بالمجيء الى داره، وسؤاله ايصومون ام يفطرون؟ وكان اليوم زيادة على ذلك من ايام الصيف الخانقة الشديدة الحر فخرج من الدار هو وامرأته، وجلسا في ظل امام الباب، ووضع الشعبي بين يديه رمانة كسرها فلقين، فاذا رأى مستفسرا يقترب منه تناول بعض حبات الرمانة وراح يأكلها، فيجد السائل الاجابة العملية، ويعرف ان اليوم افطار، وينصرف دون ان يزعج الشيخ بالسؤال. وفيما هو كذلك اقبل عليه رجل طويل القامة، صغير الهامة، ذو عنق كالنعامة، واخذ الشعبي من حب الرمان بمضغه ويأكله بوضوح وجلاء والقادم مجد في قصده لا ينثني، حتى اذا وقف امام القاضي وامرأته سأل بصوت جهوري ايكما الشعبي؟ فاشار الشيخ الى زوجته وقال: هذه فادرك السائل - بعد فوات الاوان - انه قد اخطأته الكياسة في سؤاله، وعاد يقول اصيام ام افطار؟ ورد عليه الشيخ قائلا ألم تر ان القاضي يأكل؟ ومرة اخرى عرف ان سؤاله في غير موضعه. واراد ان يسوق ما يصلح ان يكون له عذرا، فقال: ذلك انني قد احتجمت، فماذا آكل لتعويض ما اخذ من دمي في الحجامة؟ وضرب القاضي كفا بكف وصاح، وقد عيل صبره: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه الى الحجامة؟ . . وراح هذا الاحمق يبحث عن موضوع آخر «يداوي» به ما افسدته اسئلته السابقة، فقال مستفتيا اذا شتم مسلم مسلما في يوم الشك، فهل يأثم؟ قال الشعبي: وهل شتمك احد؟ قال: نعم! فاجابه القاضي في الحال: انه - اصلحك الله - ما شتمك!

■ فالسؤال السخيف، من الطبع الكثيف، لا يعدو ان يكون نتوءا فوضويا ينكسر به نظام الفكر، وتنبعج دائرته من هنا، وتنقعر من هناك، حتى تفقد رواءها واستواءها. ومع ذلك فان الافكار لا تستغني عن الاستفسار، لكي تنجلي الحقائق،

ويقوى التمييز بين الامور، وتتقدم الحضارة الانسانية وقد يكون اختيار السؤال، وطرح المشكلة، وابراز الغموض، وصياغة القضية، ادق واصعب من الادلاء بالجواب، فالاستفهام هو البشير بالفهم، والشك في موضعه، من اهم الطرق المؤدية الى اليقين وعلامة الاستفهام الذكية، القوية، هي مرآة الفكر النشيط، والفكر النشيط، الباحث عن جوهر الاشياء، وحقيقة الوجود، هو الوثيقة والحجة الدامغة، والرهان الناصع، والدليل الساطع، على ان وجود الانسان في الحياة ليس خيالا، ولا وهما، ولا سرابا، انا افكر، فانا اذن موجود، هكذا قال الفيلسوف ديكارت ومن هذا المنطلق، وضع للناس عناصر المنهج الاساسية للتفكير والتعبير في كتابه المترجم الى العربية بعنوان «مقالة في المنهج»، اشترط فيه على كل من يتصدى للكتابة في امر من امور الفكر والعلم شروطا ثلاثة هي : الوضوح، والدقة، ورشاقة العرض .

■ وقبل ديكارت، بل قبل التاريخ كله، كان الانسان يخطو خطواته الاولى على درب طويل لا تحدده له إلا علامات استفهام فلما عرف معالم الطريق - او ظن انه قد عرفها - راحت علامات الاستفهام هذه تتشابك، وتتعانق، ويندمج بعضها في بعض، لتستوقفه منها علامتان كبيرتان هما كيف؟ . . ولماذا؟ . . كيف يتقلب الليل والنهار؟ . . كيف تختلف فصول السنة؟ . . كيف تبقى النجوم ثابتة في افلاكها؟ . . كيف يشبه الابناء آباءهم؟ . . كيف تتوالد الكائنات الحية؟ . . كيف تنتقل الحرارة من جسم الى جسم؟ . . ومن مجموع الاجابات عن هذه الاسئلة قام صرح العلوم الطبيعية، تشرح هذه «الكيفيات»، وملايين غيرها، بينما هناك ما لا يحصى منها يبقى بعد بلا جواب، اما «لماذا؟» فانها تطالب بالحكمة الكامنة وراء ظواهر الامور لماذا وجدنا على هذه الارض؟ لماذا يتمزق كيان الانسان بين مادة الجسد ونوازع النفس، ومطالب العقل؟ لماذا نعيش في مجتمع؟ . . لماذا تنتهي كل حياة في هذا الكون بالموت؟ لماذا يقتل الانسان اخاه الانسان؟ لماذا نبني حضارات في هذا العالم الفاني، ولا تستطيع ذلك كائنات حية اخرى غير الانسان؟ . وملايين من الاسئلة يرتفع بناء الفلسفة والحكمة، شامخا راسخا حينا، متضعضعا متصدعا احيانا . في «كيف» و«لماذا» تكمن القوة المحركة للفكر، وهنا نعود الى الالحاح في ضرورة النقد، وهو المظهر المنظم المقنع للتمييز وقديما نجح النقد في تنقية الاجابات البدائية عن كيف ولماذا من الاحالات السهلة الى الخرافات والاساطير، ليضعها على بساط التحليل المنهجي العاقل كان النقد يأخذ بيد الفكر فيعبر به من المستحيل الى الممكن، وينقله من الظن الى الحق، ومن الوهم الضبابي العاجز الى الواقع الواضح الفعال، يستوي في ذلك النقد الادبي والفني والنقد العلمي، والاجتماعي، وحتى النقد السياسي ثم تطفل على النقد من لا يصلح له من الافراد والجماعات، فكانت الضلالات والمهاترات، وتعددت الهيئات والصفات، وانفتحت الابواب لكل الاكاذيب والترهات، وعصفت بالفكر الزوابع والذاريات اما السبب في ذلك فهو الجهل .

■ ولنسمع الاديب الناقد فولتير، احد اعمدة الفكر الاوروبي المتحرر في القرن الثامن عشر، يشيد بتقلص الجهالة في زمانه يقول من المزايا العظيمة للقرن الذي

نعيش فيه ان نرى هذا العدد الكبير من المثقفين الذين ينتقلون من اشواك العلوم الرياضية الى ازهار الشعر، ويستطيعون اصدار حكم صائب على كتاب في ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) كما يحسنون وزن مسرحية مثلا فروح العصر قد جعلتهم في الاغلب الاعم قادرين في آن واحد على التفاعل مع الفكر العام للمجتمع والعمل في قاعات البحث المتخصصة، مما صاروا به ممتازين على سابقيهم. واكاد اقول وعلى لاحقيهم ايضا يا فولتير، فقد كاد «التخصص الدقيق.. بعد ذلك بقرنين من الزمان ان يقضي على كل صلة انسانية صحيحة بين العالم المتخصص والرأي العام، وهو امر مؤسف وخطير، مؤسف لان «زبائن» الشعر والفن في ايامنا هذه قد انتهوا الى التقوقع في شبه دائرة مغلقة، الزبون فيها هو بدوره منتج او متطلع الى الانتاج، ولا يكاد يدخل في تلك الدائرة من له اهتمامات اخرى من علم او تجارة او صناعة، حتى بات تسويق الشعر والفن صعبا يتسم بالكساد، او بما هو افدح من الكساد، وهو توزيع الكثير مما يصدر منه على شكل هدايا من المؤلف الى زملائه في الحرفة وخطير لسببين: اولهما ان تجاهل غير المختصين لهذا التراث قد اضعفه واهزله، وشكك اصحابه في قيمته وجدواه، وثانيهما ان حرمان غير المختصين من اطلالة على هذا الجمال قد لطخ نفوسهم بالقبح، وفساد الذوق، والانعزال عن هذه الانسانية الفانية، في ابراج من الترفع والانشغال والعكوف المحموم المجنون على البحوث المتخصصة وحدها، وعلى عالم المال والاعمال في كل تصلبه وصلفه، مما اوجد من بينهم نفوسا لم يصقلها الجمال، ولم يغسلها الفن، ولم يرققها الشعر والادب، ولم يرهفها وقع الموسيقى، فهان عليها شأن الانسانية، وسهل لديها اختراع وسائل كثيرة «متقدمة» لتدمير هذه الارض ومن عليها.. عشرات المرات، لان هؤلاء المتخصصين يجهلون تماما ما تضمه هذه الارض من شوامخ الفن، ومن معجزات الجمال، ومن اعاجيب الابداع، ان العالم المتخصص تخصصا دقيقا يتعرض دائما لانحرافات نفسية مهنية، يصبح على اثرها اشبه بسباع «السيرك» المدربة على لعبة واحدة مدهشة، لكنها قد نسيت كل شيء عن الادغال وحياة الغابات، وفقدت القدرة حتى على الزئير، الا بامر مروضها، وقد ادركت اليونسكو خطورة هذه الظاهرة، فاوصت بادخال برامج من الآداب والفنون في متطلبات التعلم في المعاهد العالية المتخصصة في العلوم الطبيعية والتقنية.

■ تذكرت الآن فجأة، والقلم في يدي، المعارك الابدية بين الاديب والناقد وحضرني منظر لطيف وصفه الاديب الفرنسي «رينيه بنجامان» في الصفحات الاولى من كتاب له عنوانه «مهزلة السربون» يهاجم فيه جامعة باريس العتيدة، لان النقد الذي يدرس فيها هو مجرد نظريات، محنطة مجففة لا لون لها، ولا طعم، ولا رائحة، فيها استبداد وارهاب يقتلان الموهبة، ويقضيان على روح الابداع والابتكار عند الشباب ثم يقول: واخشى ان يظن القارىء انني احمل على السربون لانني حرمت من شرف الدراسة بها. فابادر لاطمئنه بانني قضيت فيها سنين من اعز اوقات

الشباب . اتقلب في دهاليزها ومتاهاتها، وانصت لمحاضرات اساتذتها العظام،واجتاز اختباراتها وامتحاناتها، ولي في ادارتها ملف حافل بالشهادات والدبلومات، مثلا اديت اختبارا شفويا في الادب امام الناقد الذائع الصيت، ومؤرخ الادب الفرنسي الهائل، الاستاذ «اميل فاغيه» جلست بين يديه مرتعشا، خائفا، مرعوبا، ترتعد فرائصي، وتصطك اسناني، فالقى علي سؤالا في الموضوع، وقال لي عندك خمس دقائق للتفكير في الاجابة قبل ان تتكلم، فرحت امعن الفكر واجمع شتات المعلومات، واهيم في مناكب الادب والنقد، واعبىء اجمل ما عندي من افكار والفاظ ثم عدت فجأة الى عالم الواقع على صوت الاستاذ الكبير يقول أليس كذلك؟ ورحت انصت اليه، فاذا هو يجيب على السؤال الذي القاه على فالتزمت الصمت تأدبا، حتى يفرغ من كلامه، واستمر هو في الاجابة اكثر من نصف ساعة، نظر الي بعدها وضحك مقهقها وهو يقول: عظيم يا ولد! انك تعرف كل خفايا المشكلة! عظيم! مع السلامة! ورأيت بعدها انه اعطى نفسه ـ تحت اسمي انا طبعا ـ ثلاث عشرة درجة من عشرين: وتقدير جيد! ويريد رينيه بنجامان بهذا الوصف الكاريكاتوري ان يحذر من الناقد المحترف، الناقد المعلم، الناقد النظري، الذي تترك المهنة في تفكيره عيوبا جوهرية، من اهمها الشرود والخلط وفقدان التركيز كما ان منها الحذر الشديد الذي يفرض توقفا طويلا وتحليلا مضنيا، على حساب التذوق الصحيح. والحكم الشجاع، والعرض المستوفي لشروط ديكارت من الوضوح والدقة والرشاقة، ثم ان هذا الناقد المعلم كثيرا ما يخاف الى درجة الموت من اثارة عاصفة من الرفض لارائه او اتهامه، سياسيا او دينيا، بما يمس مصلحته في بقائه بمنصبه، ولذلك فهو يكتفي كثيرا بان «يتبنى» آراء الآخرين، يرويها عنهم او يرددها او يقلدها، فاذا ما افترع واحدة من بنات افكاره هو، فانه في هذه الحالة يتعرض للاصابة بالمبالغة، او اللجاجة، او التطرف في الحكم، وكلها في غير صالح الفكر او الفن .

■ والنقد وراء هذا كله يتحسن بالممارسة . ويتسع ويعمق بالتجربة، ويقوى ويشتد بالدراسة والقراءة والاطلاع، واذكر هنا صديقا من اكبر نقادنا في العالم العربي هو المرحوم الدكتور محمد مندور ذهبنا ذات ليلة معا الى مسرح سيد درويش بالاسكندرية، ضمن لجنة للتحكيم في اخراج جديد لمسرحية «عطيل» من روائع شكسبير، وبترجمة الشاعر الكبير خليل مطران، وكان ذهابنا بتكليف من وزارة الثقافة بالقاهرة، وكنت إذ ذاك شابا حديث العهد بهذه المهمات الشاقة، فارهفت سمعي وبصري، وعبأت كل اهتمامي وانتباهي من اول الرواية الى آخرها، ثم نظرت الى مندور، وانا في غاية الانبهار بكل وقائع الحفل، من تمثيل واخراج واضواء وملابس ومناظر وموسيقي، وقلت له الا ترى ذلك نجاحا باهرا، وعملا متقنا فريدا ممتازا؟ فقال ممتعضا لقد كاد ان يكون كذلك، ولكنهم افسدوه، قلت مستحيل! كيف افسدوه؟ قال: ان في الرواية ثلاث شخصيات اساسية هي البطل الاسمر

الشجاع «عطيل» وزوجته وحبيبة قلبه «ديدمونة» والنذل الخؤون المفسد لكل هذا الحب «ياغو» الاول يمثل الخير، والاخير يمثل الشر، وديدمونة هي اللعبة والرهان بينهما قد جعل المخرج من «ياغو» شخصية مرحة خفيفة الظل، ومن «عطيل» شخصية عنيفة متجهمة متخلفة، حتى ان الحاضرين كانوا يصفقون بحرارة كلما ظهر «ياغو» على المسرح، ويظلون جامدين غير مكترثين لآلام «عطيل» اي ان الشر تغلب على الخير، واكتسب اعجاب الناس ومحبتهم، وهذا عكس ما اراد شكسبير تماما، ومسؤولية هذا التشويه تقع بكاملها على المخرج، حقا فوق كل ذي علم عليم والفهم كما قلت هو دائما ثمرة الاستفهام، والفائدة لا تتيسر الا مع الرغبة في الاستفادة، وهذه تحتاج الى تواضع . . من المهد الى اللحد .

■ وبعد، فانني لاعجب، بعد هذا باكثر من ربع قرن من الزمان، من انحسار ظل النقد الصحيح في فكرنا العربي، ونحن جميعا نعلم انه الشرط الوحيد لتقدم الادب والفن، وتنقية السياسة والمجتمع، هل سمعتم بما يسمونه ـ خصوصا في دنيا الاشتراكية ـ «النقد الذاتي» او ما كان يسمى عند المسلمين «محاسبة النفس» انها الخطوة الاولى في النقد، ولكنها ليست الوحيدة، لان الطبيب عادة ما يعجز عن معالجة نفسه، ومن هنا كان في الاسلام قول مأثور متمم لمحاسبة النفس هو ان المؤمن مرآة اخيه، اي انه قد لا ينتبه الى ما تشعث من امره إلا اذا نبهه آخر. هذا الآخر ليس عدوا، ولا حاقدا، ولا حاسدا بل اخ، يقول له ما يحتاج الى اصلاح وكأنما هو نفسه يرى ذلك في مرآة فأين هذا من تلك الاقلام الشتامة الهدامة، التي لا تريد ان تشفى بل تحرص على ان تقتل؟ تضخم العيوب، وتخفي المحاسن، وتسوق ذلك كله خاليا من الشرح او التعليل او التحليل، كأنه ضربة من القضاء والقدر يبتلي بها الله من تحدثه نفسه ان يبدع شيئا في الادب او الفن، حتى كدنا ان نترك الكلام الى النقيق، وان ننسى اللسان والقاموس، في شتاء الفكر الذي تتجمد فيه الكلمات حتى لا يسمعها احد، كأننا من سكان تلك الجزيرة الخيالية التي يذكرها الامام القزوين في كتابه الفخم «عجائب المخلوقات» فيقول: انها باردة في الشتاء الى درجة ان الالفاظ تتحول فيها الى جليد في هذا الفصل، فلا يسمع احد ما يقوله صاحبه، والغريب ان الاديب الفرنسي في بعض رواياته يقول فيه ان السفينة التي كانت تقل اشخاص هذه الرواية قد غرقت، وقذفتهم الامواج الى جزيرة الكلام المتجمد، وكان السكون التام يخيم على جميع الارجاء ثم سمعوا فجأة همهمة وغمغمة وهينمة، ولم يروا احدا فاعتراهم ذعر شديد جدا الى ان شرح لهم ربان السفينة الغارقة ان الكلام يتجمد في شتاء هذه الجزيرة، ثم ما يكاد شعاع من الشمس يبزغ حتى «يسيح» كلام الشتاء، فتتجاوب به الارجاء وتسمعه الاذان، والتقط بطل الرواية حصاة من الثلج من فوق الارض، ونفخ فيها بانفاسه الدافئة فانتهت الى سمعه كلمة خفيفة لطيفة، ثم اعاد الكرة وانتقى جلمودا كبيرا، ولما نفخه جلجل منه سباب وقذف فاحش، فطفق يجمع من تلك الجلاميد في جعبته،

وكلما غضب على واحد من رفاقه رماه منها بابلدة ، دون ان يتحمل عناء اللفظ باللسان . فهل اقول ان النقد عندنا قد صار كله قاموسا من هذا الحصي المتجمد ، خفيفا وثقيلا ، يملأ الاوعية والزنابيل ، ويتقاذف به نقاد الشتاء تقريعا او تقريظا دون مشقة او عناء .

اللهم اخرجنا من جزيرة الجمود الى عالم الدفء والشمس آمين . .

الطبع يغلب «التطبيع»

● مات الاديب الفرنسي الكبير لويس اراغون منذ ايام قلائل عن عمر يتجاوز التسعين عاماً، وأنا لم اقل انه «كبير» لكبر سنه، بل لمنزلته الممتازة في الادب الفرنسي المعاصر، ولأنه شيخ طريقة وصاحب موقف. وقد لا أسلك في طريقته، وقد اخالفه في موقفه، ولكنني احترم استقلاله في الرأي، وصدقه في التعبير، واخلاصه، ونضاله، وعذابه، وغرامه.. احب في شبابه امرأة صاحبة فكر وقلم هي الاديبة «إلسا تريوليه» وكانت إلى جانب ادبها جميلة.. جميلة جداً. وكانت اصيلة في فنها، وليست نسخة من «اراغون» تحمل بدل الشوارب تاء تأنيث. ولأنها لم تكن نسخة منه فقد هام بها، وكتب فيها ديواناً كاملا من الشعر العجيب البديع سماه «عيون إلسا». كان يقرأ في عينيها ـ او في عيونها لكثرة ما يشع منها من ظلال واضواء مع تقلب القلوب ودوران الافلاك ـ آيات من خفايا النفس، وآلامها، وآمالها، واحاديث طويلة عن جوهر الانسانية، واحوالها، واهوالها. كان يغوص في بحرٍ من عينيها الزرقاوين، ولا يخرج من اعماقها الا بالدرر. وظل بعد زواجه بها متيماً، عاشقاً، إلى ان رحلت عنه إلى الدار الآخرة قبل موته هو بثلاثة عشر عاماً، لكن لماذا اذكر اراغون اليوم في الكشكول؟ ليس ذلك بمناسبة موته، ولكن بمناسبة الحديث عن ازمة النقد في الفكر العربي. فلهذا الرجل كتاب في النقد عجيب الشأن نشره منذ نحو اربعين عاماً، وسماه «دراسة في الاسلوب» لكن أي كتاب! بدأه اراغون بدون مقدمة ولا باب ولا فصل ولا عنوان، وظل يكتب ويكتب حتى الجملة الاخيرة، بعد أكثر من مائتين وخمسين صفحة، في نفس واحد، بدون توقف، حتى لوضع عنوان فرعي، او ابتداء فقرة اخرى. كان يريد ان يشرح للقارىء، بهذه الطريقة الهمجية، ان الفكر موقف وليس بالقعقعة اللفظية، ولا الجعجعة القلمية، وانه نبع منساب بين شقوق الصخر، وليس قارورة من اخلاط الكيماويين. ويترك لك انت ان تستنتج ان هذا الماء لا يأتي من لا شيء، بل من مخزون عميق عميق في باطن الارض التي تعيش عليها، وترتوي من ينابيعها، حملته في اغوارها البعيدة، تحت الطينِ والرمل والحجر، وتحت التاريخ، لينبجس لك أيها الظامىء للثقافة صافياً نميراً رقراقاً. وهذه هي الاصالة.

من هنا نفهم لماذا بدأ اراغون كتابه هذا بسطرين من أدب الاطفال للشاعر «لافونتين» يقول فيهما:

عينا الا نكره طبعنا على ما لا يريد.

إذ اننا لو فعلنا ذلك لما اتينا بشيء جميل.

ويضيف اراغون انه رأى هذين السطرين وهو صبي صغير، تحت رسم كاريكاتوري يمثل طفلا صغيراً يجلس لقضاء الحاجة على «قصرية» ويبدو من تقلصت وجهه ان طبيعته تعاني من الامساك، وانه سدى يحاول ان «يجود» على القصرية التي يقعد عليها «بشيء ما» ويتركك مرة اخرى تتصور المتكلفين من الادباء، وهم يكرهون طبيعتهم، متجهمين متقلصين متألمين، ليجودوا هم ايضاً على قرائهم «بشيء ما» لا علاقة له اطلاقاً بالكوثر السلسبيل.

وبعد ان يضرب بك الكاتب في مناكب الفكر والفن والثقافة حتى تسوخ وتدوخ، يتركك لتلمس بأصابعك ان الاصالة، والتلقائية، والعفوية من أهم شروط الادب الجديد بهذا الاسم. وامام هذا الاكتشاف الباهر الذي وصلت اليه بنفسك، ولم يمله عليك احد، تتخذ لك موقفاً بمحض اختيارك، تقف فيه راسخاً شامخاً.. لا دائخاً!

● ويقفز بك صاحبنا فجأة إلى فكرة جديدة، تحسبها لاول وهلة منفصلة عن موضوعه تماما، حين يقول لك: إن الادباء ينقسمون إلى فصيلتين: بشر.. وقردة فالبشر يبتكرون، ويصنعون، ويبدعون، واما القردة فتقلد البشر. ويزيدك ايضاحاً فيقول ان شكسبير الشاعر المسرحي الانجليزي الاكبر من البشر، اما فلان الفرنسي فهو فرد لانه يقلد شكسبير. وفي رحلة طويلة مع المؤلف تكتشف مرة اخرى بنفسك عالم الاصالة، بكل مجاهله وتضاريسه، وترى بجلاء كامل ان الاصالة لا تنفصل عن الانسانية، بينما هي تختفي من عالم القرود.

● مرت كل هذه الخواطر بفكري، وأنا اطالع نبأ افتتاح معرض الكتاب بالقاهرة، وصحت في داخل نفسي: وجدتها! فأنا اشكو من ازمة النقد وندرة النقاد. فماذا علينا لو صنعنا عددا من الاختام، ووزعناها اثنين اثنين على من يشغلون مقاعد النقاد، وطلبنا منهم ان يقوموا بجولة في المعرض، والختمان في يد كل منهم، يطبع احدهما قرداً عطاطاً نطاطاً، والآخر بشرا سويا؟ ترى كم من هذه الكتب ستحمل صور الناس، وكم تدمغها صورة النسناس؟ وهل سيتفق النقاد في طبع ما يطبعون بهذه الاختام، ام سيختلط الناس بالنسناس، بما يدخلنا في ازمة اخرى؟ ام سيأتي بعض اولئك النقاد فيطلبون اختاماً بصور اخرى كالثعابين والعقارب والغرانيق والحمير؟ ام سيطالب آخرون بصورة «القصرية» بعد قضاء الحاجة، وقد سهل الله فيها على المؤلف «بشيء ما»؟ وعادت بي هذه الصورة الاخيرة إلى وجه قرد له حكاية في معرض سابق للكتاب بالقاهرة، اسمه الياهو بن اليسار، سفير مناحم بيجن في مصر. (لم اعد ادري ايهما القرد!)، على اية حال فهما جميعاً من قردة السياسة، يحاولان تقليد نابليون وتاليران ولكن هيهات. في هذا المعرض السابق للكتاب كان هنك جناح حافل بمحتويات «القيصرية» الصهيونية المبتلاة بالاسهال. وجاء القرد بن اليسار يبغي بحضوره «تشريف» الجناح، بل المعرض بأسره تحت شعار «تطبيع» العلاقات الثقافية - أي والله العظيم! - بين حضارة الستة آلاف عام، وفقاعة عام ١٩٤٨م في تل ابيب.

● رأى المصريون هذا النسناس الدبلوماسي الكريه يدق بكعبه الصفيق تراب رمسيس وعمرو بن العاص والمعز لدين الله والناصر صلاح الدين، ويتقدم براية كبيرة تقبع على صفحتها النجمة السداسية التلمودية، يريد ان يرفعها على جناحه المذكور. وهنا غلب الطبع التطبيع، وغلا الدم في العروق المصرية فجأة، فانقضت على الراية وحاملها، إلى ان تكسر جناحه، وارتد خاسئاً وهو حسير، ليرسل احتجاجاً شديداً، وتهديداً ووعيداً، تنطلق بعده ألسنة القوم واقلامهم متسائلين في «براءة» مصطنعة عما بقي من «كامب ديفيد»، زاعمين انهم قد «منوا» على مصر باعادة سيناء، وانهم امناء، وشرفاء، وانصار سلام، واولاد ناس! وكأن «كامب ديفيد» عندما تخلى لهم عن التضامن العربي، قد تخلى لهم ايضاً عن العقل العربي. ونسوا ان التوقيع على هذه الورقة يحمل اسماً واحداً، لا اسماء المصريين جميعاً، وبخاصة الادباء والعلماء والمفكرين، وان «التطبيع» انما هو «شكل» من علاقات رسمية حكومية، لا علاقة له بجوهر الحضارة، ولا بمقومات «الطبع». ونسوا انه من الممكن في ظروف معينة الحصول على كل التكنولوجيا المادية العلمية: صواريخ وقنابل ذرية وعنقودية وفسفورية وانشطارية، وقذائف ارض ارض، وبحر ارض، وارض جو، وجو جو، ودبابات، وغواصات، وطائرات، ورادارات، وحتى مطابع واذاعات وكمبيوترات، ثم يبقي من حصل على ذلك كله، على موازين الحضارة والاصالة والانسانية، قرداً بشعاً متخلفاً او ثعباناً او حماراً. ثم من قال ان تطبيع العلاقات ـ حتى الثقافية ـ يعني ان تسيح الثقافات بعضها على بعض بلا رقيب او حسيب؟ وما عساه يكون شكل هذا المزيج غير المتجانس اذا ما هو اختلط في مستنقع واحد؟ لقد حدث تطبيع في العلاقات بين الدول الاوروبية جميعاً بعد قرون من الحروب الطاحنة والمنافسات المسعورة، ولكن بقيت آداب كل بلد على اصالتها واستقلالها، فلا فرنسا انجبت شكسبير او برنارد شو، ولا المانيا اخرجت نسخاً من لامارتين او جان بول سارتر، ولا فرنسا او انجلترا او المانيا ولدت دانونزيو او دانتي، ولا كل هذه البلاد قد ذابت بعضها في بعض، لسبب بسيط جداً هو ان الطبع يغلب التطبيع.

● فاذا ما انتقلنا إلى الشرق، وجدنا ان الاسلام قد آخى بين الناس، من تخوم الصين وقلب روسيا، إلى سواحل المحيط الاطلسي ومدار خط الاستواء، ومع ذلك بقي الفكر الفارسي مختلفاً عن الفكر العربي والتركي والباكستاني والاندونيسي والماليزي والصومالي والنيجيري. فكيف يجرؤ النسانيس في تل ابيب على تخيل «التطبيع» في الفكر العربي، وهم يعيثون فسادا في قلب بيروت، ويسرحون ويمرحون في ديار العرب بفلسطين، ويأمرون وينهون في الجولان، ودعاياتهم في كل مكان من العالم تشوه العرب، وتنال من مقدساتهم، وتراثهم وكرامتهم؟ الم يقل مناحم بيجن في الكنيست عندما سألته المعارضة عن موقفه السلبي في الفتنة بين الطوائف الدينية المختلفة في لبنان، بينما جيوشه قد اجتاحت هذا البلد واحتلته: ماذا تريدونني ان افعل؟ انهم كفار ـ جوييم، أي أمم غير يهودية ـ يقتل بعضهم بعضاً، فما عليّ منهم؟ طيب ياعم مناحم بيجن، اذا كان ذلك كذلك فبأي وجه تريد «تطبيع» العلاقات الفكرية مع هؤلاء الجوييم؟ بوجه النسناس فقط، والنسناس كما يقول اراغون لا

يبتكر، ولا يبتدع، ولا يصنع، وانما قصارى امره ان يقلد الناس وليته قلدهم فيما يسلي او يفيد!

● ويعلم الله، ويعلم من يعرفونني انني غير متعصب، ولا حاد المزاج عند المناقشة، لكن الأمر خطير، وامام الدماء، والمجازر، واساليب القمع الوحشية، والتآمر على الامة العربية تخريباً وتدميراً في مجتمعها واخلاقها واقتصادها وتماسكها، لابد ان يقف كل انسان حر مع البشر، وضد القردة اذا ارادت ان تحكم البشر، لأن ذلك ضد طبائع الاشياء، وضد نظام الكون، ومهما تقيأت المطابع في تل ابيب من فكر فإنني اتنبأ بمصيره منذ الآن: هباء! ولا اقول ذلك كما يصنع الساحر او الكاهن او العراف، بل قياساً على سنة التاريخ. فماذا بقي مما قذفته المطابع في المانيا النازية الهتلرية من ملايين المجلدات؟ لا شيء! من يقرأ الآن ما طنطنت به ايطاليا الفاشية؟ لا احد! ان اعصار التاريخ عندما يعصف بالطغاة لا يبقي لهم اثراً، الا ما يكون شاهداً على ظلمهم وجهلهم وتخلفهم. والحضارة ليست تكنولوجيا فقط كما قلت، بل هي قبل هذا، وبعد هذا ايضاً، الفكر النابع من الطبع لا من التطبيع.

● وعندما يفلس الفكر الصهيوني في مصر، على الرغم من كامب ديفيد، ومن الوجه المزخرف بالمستحضرات الامريكية الغالية الثمن الذي تبدو به اسرائيل، فإن الطبع يغلب التطبيع لديها ايضاً، ونحن نعرف قصة الشاعر العربي الذي وجد ذئباً حديث الولادة هلكت عنه امه، فعطف عليه وحمله إلى بيته، وارضعه من حليب شاته، الذي يطعم منه اولاده، ولما كبر الذئب واشتد غلبه طبعه النذل، فافترس الشاة، وفوجىء صاحبها الشاعر بهذه الكارثة، فراح يخاطب الذئب قائلا:

قتلت شويهتي، وفجعت طفلا
ونسواناً، وانت لهم ربيب

ويمضي في تعداد آلائه عليه، ثم يعجب من غلبة طبعه الوحشي سائلا: فمن ادراك ان اباك ذيب؟..

● ان الفكر العبري الحديث من ابراهام مابو في القرن الماضي إلى عاموس عوز في ايامنا هذه، ومروراً بحاييم نحمان بياليك، ويهودا غوردون، وشنيئور، وعجنون، وحاييم هزاز، ليس الا ترديداً وتقليداً لافكار ابتكرها اناس من البشر في اوروبا وامريكا منذ الرومانسية إلى اللامعقول، ثم جاء اولئك الصهاينة فاكتفوا بالمحاكاة، وموهوها بقناع الصهيونية، المبتسم غرباً، المكشر عن نابيه شرقاً، الذي يدري - وكيف لا؟ - ان اباه ذيب، فأبوه هو الاستعمار الامبراطوري، والغزو النازي، والتعصب الفاشي، والارهاب الهتلري، انجبه في الحرام، ورباه من الحرام. وليسكت الذين يمشون في زفة هذا اللقيط من أدباء كامب ديفيد قبل ان يحق عليهم القول.

● ان اختفاء الجناح الاسرائيلي من معرض الكتاب بالقاهرة لهذا العام - حتى مع وجود مروجين «غير معلنين» لهذا الانتاج.. يعتبر خطوة نحو اختيار اصح لما يلائم طبع القارىء العربي، ولا يحتاج لفهمه إلى تطبيع.

● من هنا كان افتتاح معرض الكتاب بالقاهرة هذا العام. بدون جناح صهيوني، خطوة تغلب فيها الطبع الاصيل على التطبيع الهزيل،. وكأن تصحيحاً للوضع

الثقافي في عاصمة من اعرق عواصم الفكر الحضاري في العالم، والفكر العربي على الخصوص، بحيث ينحدر ما قبله من محاولات التطبيع ليسقط في بيت ابي الطيب المتنبي، او ابياته التي يقول فيها:

وكم ذا بمصر من المضحكات ... ولكنه ضحك كالبكا
بها نبطي من أهل السواد ... يدرس انساب أهل الفلا
وأسود مشفره نصفه ... يقال له: أنت بدر الدجى

وبعد.. فإذا كان التطبيع يقتضي المشاركة، وأن يسهم كل فريق بما عنده، فأنى يمكن تصور ذلك من الصهيونية في عالم الثقافة والفكر والفن أين تراثها؟ أين ثروتها؟ ان المفلس لا يعطي شيئاً، وقد كان هؤلاء الناس إلى عهد قريب جداً لا يزالون يتشاحنون ويتجادلون في مواطنهم في حارات اليهود بمدن العالم، وفي مؤتمراتهم الصهيونية المبكرة، حول اللغة التي يمكن استخدامها للمكاتبات الرسمية، وللتعليم والثقافة والتأليف، عندما يقيمون دولة في فلسطين. وعندما استقر رأيهم على اللغة العبرية، التي كانت قد ماتت وطواها النسيان منذ ألفي عام على الأقل، راحوا يشجعون من أبنائهم كل من بأبأ أو تأتأ أو فأفأ بعبرية تلعنها توراة موسى وتضحك عليها الملائكة والشياطين. وكان احسن غنائهم ـ ومايزال ـ هو ما كتبه أدباؤهم في العصور الوسطى، في ظل حرية فكرية منحهم الاسلام اياها لأول مرة في تاريخهم كله، كما أنهم حتى الآن لا يجدون من مراجع النحو والبلاغة ومعاجم اللغة العبرية نفسها إلا ما تركه لهم آباؤهم تقليداً لسيبويه وابن جني والجوهري وابن رشيق، وتفصيل ذلك يطول فهم دائبون على التأليف في معالم الفكر اليهودي المتحرر في ذلك العصر الذهبي الذي استمدوا فيه من العرب كل مقومات وجودهم حتى الآن، ليأتي هؤلاء اللقطاء من ذريتهم وليجزوا العرب جزاء سنمار.

● انهم حتى يومنا هذا يرجعون إلى تفاسير سعديا الفيومي، وفقه موسى بن ميمون، ونحو مروان بن جناح، ومعجم داود الفاسي وشعر ابن جبيرول، ويهودا اللاوي، وموسى بن عزرا، وبلاغة يهودا الحريزي، وفتاوى ابن غياث وغيرهم، وهم جميعاً تلاميذ المدارس العربية والاسلامية في بغداد ودمشق وصفد وطبرية والقاهرة وفاس وقرطبة، وحتى تبريز واصفهان وشيراز، وعلى حساب اراغون يكون اصحابنا هم قردة الفكر الاسلامي، ﴿ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين﴾.

.. وماذا بعد فقد النقد؟

●النقد هو محكمة الفكر

ولنتصور الآن مجتمعاً بلا محكمة. ياللهول! سينقلب هذا المجتمع إلى وكر للصوص، وقطاع الطرق، والسفاحين، والدجالين، والمحتالين، والمهربين، ومروجي المخدرات. سيصبح هذا المجتمع مسرحاً للارهاب والاغتصاب، ومباءة للزنا والفجور. وسيأكل فيه القوي الضعيف، ويسود فيه الزيف والباطل والفساد، ليفقد آخر الأمر كل ما به من مقومات المجتمع، وليضيع ـ رغماً سنفحا كما يقول اللغويون، بتشديد النون ـ في متاهات الفوضى.

ومجتمع الفن والفكر ليس بمنجاة عن ذلك المصير الشنيع في غياب محكمة النقد. وكم سمعنا ـ ومازلنا نسمع ـ طنين الشهرة المغتصبة، والمجد المسروق، والثراء اللقيط، ، مقترنة باسماء سميناها وصنعناها وعبدناها، ما أنزل الله بها من سلطان: الكاتب العبقري، الشاعر الملهم، المطرب الساحر، المحلل السياسي الالمعي، الممثل الأعجوبة، مخرج المعجزات، إلى أن نصل إلى الراقصة الدافئة، والفنانة الملتهبةالمشتعلة، الساخنة جداً. كل هذا يتم في غياب محكمة النقد، وفي خنفشاريات الفوضى الاخصبوطية.

واذكر انني في مقالي السابق قد اشرت اشارة خاطفة إلى «النقد التلقائي» باعتبار ان الانسان حيوان ناقد. وقد لاحظ كثير من المهتمين بالفن والفكر ان هذا النقد التلقائي هو اهم طرق النقد في جذب اهتمام الجماهير فالحكم التلقائي تنطق به الافواه، وتتلقفه الآذان، لتعيده أفواه اخرى على ما جاورها من الآذان، إلى ان يسري كشحنة الكهرباء، ليصبح قضية مسلمة، بل صيحة تجمع القطيع بل شعارا يحرك الجميع. وانظر مثلا في عالم الازياء ـ سواء فيه الرجال أم النساء ـ لتكشف ان المصمم الفلاني، في البيت العلاني، لا يبارى ولا يجارى، وهو يا صديقي العزيز، ويا نور عيني الفاتنة الحلوة، ثوري.. خرافي.. عالمي.. صحيح انه يبيع بعشرة أضعاف ما يعرضه غيره، لكن ثق يا اخي، بكذا وكذا من الايمان التي اسمهجهالك، وتأكدي يا حبيبتي بحق منزلتك في سويداء قلبي، ان هذا أقل من القليل، ، في ابتكارات ليس لها مثيل، ثم ان غلاء أسعاره يسد الطريق إليه في وجه السوقة والعامة، فيبقى منه وقفاً على الاماثل، لا يصل

إليه الارازل . . و . . و . . إلى آخر مايخترعه الخيال ، من ضـروب الخيال ، والنتيجـة ان يذهب القطيع برمته إليه ويلبس فنه صنع يديه ، إلى ان يضيق صـدرك من رؤيته في كـل مكان . ولك ان تقيس على ذلك احكام «النقد التلقـائي» عن ديوان شعـر ، أو اغنية ، أو مسرحية ، أو بعضاً من الأثاث ، أو الفنون التشكيلية ، «النقد التلقائي» ليس بـالمحكمة ، بل هو أشبه بمظاهرة صاخبة للتأييد أو التفنيد ، ليس لحكمه مسوغات ، ولا حيثيات .

ولأنه «تلقائي» تكثر فيه الثـرثرة الفـارغة ، ثـرثرة المقـاهي والصالـونات ، حيث يكـثر الخـروج عن الموضـوع ، وتثار بعض نقـاطه ثم تتـرك معلقـة في الهـواء ، بـلا تمحيص أو استيفاء . هذا إلى انه نقد هش كثير الأمراض والاصابات ، كـالمجاملة ، وحب الـظهور ، والتسلق والتملق ، والجهل ، والتأثر بخلفيات عقائديـة معينة ، والخـوف من السلطات ، والمزايدة الزائفة بـالمثل العليـا كالـدين والأخلاق والـوطنية والقـومية دون تمحيص لمـدى موافقتها أو مخالفتها للعمـل الفني والاثر الفكـري والموضـوع الثقافي المعـروض ، لذلـك يتقهقر الفن والفكر في عصور الدكتـاتوريـة ، وفترات القهـر السياسي ، والهـزيمة القـومية هكـذا تقهقر الفن في ارهـاب الثـورة الشيـوعيـة في روسيـا ، وتـأخـر في طغيـان الثـورة الفرنسية ، وتدهور امام الاحذية العسكرية لنابليون وهتلر وغيرهما ، كالحـذاء العسكري الأمريكي في الرجل الصهيونية النتنة ، وآثار ذلك في طرق الفكر العربي .

●●●●●

●في هذه الجلسة لم يكن صاحبي حاضراً ، وانما كانت امامي ابنتي تصغي إليّ بعينـين حائرتين ، وتمط شفتيها احياناً ، وكـأن كلامي لايشبـع ما في نفسهـا من التمرد عـلى جيل الآباء . واضع بين قوسين انها زوجة وأم واستاذة آداب . قالت : هناك اشكال أخرى من النقد على كل حال .

وأجبتهـا : نعم ، هناك نقـد الصالـونات المثقفـة ، والمجتمعات المخمليـة . وضحكت هازئاً ! ! !

فقالت بشيء من الحدة : دعنا من هذا . هناك النقد الذي نقرأه منشوراً في الصحف .

وضحكت مـرة أخـرى قـائـلاً : كـل اصنـاف النقــد تنسـاب لتصب في الصحف . والصحـافة لاتـأبى هذا ، لانها مـرآة مجتمعها حيث كـان ، لكن ـ يارعـاك الله ـ يجب ان يكون للصحيفة ايضا ناقد على طرازها ونمطها ، يقول كلمته ، او كلمة جريدته إلى جانب ما يموج فيها من تيارات النقد الأخرى ، وامواجه المتلاطمة .

قالت : وماهي شروطك في النقد الصحفي؟

قلت لم نفرغ بعد من ناقد الصالونات والمجتمعات .

هذا الناقد مطالب بأمور «غير ثقافية» بدونها لايستطيع ان يمـارس هوايتـه ، واقول يـا بنيتي «هـوايته» لا «حـرفته» ولا «مهنتـه» ولا «صناعتـه» ، وانا اعني مـا أقول . يجب أولاً وقبل كل شيء ان يكـون هذا النـاقد متمتعـاً بمعدة فـولاذية تهضم كـل شيء : القهوة . . الشـاي . . العصير . التمـر . الحلوى . . اللحم . المرق . . السمـك . . الطيـور . . النشويات . . السكريات . . المخللات . . المعجنات . . وما يتخلل ذلك في غير مجتمعنـا من الكاسات والطاسات . ويجب ايضاً ان تكون خياشيمه منيعة لا تهزمها أدخنة التبـغ ، أو عبق البخور ، أو نزوات الطيب الحاد في بعض العطور . كما يجب عليه ان يكون دائـماً

باسماً ناعماً موافقاً منافقاً شاكرا ذاكراً هينا لينا رقيقا أنيقاً . . وصاحت البنت: كفى! استمر!

قلت لها: لماذا؟ اسمعي مثلًا مايقوله الناقد الفرنسي برونتيير:

ان الصالونات الادبية، وبخاصة التي برز فيها أدباء احبتهم النساء وشجعنهم، كانت تسودها دائماً مسحة من التصنع، والبعد عن القوة التي تميز الانبثاق الأول للعمل الفني، إلى سطحية مبعثها الرقة والحرص على رضا الحاضرين، باستثناء القليل النادر من الادباء.

وعارض هذا الرأي جمع من نقاد هذه المجتمعات فذكروا ان أهم ما يسعى إليه الاديب أو الفنان، سواء اعترف بذلك أم لم يعترف، الفوز بأكبر عدد من المعجبين. وفي عالم الموسيقى والغناء نرى الفنان ينتشي امام حماسة الجماهير. كالشارب الثمل، ويسعد بكثرة المعجبين، بل تتضاعف سعادته بزيادة المعجبات، حتى وان تسبب بعضهن في شقائه، واضطراب حياته، كما تسعد الفنانات بكثرة المعجبين من الرجال، بدون ان تكون لذلك صلة بمشاعرهن الغرامية مثلاً. فاذا ماسعى الاديب والفنان إلى كسب الاعجاب في الصالونات والندوات والمجتمعات الخاصة فهذا من حقهما، شريطة ألا يتم الوصول إليه بأي ثمن، وبأية تضحية، حتى التضحية بالفن نفسه في جوهره السامي العظيم، وإلا كان هذا نوعاً من التسول.

وسمعت ابنتي تقول: معقول!

وقلت لها: لا معقول. . ولايحزنون. فالفكر والفن والثقافة تمثل موقفاً في الحياة، هي اثبات حضور في المعركة . . لا في الصالون. . وناقد الصالونات متهم عندي بالهزيمة في معركة الفكر. انه اسير. مجرد من اسلحته ما عدا الدماثة والمداهنة، وهما وباء يتولى هو نقله إلى الفنان المبدع، حتى يصبح أليفاً مستأنساً منزوع السلاح ايضاً. ان المعجبين الحقيقيين الذين يحرص عليهم الفنان الأصيل هم أصحاب العلاقة في معركته. هم القاعدة الكبرى من الناس. . الراغبين في النور ليبصروا لا ليهرجوا . . الباحثين عن الحق ليصونوه لا ليشلوا برؤيته . . المستمدين الكلمة من رائد حكيم لا الطالبين للمسامرة مع نديم. فالأدب والفن والثقافة تبني الأمة، والناقد ـ الناقد الحق ـ يبني الأدب والفن والثقافة.

ضحكت ابنتي وقالت: طيب! . . قل لا ولاتغضب!

وأجبتها: لابأس، لولا ان الصالونات والمجتمعات المخملية تكون عادة مقصورة على الكبار الواصلين. . اما الشباب الناشيء فهيهات! والموهبة ليست خمراً يجب ان تعتق تحت تراب القبو وعناكبه، وانما هي في أغلب الأحيان عصير غض، ورحيق طازج قد يفسده التخزين. والعادة المتبعة في صالونات الأدب في العالم ـ حتى عندما تتحرر من قيود السن والطبقة الاجتماعية ـ ألا تسمح للناشئة بالوجود في هيكلها إلا بقيود حديدية، كأن يكون هذا الشباب قليل العدد بالنسبة للمجموع، وان يلزم ركناً غير بارز في المجلس، مع مراعاة الأدب، واللياقة، والتواضع، والسماع دون مناقشة، وفي الغرب حيث يختلط الرجال بالنساء في تلك المجتمعات ـ وفي الشرق الدائر في فلك الغرب ايضاً ـ تستثنى من هذه القواعد البارعات الجمال من الشابات، والمثل الأوروبي يقول: لايتقدم على السن إلا الجمال وهو من أمثال الصالونات ايضاً.

●فاذا كان ذلك كذلك يا أم سهيل - ابنتي - فما هي فرص الناشئين من الشباب؟ فأديب الصالونات لايكاد يراهم، وان قام بينه وبينهم حوار رفضه، أو قبله على مضض، وناقد المجتمع المخملي لايحبهم، فهم عادة فقراء، مفاليك، مفاليس، وهو مشغول بالطبل والزمر لغيرهم ممن يرى انهم اولى بالكتابة عنهم، لانه بذلك يرتفع على اكتافهم. والصحف تتهافت على اخبار هذا الصف الأول الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وتتردد كثيراً في البحث عن المجهولين والجدد والناشئين. انه لأمر خطير! وانت تعرفين أن الآداب الأوروبية تحفل بشباب وصلوا إلى الشهرة لأنهم رضوا بأن يبيعوا عذريتهم وبراءتهم لبعض أطلال البشر الذين صاروا عظماء. شوبان الموسيقي البولندي عاش فريسة لأديبه غانية فرنسية هي جورج ساند، وسيمون دي بوفوار ربطت عربتها إلى عنق الأديب الوجودي جان بول سارتر إلى ان عرفها الناس. وهاهي ذي بعد موته تنشر من المقالات مايشعرنا بأن رائحة صاحبها حياً كانت أبشع من رائحته وهو جيفة تحت التراب، وقديماً قال الشاعر العربي:

فلا تحسبا هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس.. كل غانية هند

ولا أريد ان اشير عليك بمتابعة ماحدث لكل واحدة من كواكب الفن إلى ان تألقت في سماء نجوميتها، في جميع انحاء العالم، ففي ذلك الكثير مما يندى له جبين امثالنا من البسطاء. ولولا ذلك لما وجد اكثرهن أية فرصة للظهور امام الجمهور. ان في الأدب والفن والثقافة ألواناً من الرق والنخاسة لاتصل إليها القوانين، والاختيار المر المعروض فيها على الناشيء الموهوب هو الصدر أو القبر، ولكل منهما متطلباته.

وسألتني: اذا كان النقد التلقائي لايعجبك، واذا كان نقاد الصالونات يثيرونك برقتهم ودماثتهم، واذا كان النقد هو محكمة الفكر، وفقد النقد هو سيادة شريعة الغاب في الثقافة والمجتمع، فما هو الحل يادكتور؟ وعندما توجه ابنتي حديثها إليّ قائلة: «يادكتور» أعلم ان داهية ثقيلة من الجدل تنتظرني، وأبدأ فوراً في وزن الكلمات.

قلت: ان النقد التلقائي ونقد الصالونات يظل شفوياً إلى ان يكتبه انسان ما. فنحن لانطلع عليه إلا وهو مكتوب، إلا مانسمعه منه، وهو أقل من القليل. وللقلم جلالة ومهابة، ونفخة كذابة، تزيد من رداءة هذا النقد عندما يصوغه أحد الكرام الكاتبين ليتحف به القراء. هنا تذهب عفويته، وتضيع دماثته ورقته، ويحمل على محياه سمات الكد والارهاق، وهو بعد ذلك كله قد يتصيد اقلاماً بريئة أو خبيثة لنقضه أو مناقشته أو الرد عليه مما ينقل ممنوعات الصالون إلى المطبعة على شكل حذلقة وفيهقة، ومهاترة ومشاجرة، وهياط ومياط، الخاسر فيها هو الأدب - أدب الفكر وأدب النفي ايضاً - .

وقالت: **فهؤلاء النقاد لايصلحون قضاة في محكمة الفكر!!**

قلت: كلا الف مرة! وحتى لايبدو لك الموقف داعياً لليأس أقول لك انهم على اكثر تقدير يصلحون محلفين في المحاكم التي تأخذ بهذا النظام في القضاء، وهو كما تعلمين يقوم على دعوة عدد من ابناء المجتمع المشهود لهم بالاستقامة لمتابعة المحاكمة التي يتربع لها عدد من القضاة الكبار في مجلس العدالة. فيسمعون خطبة الادعاء والاتهام، وأقوال

شهود النفي والاثبات، ومرافعات محامي الدفاع، ثم يجيبون في آخر الأمر على سؤال أو اسئلة خلاصتها: هل المتهم الماثل امامهم بريء أم مذنب؟

ومنهم يأتي الحكم التلقائي للرأي العام العادي البسيط - اما القضاة فهم الذين يقدرون العقوبة، وهم الذين يصوغون حكم العدالة بحيثياته وأسبابه.

قالت ابنتي: فليكن أولئك النقاد محلفين، وعليك ان تبحث عن قضاة.

وبادرتها قائلا: ما أظن انهم يصلحون جميعاً محلفين، بل فيهم الصالح والطالح. ذلك يابنيتي لان المحلفين في المحكمة يختارون بالقرعة السرية، ولايتكرر استدعاؤهم لغير قضية واحدة، ولايرون المتهم ولايعرفونه إلا في ساحة العدالة. اما الناقد الذي يجلس في محل مختار معروف، ويكتب في زاوية معينة في جريدة أو مجلة، ويرتاد المجتمعات والندوات والصالونات على الدوام، ويعرف كل الأدباء والصحفيين والفنانين والناشرين، فكيف يكون من المحلفين؟ اخشى والله ان يجامل، أو يحابي، أو يرتشي. وقد جربهم الكثيرون في غير مناسبة من النشاط الثقافي، فكانوا ولله الحمد على مستوى مخاوفي منهم، إلا من عصم ربي. وأعود لاذكر بأن النقد موقف وليس سطوراً تسود صحيفة، كما ان الفكر موقف وليس احلام يقظة تتحول إلى تهويمات على شكل كلمات. هما كما قلت معركة تحتاج إلى بطولة ونزاهة، وتجرد وايمان، وإلا .. وإلا فلنسمع هذه الصيحة من الأديب الفرنسي الكبير المعاصر جورج برنانوس ويل للجبناء في اعماق قلوبهم! أولئك الذين لايتبينون المأساة الكامنة في زمننا هذا، لايسبب هذه الآلاف المؤلفة من القتلى، بل لأن جثثهم ترسم حدود حقبة من تاريخ العالم. ان الذين لا يتبينون ذلك حمير!

قالت: والقاضي الذي نبحث عنه؟

أجبتها: لعله أنت! هاك ابياتاً من الشعر تتعلمين فيها هذا النهج من القضاء:

قد سما فوق هدير الحياة
وضجيج الأمل
شامخاً في كبره .. في علاه
شامخاً في كبره .. في علاه
راسخاً كالجبل
كصخرة من جليد
بل كتلة من حديد
هذا الفؤاد العنيد
لايذوب
كيف لم يبغ ذراك جناح
من طيور الغرام
كيف لم تحمل إليك الرياح
لطف الغمام
لو ذقت طعم الخشوع
في ليلة من دموع
عرفت معنى الرجوع للحبيب

وسألتني ابنتي: لمن هذا؟
قلت: لي أنا . . حتى نغسل ثيابنا الوسخة في ستر العائلة .
قالت: لا . . أنا انسحب .
قلت: بل تشجعي يابنيتي . . وتعلمي الحلاقة في رؤوس اليتامى .
قالت: سأحاول . . وذنبك على جنبك .

النقاد .. وعجائز الفرح

● يضرب المثل بعجائز الفرح، في بلاد كثيرة من عالمنا العربي، في الأخذ بنصيب الأسد من كل شيء دون ان يسلم من نقدهن شيء . . فهن يأكلن من مائدة العرس أكل المنايا في الحرب الضروس ويعلقن مع ذلك باشمئزاز واضح على هذا اللون من الطعام ويتأففن من الجمع بينه وبين ذاك ويقدحن من مهارة الطباخ ونوع اللحم وذوق صانع الحلوى، وجودة القهوة وزينة المكان، وكرم اصحاب الدعوة . . فإذا رفع السماط فرغن للسخرية من المغنية، والعيب على بطانتها، أو اخذن في الغمز واللمز على شكل العروس، وكيف ان فمها يمتد من الاذن اليمنى الى اليسرى تحت خشم يسد الافق، وعينين تختفيان في علم الغيب، تحت شعر اشعث، وفوق خدين داكنين صفيقين، ولكن الدنيا حظوظ . . أي والله يا اختي . . . الخ .

والذين يضربون المثل بعجائز الفرح، يريدون ابراز ما في ثرثرتهن من التجني ومجافاة الحق . . ربما لأن في ربعهن عرائس لم يصادفن بعد راغبا أو خاطبا، وربما لأن ذكريات شبابهن وعرسهن تبدو ـ من وراء الماضي السحيق ـ في صورة مثالية تخلب الانظار وتكسف الاقمار، وربما للادلال بما يمتزن به ـ في اعتقادهن ـ من دقة الملاحظة ومعرفة الاصول . . بل ربما كان حديثهن لمجرد الحديث، ومن اجل قتل الوقت ولو قتلن معه العريس والعروس بسهام الكلام، وسنان اللسان .

● ● ● ●

● كنت أكتب هذه السطور عندما طرق بابي صديق على غير موعد . . ولكي يقول شيئا ـ بعد التحية والسلام ـ فتح معي هذا الحوار:

ـ هل قطعت عليك افكارك؟

ـ لا عليك! فأفكاري لم تتصل بعد حتى أقول أنها انقطعت .

ـ هل أفهم من ذلك ان قلمك الذي سود وجه هذه الورقة انما كان يضرب في مناكبها بلا افكار؟ كالقافلة التي تعتسف مفازة دون أن تحمل شيئا؟

فاجبته بشيء يشبه الهروب من سؤاله، قلت له: اسمع! وقرأت له العنوان .

فقاطعني صائحا:
- وكيف تبدأ بالعنوان وليست عندك أفكار؟! ثم ما علاقة النقد، وهو في قمة الفكر والفن والأدب والثقافة، بعجائز الفرح، وما الصلة التي تربط الحيزبون منهن بهذه الاجواء العلمية، الاكاديمية، العالمية، المصيرية للنقد؟ أم أنك تبغي بعنوانك هذا استنزال صواعق النقاد على رأسك؟

فأسرعت قائلا: واين هم النقاد؟ عجائز الفرح.. نعم! وأما النقاد.. فكل سنة وأنت طيب.!.. ثم استرسلت في الحديث: اجلس لقد بدأت الأفكار تطل من بعيد بابتسامتها الساخرة... الساخرة مني أنا أولا.. لكننا سنتصالح.. ونتفاهم.. ونتواصل.. اخيرا.. سوف نتكلم بدون حذلقة، حتى نكون واضحين، وسوف لا نتخذ سمة العلماء ولا الأدباء، ولا النقاد - خصوصا هؤلاء - حتى يفهمنا الناس ولا يخافوا منا.

ان النقد يبدأ من تذوق شيء ما - أي شيء - ثم الاعلان بصراحة عن مدى حبنا لذلك الشيء أو عزوفنا عنه. فكما ان الانسان حيوان ناطق، وحيوان ضاحك فهو ايضا حيوان ناقد. ولكن بهذا الشرط: انه يعبر عن ذوقه، استحسانا أو استجهانا، دون أن يكون مطالبا بتعليل ذلك. وما يلبث هذا الحكم الفطري على الاشياء ان ينخرط في نظام فكري، أو في عدة نظم، وان تنشأ فيه المناهج والنظريات وأفانين التمحيص والتطبيق فالفيلسوف اليوناني ارسطو يكتب عن الشعر، كما يكتب عن الخطابة، ونقفز عبر الف سنة أو تزيد لنجد الفكر العربي الاسلامي قد عرف الاصمعي، والجاحظ، وقدامة بن جعفر، والامدي صاحب كتاب الموازنة بين الشاعرين الطائيين أبي تمام والبحتري وعبدالعزيز الجرجاني صاحب الوساطة بين المتنبي وخصومه، ومن لا يحصيهم عد من نقادنا القدماء.

ثم تبدأ حركة نقدية عالمية في العصر الحديث، وفي أوروبا وأمريكا أولا، لماذا؟ لأن الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية كانت قد تغيرت هناك. اذ وصل الاستعمار إلى ذروته، وتحددت القوميات على أسس اللغة والدين والتاريخ، وظهرت في الاقتصاد نظريات جديدة مع الدخول في عصر الصناعة والطاقة، والصراع على مصادر المواد الأولية، وأسواق تصريف المنتجات، والحروب الطاحنة بسبب هذا كله، وما كان من نزاع مرير بين الطبقة العاملة ورأس المال، وما خلفته الحروب من ندوب وجراحات في جسد المجتمع.. ظهرت الاشتراكية بشتى الوانها وفلسفاتها من (بنتام) و(سان سيمون) إلى (كارل ماركس) و(ماتوسي تونغ). كما ظهرت الرأسمالية الاوروبية أولا والامريكية اخيرا، ولم يسلم هذا التفاعل العنيف من فقاقيع افرزتها العفونات المصاحبة له كان من أخطرها العنصرية العرقية ممثلة في الفاشية، والنازية، واضطهاد البيض الملونين في أمريكا وافريقيا واستراليا. ودخل التعصب الديني في العملية تزمتا أو الحادا في ايران، وروسيا، والفلبين، والهند، وجنوب شرق آسيا، واجتمعت المكونات العفنة لهذه الفقاقيع في فقاعة مركزة، صغيرة وخطيرة، هي الصهيونية، إلى الكثير الكثير مما يؤرق البشر في مظاهر القلق

والازعاج. وراح كل ذلك في النهاية يصب في المنظمة الدولية للامم التي تدعي انها متحدة، حتى اغرقها وخنقها...

● ومع النظم الجديدة ظهرت اذواق جديدة في الفن والأدب والمسرح والسينما، وكان النقد (يقول الناقد الفرنسي «البيرتيبوديه» في كتاب له عنوانه «تشريح النقد»: ان النقد الذي نمارسه أو نعرفه اليوم، هو أثر من آثار القرن التاسع عشر.. فقبل هذا القرن كان هناك نقاد، ولكن لم يكن ولد بعد.

وقال صاحبي: كيف يستقيم هذا الكلام الذي فحواه ان النقاد كانوا موجودين من غير نقد؟ واذا اضفنا كلامك إلى كلامه خرجنا من ذلك بأن النقد موجود الآن من غير نقاد!.

قلت له لا تتعجل الامور، ولنأخذ مثلا قريبا سهلا. ان بعض الخبثاء من تلاميذ المدارس مولعون بتقليد اساتذتهم للاضحاك. هذا التقليد هو نقد، هو ملاحظة دقيقة لصوت الاستاذ وحركاته ونبرته في الكلام، ومخارج حروفه، وتصرفه في الرضا والغضب، وفيه من التشريح والتحليل، والحكم على ذلك ايضا، ما تعجز عنه المقالات الفلسفية الطويلة المستفيضة. انه نقد.

وإذا كنت تستخف بهذا المثل المتواضع، فاسمع حكاية تماثله، رواها الناقد الفرنسي الذي ذكرته لك.

كان أحد الممثلين الهزليين قد قلد ناقدا كبيرا من اعضاء اكاديمية، التي هي اعلى مجمع علمي يتسم بالعراقة والهيبة والعظمة، ويبدو ان الناقد الاكاديمي اراد ان ينتقم من الممثل، فنشر مقالا في نقد فنه المسرحي نال فيه من شخصه وجرحه واهانه.. ولجأ الممثل إلى القضاء. وقام محاميه يشرح الدعوى، وفي نشوة خطابية امام المحكمة صاح متسائلا: من هو الناقد؟ هو رجل معه حبر وورق، يكتب ما يمليه عليه هواه! ورد احد النقاد الحاضرين للمحاكمة في صف شيخهم الاكاديمي قائلا: والمحامي ايضا.. هو رجل معه حبر وورق، يكتب ما يعجبه، لكنه مطمئن إلى حمايته عن طريق التضامن بين اعضاء نقابة المحامين بينما لا توجد للنقاد نقابة تحميهم! ولم تمض على تلك القضية إلا فترة قصيرة حتى تكونت بعدها نقابات للنقاد في فرنسا: نقاد الادب، ونقاد الفن التشكيلي، ونقاد الموسيقى، والمسرح، والسينما... الخ.

ومع ذلك فإن نقابة المحامين بقيت أكثر تماسكا وتضامنا، لأنها منبثقة عن القوانين التي تحدد مهمة القضاء، ولأن وزارة العدل من فوقها تمنع أي انحراف تتحول به النقابة إلى عصابة.. أما النقاد فكيف يتضامنون وفيهم ـ من حيث القيام بمهنتهم ـ اليميني واليساري، والمحافظ، والثائر، والرومانسي، والوجودي، والواقعي، والسريالي، والذي لهؤلاء جميعا، والذي لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء؟ ثم ان المحامي يمارس مهنته تحت رقابة قانونية من القاضي، لأنه يمارسها في قاعة المحكمة فقط، بينما الناقد يكتب في الصحف، ويتحدث في الاذاعة والتلفزيون ويخطب في المحاضرات والندوات، وشعاره في ذلك كله حرية الرأي وحرية التعبير عن هذا الرأي. ومهما

كان من أمر جهات الرقابة الفكرية والثقافية، فإنها أقل دقة من رقابة القاضي والقانون.

وهناك أمر آخر في منتهى الخطورة، وهو ان كل انسان يعرف القراءة والكتابة ويحسن تنميق العبارة على نحو ما، يستطيع ان يدعي انه ناقد، بينما المحامي لا يستطيع الوقوف امام القاضي للمرافعة إلا بمؤهل علمي يثبت انه مثل القاضي في تخصصه، بل كثيرا ما يفوقه علما. من هنا تتسرب الفوضى إلى دنيا النقد. ويزيد من سهولة ذلك ان المحامي يمارس مهنته موكلا عن شخص معين، في قضية محددة، أمام محكمة رسمية، وبقانون معروف، فإذا تكررت خسارته للقضايا التي يدافع عنها فقد عملاءه، واندحر في بطالة العاجزين. أما الناقد فإنه لا يطلب حكما نافذا، وليس وكيلا عن شخص معين، والصحافة فيها وفيها، كما ان القراء ليسوا جميعا في اناة القضاة ورسوخهم ودقتهم، وهكذا يصبح النقد امانة قومية، وموقفا فكريا، ومعركة ضمير، وأنى لنا بهذا كله في ثنايا الفوضى ومتاهاتها. ومرة أخرى كل سنة وانت طيب!.

الناقد أمين سر الجمهور.

● وقال صديقي وهو ينظر في ساعته اننا حتى الآن لم نتجاوز المرحلة الفطرية للنقد، ولم نعرف بعد مراحل المسيرة التالية، التي وصلت بنا إلى النقاد المحترفين المعروفين، من الاساتذة الجهابذة، الذين يملأون سمع الدنيا وبصرها على الرغم مما تزعمه انت من أنهم غير موجودين.

قلت: ان هذا النقد الفطري العضوي لايعني الضحالة، ولا الجهل، وانما هو رادار تلقائي متى تحركت مؤشراته، انطلقت الالسنة ببيانها، وتناقلها الجمهور فيما يعن له من شجون الحديث. وقد لخص هذا شيخ النقاد الفرنسيين في القرن الماضي (سانت بيف) بجملة واحدة في كتابه الضخم جدا في النقد (احاديث يوم الاثنين) الكتاب الذي اوحى لشيخ نقادنا العرب المعاصرين (طه حسين) بكتابه الشهير (حديث الاربعاء). يقول (سانت بيف) ان النقد الحقيقي في باريس يتم اثناء الحوار الشفوي العادي.

وليس هذا النقد الباريسي من ابتكارات مدينة النور، بل هو نهج قديم جدا اتبعه مفكرون كبار منذ أقدم العصور، منهم افلاطون في كتابه الذي يسمى بكل بساطة (المحاورات)، وإديب اليونانية السوري الساخر (لوقيانوس السمسياطي) الذي نقد مفكري اليونان في حوار مسرحي رائع عنوانه (فلاسفة للبيع). وقد خطط لفكرته بذكاء ودهاء، فصور لنا سوقا من أسواق الرقيق في عصره، احضر فيه النخاسون بضاعتهم من العبيد، وجعلهم جميعا من كبار مفكري اليونان مثل سقراط وافلاطون وارسطو وجالينوس، وارشميدس، وديوجين... الخ. ويجري الحوار في غاية من الدقة والجدية في الهزل بين النخاس والزبون. بائع العبيد يعرض الواحد منهم فلايذكر الا محاسنه ومزاياه حتى يأخذ فيه ثمنا غاليا، والمشتري يمعن في التهوين من

شأن هذا العبد، هازئا بمظهره وسحنته، أو بشراسته وسوء خلقه، أو بثرثرته وغموض كلامه. ونقرأ خلال هذا النقاش ما لا ينقضي منه العجب من نقد عميق للفكر اليوناني كله وما يكمن في ثناياه من غش في البضاعة، وتمويه وتزييف للمغالاة في اسعار هذه الشرذمة من عبيد السوء! فهذا ايضا نقد مباشر، وشفوي، يجري به الحوار البديع، الذي دبجه لوقيانوس عن عمد وتدبير وتخطيط.

وكتابات الاديب الفرنسي القديم الذي عاش منذ اربعمائة عام (مونتاني) تعتبر هي ايضا من ضروب النقد الشفوي، على الرغم من انه كتبها بقلمه وسماها (المقالات). فهو فيها رجل يحاور نفسه حول اهم القضايا الادبية والفكرية والسياسية والاجتماعية في عصره، وحول نفسه اولا وقبل كل شيء.

وهناك أديب فرنسي قديم ايضا، يشبه الجاحظ عندنا، هو (رابليه) وقد اختار لحواره النقدي اللاذع طريق القصة والرواية، يسوق خلالها نماذجه البشرية فيضحك ويضحكنا معه من الفلاسفة والكتاب والاطباء والقساوسة والرهبان والنساء، والتجار واللصوص والشحاذين، وهم يتحدثون ويتحاورون، ويرضون ويغضبون، ويقعون في الغرام ويتزوجون، ويتعبدون ويسكرون. ونشعر ونحن نقرأ لهذا الرجل الفذ ان وراء سخريته علما مترامي الاطراف، وعى الفكر الهندي واليوناني واللاتيني والعربي، واحاط بعلوم الاوائل وفلسفاتهم، كما هو شأن الجاحظ عندنا، حتى لنشعر بأنه قد يكون من السهل ان يكون الانسان اديبا، بالموهبة ورهافة الحس، وبعض الزاد الثقافي، أما أن يكون ناقدا فهذا امر يحتاج إلى عدة وعتاد، وإلى غوص في تراث الانسانية من العلم والفن والفكر، وإلى تجربة مريرة مع الزمن والناس، وإلى فطرة تسأل عن الخفايا وتطلب دائما الاحسن والاجود. فإذا ما تكلم هذا الناقد فكأنما ينطق بلسان أمة كاملة أو حتى نيابة عن البشر جميعا. والناقد الفرنسي (سانت بيف) الذي أشرنا إليه يقول في ذلك: ان الناقد ليس إلا أمين سر (السكرتير) للجمهور ولكنه لا ينتظر حتى يملي عليه هذا الجمهور ما ينبغي أن يقال، بل هو يتنبأ به، ثم يهذب وينقح ويرتب ويصوغ كل يوم الفكر الكامن لدى الناس جميعا. ويعلق ناقد فرنسي آخر يعتبر المعارض الأكبر لمدرسة (سانت بيف) هو (جول ليمتر) على عبارة (كل يوم) الواردة في رأي خصمه قائلا: ربما لم يكن هناك ناقد جدير بهذا الاسم إلا ذلك الذي يتناول آثارا فكرية بعيدة عنا بعدا كافيا، بحيث نكون شخصيا منفصلين عنها، ويجب مع ذلك ان تغطي هذه الآثار الفكرية مساحة واسعة من التجربة الانسانية، تمكننا من ان ندرك فيها الصلات الدقيقة الحميمة القائمة بين شتى الاعمال الخاصة التي تشغل هذه المساحة الفكرية الواسعة. أما النقد من يوم ليوم فإنه غالبا من الحديث غير ذي الاهمية.

ولكن (سانت بيف) يهب محذرا من هذا الرأي فيقول: إننا نرفض القول بأن واجب النقد ووظيفته هما السير خلف الكبار المبدعين، وتتبع آثارهم المضيئة جمعا وترتيبا، والطنطنة لها بكل ما يعلي قيمتها، ويزيد من تألق بهائها. ان هناك وظيفة

أخرى أكثر وعيا وأعمق انغماسا في صخب العصر، ومشاكله الحية وأقوى واخف حركة، وهي التي تتولى اعطاء اشارات التوعية إلى روح العصر، فتعلن اسماء ابطاله وشعرائه، وتعطيهم الاولوية في عنايتها، وتحيطهم بالمحبة والمشورة، وتسبغ عليهم ما يستحقونه من صفات المجد والعبقرية ولو كره الآخرون، وتفضح من يزاحمهم من التفاهات وتفسح امامهم الطريق كالرائد أو الحادي.

قرأ الشاعر الالماني الرومانسي (هاينريش هاينه) هذا الرأي فضحك. وشبه نقاد سانت بيف بحرس رؤساء القبائل الافريقية البدائية، عندما يهرولون صاخبين صائحين، دافعين الناس عن اليمين وعن الشمال بغلظة وعجرفة، ليفسحوا الطريق أمام سيدهم رئيس القبيلة، وموكبه الذي لا تدري الدنيا خارج الادغال عنه شيئا!.

ولم يكن هاينريش هاينه الوحيد الذي هزأ برأي سانت بيف. فقد اثار عند نشره سخطا عاما، حتى من جانب النقاد انفسهم. فقد احسوا بأن دورهم يتلخص في أن يهملجوا حفاة امام عربة العبقري المزعوم. والعبقرية قد تشترى والاهمية قد تنال بالحيلة، مما ينذر بأن تكون كراسي الصدارة في الادب والفن والفكر اشبه بكثير من كراسي الزعامة في البرلمانات والحكومات، يلعب فيها المال، والعصبيات، ويشغلها المضللون، بالنفاق والرشوة والضحك على الذوق. وهي نبوءة تحققت محاذيرها بكل أسف في العالم، وفي الوطن العربي على الخصوص، فوصل إلى آفاق النجوم في الأدب والفن والمسرح والسينما والغناء، صنائع لنقاد مستأجرين أو مخدوعين. نعم! غضب كثير من النقاد من سانت بيف ولان رأيه لن ينتهي إلا بتجريدهم من صفتهم القيادية، وجعلهم هتافين ومصفقين وحملة مباخر وحراسا غلاظا بين يدي قلة مختارة ليس هناك ما يمنع من آن يتسلل بينها بعض الاصنام، أو أن يحجب عن حرمها الكثير من جهابذة الاقلام. وقد يفضي الامر بالنقاد إلى ما خشيناه انفا من ان يجدوا أنفسهم وقد أصبحوا عصابة لانقابة، أو من ألا يجدوا أنفسهم البتة.

وقهقه صاحبي صائحا: وكل سنة وانت طيب.

العبث بلحية التاريخ

ابقاء الماضي حيا في المستقبل ذلك هو المبرر لكتابة التاريخ فالانسان مجبول على النسيان، مما جعل تغذية الذاكرة عنده من ضرورات التقدم والتطور ثم ان هذا الانسان كائن اجتماعي بغريزته، لابد له من شعور بالانتماء حتى تزدهر مواهبه وتترعرع وانتماؤه الى اهله ـ الاحياء والاموات ـ من اقدم ما عبر عنه من احاسيسه، خطأ او صوابا لذلك نجد الكثير من المجتمعات البدائية قد عبدت اسلافها الغابرين، وبقيت من ذلك بقايا في معتقدات امم متحضرة جدا فالديانة اليابانية مثلا تقوم الآن على ركيزتين اساسيتين، هما الايمان بالله حسب تعاليم بوذا. . وعبادة الاسلاف وكانت هناك ركيزة ثالثة هي عبادة الامبراطور الى ان اصدر عاهلهم الحالي هيروهيتو مرسوما بالغائها مشيرا الى انها كانت في الاصل السمة الوطنية القومية للعقيدة، منذ الف عام تقريبا، عندما كان هذا الشعب العظيم واقعا باكمله تحت سلطان اباطرة الصين فاجتمع شيوخه في مدينة «نارا» بالقرب من كيوتو، واقسموا ان يحرروا وطنهم، وان يولوا عليهم ملكا منهم، وصفوه بانه سليل النور، وابن الالهة ولما تم لهم ماكانوا يحلمون به وبايعوا على العرش الجد الاعلى لملوكهم بطل الابطال، قاهر الحكم الاجنبي رسموا له طقوسا من التقديس هي التي ابطلها هيروهيتو والعجيب انني في زيارة الى هذه الامة العظيمة، سمعت من بعض التراثيين المحافظين المتزمتين من مثقفيهم شيئا من عدم الرضا بما فعله الامبراطور، معللين ذلك بان المساس بالمقدسات عمل خطير قد يزلزل البناء الاجتماعي كله، وقد ينال من الشخصية الوطنية للبلاد.

اما عبادة السلف فانها ماتزال راسخة في قلوبهم فالى جانب المعابد البوذية الهائلة، الحافلة بالاسرار والزخارف والاوثان، وهم يسمونها «اورتيرا» تقوم الصوامع والزوايا الرقيقة الانيقة. وسط الحدائق اليابانية الخلابة بجداولها الرقراقة. وقناطرها الصغيرة المرحة. وخضرتها الوارفة. وازهارها الكثيرة الاشكال والالوان، وما في مياهها من السمك الذي يتجاوب بالوانه الزاهية مع زهورها ونباتها وهي ربوع ساكنة آمنة، على

ابوابها اوعية تمددت فيها الشموع . مبذولة لمن يريد ان يكرم واحدا من الموتى من عشيرته فيأتي الى باب ذلك المصلى ويسمونه باليابانية «جنجا» ويأخذ شمعة تاركا ثمنها في الصندوق، فيوقدها ثم يصفق بكفيه لدعاء روح «المرحوم» . ويتمتم بالتحية والدعاء ويعود فيصفق مرة اخرى حتى تنصرف الروح بسلام وتتعايش هذه العقيدة واسمها باليابانية «شنتو» مع البوذية تعايشا سلميا لا مشاكل فيه . والتاريخ يشهد هذا كله يحدث تحت لحيته، ولا يتدخل صاحبا او محتجا على ما يضايقونه به من زحمة الاساطير لانه هو ايضا يأخذ في اليابان حقه كاملا من العمل الدائب والنظر الصائب والانجاز المدهش، في العلوم والفنون والصناعات، ودقة التقدير والتدبير في عالم المال والاعمال .

فكرت هذا الاسبوع فيما رأيته من شموع الشنتو، وانا اتابع باسى يعتصر القلب ويدمي المآقي، وقائع عيد آخر للشموع يومي السبت والاحد الثالث والرابع من هذا الشهر الحرام، شهر رجب المبارك، تجرى لدى الجار الجائر. اسرائيل ففي ليلة الاحد الماضي بدأ هذا العيد الذي يتبجح باسم آخر هو «عيد الشهداء» وهو عيد صهيوني قح . لم يعرفه موسى ولا هارون لكن كهنة الصهيونية ـ كدأبهم دائما ـ متشبثون بلحية التاريخ يجرونه منها على وجهه ساخرين ضاحكين مستهزئين لهذا بدأوا طقوسه بصلاة الحل من السبت عند غروب شمس ذلك اليوم وراحوا يرتلون المراثي والمزامير. مستمطرين شآبيب الرحمة والرضوان على من سقط من شبابهم في ساحة الشرف والمجد ـ اي والله يا قوم، بينما كانت الرايات قد نكست وانطلقت الموسيقى تصدح بمقاطع جنائزية حزينة او بحداء عسكري حماسي شمشوني شمعوني (نسبة الى شمشون الجبار وشمعون المكابي من ابطالهم العسكريين القدماء، ذلك ان الجماعة لهم عنترياتهم ايضا ويا ويلاه على ابن شداد)

ونزل رئيسهم اسحق نافون وقائد عسكرهم رفائيل ايتان تحيط بهما الحكومة والبرلمان، وكبار الشخصيات المدنية والعسكرية، ومن هب ودب ممن قذفتنا بهم المقادير من كل حارات اليهود في العالم يحملون الشموع وشارات الحداد متجهين نحو (المبكي) وهو جزء من جدار الحرم المقدسي الشريف يزعم اصحابنا في اساطيرهم وترهاتهم انه اثر من اطلال هيكل سليمان بينما اثبتت الحفائر. حتى التي قاموا بها هم انفسهم، انه بقية من سور بناه هيرودس الادومي ـ وهو اردني ليس من بني اسرائيل ـ بعد سليمان بنحو الف عام لكن لحية التاريخ الباسقة يمكنها ان تخبيء هذا الكذب في ثناياها مع ما يسرح فيها عبر السنين والارضين من حشرات وهوام .

وهناك امام حائط المبكي نفخ في الصور تحية لاولئك الذين هلكوا وهم يبثون لاهلاكنا النار والدمار ووقف نافون ومن بعده ايتان يتغنيان ببسالة الذين شقوا بسلاحهم ودمائهم طريق الدولة الصهيونية على دمائنا نحن واشلائنا وانقاض بيوتنا وجثث اطفالنا ونسائنا وسمعت شمشونهم المعاصر ـ الجنرال ايتان يقول ان هؤلاء الابطال قد ضربوا لكل من يعيش من بعدهم المثل الاعلى في صدق البلاء ضد الاعداء ـ الذين هم نحن اعزكم الله ! ـ ولولاهم لما وصلنا ـ يعني الصفوة والزبدة من شعب الله المختار بلا تصغير لمقامكم ـ الى ما عليه الدولة اليهودية الآن من عزة ومنعة ومن قهر وردع لمن حولها

من البشر ومن امتداد لرقعتها وتوطيد لهيبتها واقرار لامنها وسلامتها والح كل الخطباء في تأكيد ان التاريخ يسجل بسرور، وبحروف من نور، كل هذه المآثر والمناقب في الواح الخلود، واثناء اهتزاز المنابر بتلك الفقرات المدوية كانت مصفحات الجنرال ايتان تكمن في زوايا الدروب والمسالك وتشق الحارات والشوارع لتجبر الفلسطيني المسيحي والمسلم على لزوم داره واغلاق الابواب والشبابيك والافواه، وكانت الفتيات الفلسطينيات راقدات في المستشفى يسرى السم في اجسامهن الصغيرة بينما مناحم بيجن يهدد نقابة الاطباء الاسرائيليين بالويل والثبور، وعظائم الامور لان تقريرهم حول هذا التسمم الجماعي جاء وثيقة اتهام صريح للحكومة والجيش، وزعم ان الاطباء العرب في اسرائيل هم وحدهم الذين كانوا وراء هذا التقرير لان صاحبنا لا يعترف بالضمير الانساني في الطب بل بالعصبية العرقية، ثم ان اولئك البنات لسن من سلالة سارة او استير افتنقلب الارض رأسا على عقب اذا جرى تعقيمهن وقطع نسلهن او حتى قتلهن وقطع جذورهن.لا يا سيدي يا نصف انسان ونصف جائزة نوبل العالمية للسلام، ونصف حاكم في لبنان وسفاحا كاملا ونصفا في بلاد العرب والمسلمين لا ياسيد بيجن انك تضحك فقط على لحية التاريخ.

اما الهدية التي خباها هذا الازعر لعيد الشموع والدموع فهي اعتمادات مالية ضخمة لمزيد من المستوطنات في الضفة الغربية سيكون من اكبرها واشهرها مدينة ضخمة يسميها صاحبنا «نابلس العليا» لانها ستضع نابلس السفلى - المدينة العربية الصامدة الصابرة - تحت مدافعها وصواريخها لان الامن الاسرائيلي لايكون الا بجعل القتل والتدمير والابادة خدمات اجتماعية مجانية تقدمها الحكومة الصهيونية لابنائها البررة كل هذا والتاريخ يكنس بلحيته بقايا الدم والبارود والرماد حتى لا يرى الناس من الدولة الصهيونية الا الحضارة والمدنية والرقي والتقدم والعاقبة عندكم في المسرات.

من هنا رزق الله التاريخ بمن يتصدون له فيفضحون لحيته ويحذرون من خرافاته ويضحكون الناس عليه فالكاتب الايرلندي العالمي جورج برناردشو وهو يكتب مقدمة رواية لمؤلف ناشيء يبدأ مقدمته قائلا ان كل ما في التاريخ كذب ماعدا الاسماء والسنين، وكل ما في الرواية الجيدة صدق، ماعدا الاسماء والسنين وعلى مستوى اكثر تواضعا بكثير من برناردشو التقى يوناني ومصري في مقهى وبدأ كل منهما يفاخر الاخر بتاريخ اسلافه وبحضارته وماضيه المشرق حتى علت الاصوات وسخنت الرؤوس وهما يتراشقان بفرعون والاسكندر المقدوني وبالاكروبول ومعبد الكرنك وبالعلم الهيروغليفي والفلسفة اليونانية وفي انتفاضة حماسية صاح اليوناني.

- اسمع يا حبيبي ان علماء الاثار حفروا تحت صروح اثينا المتناهية في القدم فوجدوا قطعة طويلة من السلك استنتجوا منها ان اسلافنا اليونان قد عرفوا الهاتف ورد عليه المصري في الحال

- بسيطة اما نحن «ياخواجه» فقد حفرنا تحت هرم الجيزة فلم نعثر على شيء مما جعل الاثريين يستنتجون ان اجدادنا الفراعنة قد اخترعوا اللاسلكي.

كل هذا والتاريخ يبتسم ببلاهة ويربت على لحيته الوقورة التي لا تعني شيئا وقد وجد

التاريخ من يستغل تخليطه وتحريفه في عمره الطويل هذا وكان صاحبنا يهوديا متعصبا واستاذا للتاريخ في جامعات بروسيا ـ المانيا الشرقية الآن ـ فكتب منذ قرن وربع القرن كتابا ضخما (عشرة مجلدات) كبيرة في تاريخ اليهود، منذ بدء الخليقة الى عصره في اواسط القرن التاسع عشر الميلادي وقرأ اليهود كتاب مؤلفهم المؤرخ هاينريش جريتس وترجموه ونشروه بالانجليزية والفرنسية والعبرية وغيرها من لغات العالم واستلهمه ادباؤهم فيما دبجت اقلامهم من مسرحيات وروايات وملاحم واشعار من وحي تراثهم كما استلهمه هرتسل في القعقعة بامجاد اليهود والمطالبة باقامة دولتهم في فلسطين وصدق العالم هذه الاجتهادات التاريخية . . واقتنع بها ان لم يكن ايمانا بالحق فهو على اضعف التقديرات حقد على العرب والمسلمين هذا الحقد الدفين الذي ورثوه من نكبتهم في الحروب الصليبية فظلوا هذه القرون الطوال ينتظرون الاخذ بثأرها والثأر ـ كما يقول المثل الفرنسي ـ طبق لا يؤكل الا باردا فلتاكل الصهيونية العرب والمسلمين ونرى بعد ذلك .

ولكن التلمود لا يترك شيئا للمصادفات وحتى لا يرى الغرب بعد ذلك في الصهيونية رايا فادحا ظهر في نفس الوقت يهودي اخر ـ يا للمصادفات، تعلق هو ايضا بلحية التاريخ وانطلق به يقرع ابواب السياسة والاقتصاد، فعرف العالم اسم «كارل ماركس» ونظريته التي اشتهرت باسم المادية الجدلية في تفسير التاريخ واراد بوصفها بالمادية تحطيم كل الاسس الغيبية والروحية التي تحيا بها الاديان الاخرى وبخاصة المسيحية بينما تظل اليهودية بمأمن لانها اولا وقبل كل شيء تكتل عنصري عرقي حول مصالح مادية بحتة .

فالدين اليهودي ـ في اعتقاد كهنة بني اسرائيل ـ لم ينزل للناس كافة بل لهم هم وحدهم والاسلام والنصرانية يركبهما من يشاء من البشر، محشورين متنوعين كركاب الحافلة العمومية اما السيارة الخاصة، الفارهة التي تنهب الارض بل تنهب السماء ايضا فهي مركبة معجزة صنعها الرب لشعبه المختار فقط، فاذا كفر واحد منهم او الحد او تزندق او ارتد فان ذلك لا يعني الا انه رفض الغيبية الروحانية الضعيفة النحيفة في دينه بينما يبقى العرق والعنصر. والعصب. والانتماء سليمة بل ربما ازدادت مع الردة عن الشريعة كفرا وطغيانا وهكذا تتضح المعادلة الجهنمية المادية الجدلية تدمر القيم المقدسة التي هي كل شيء في الاديان الاخرى بينما هي تعجز عن المساس بما احتكره اليهود لانفسهم من الدين فليس عجيبا ولا من باب المصادفة العشواء، ان تزدهر الصهيونية حيث التفسخ الروحي لاهل الاديان الاخرى وما يتبعه من انانية وانحلال وانحراف وضياع وليس عجيبا بعد ذلك ان ترى الصهيونية في العروبة والاسلام العدو الشرس ـ مهما بلغ من الضعف ـ فالعروبة صخرة ثقافية لها شكل العرق تتفتت عليها العنصرية اليهودية . كما ان قلة الغيبيات والمسلمات الروحية المحرمة على الجدل في الاسلام تجعل من الفكر الاسلامي صخرة اخرى صلبة جدا تفتت الاسرائيليات التلمودية وتمزقها شر ممزق وبصرف النظر عما يمكن ان يوجد في العالم العربي ومن ورائه العالم الاسلامي من يمين ويسار ومن الوان متباينة تبدأ من الاحمر القاني وتنتهي الى الاسود الحالك او الابيض

الناصع، بصرف النظر عن هـذا مع الاعتـراف بانـه خطير جـدا سيبقى ان الذين الفـوا الضحك على لحيـة التاريـخ لابد ان يشهـدوا غضبته لكـرامته يـوما مـا ولتكونن غضبـة «مضرية» .

تسويق الوهم

● رحم الله الشيخ بسيوني! كان هذا الرجل الطاعن في السن تحفة في قريتنا النائمة في احضان الملل، تحت اغصان ايكة من شجر الاثل والكافور، في هذا الزمان الغابر لم تكن القرية قد علمت - مجرد علم - بالكهرباء او الغاز او السيارة او القطار او الهاتف او الماء في الحنفيات او الصرف الصحي في المجاري، فضلاً عن الراديو والتلفزيون والفيديو والسينما، وما الى ذلك من فنون الجنون، بلى! كان فيها اثر من هذه الحضارة الحديثة نسميه اذا ذاك (ماكينة الغناء)، تدور عليها اسطوانات، فيصدر من قمعها الكبير صوت احد المطربين او المطربات، ممتزجاً بما لا مفر منه من صنوف القرقرة والخشخشة والصرير والصليل والنشيش. وكانت هذه الآلة السحرية قابعة في ركن من مقهى القرية، يقوم بمراقبتها ورعايتها بعد الغروب الحارس الموكل بطاحونة الحبوب، لانه (يفهم) اسرار كل ما شأنه اللف والدوران من الآلات. وكان اهلنا يعنفوننا، ويضربوننا احياناً، اذا لمحونا نسترق السمع لهذه الاسطوانات من وراء شجرة كافور. نعم! عيب عليك يا ولد، وأي عيب! ان تلهو عن حفظ القرآن، وجدول الضرب، لتصغي لهذا المجون، ثم ان رواد المقهى كانوا ابعد الناس عن الصفوة الطيبة من القوم، فمثلاً المعلم متولي المزين، قد عرف الخاص والعام انه يدمن الافيون. والحاج ابراهيم ابو دومة النجار، كان من الحشاشين، والرومي مانولي، سمسار القطن لمؤسسة الخواجا ميخاليدس، كان لا يرى الا وهو سكران، وبيومي بائع التمباك، وشبلي الحداد، ومدبولي صياد السمك، وحريزة الطبال.. لا.. لا.. خصوصاً هذا الاخير. اليست اخته (باتعة) راقصة في العلن، واللهم احفظنا في السر؟

وهكذا كانت فرص الاقتراب من هذا المقهى بالنسبة لنا نحن الاولاد الصغار نادرة. ولم يكن لنا والحالة هذه من ملاذ الا بالقرب من عمنا الشيخ بسيوني، أمام حانوت الحاج معوض العطار. وكان العطار يحتفي بالشيخ بسيوني، ويوسعه ترحيباً، ويواليه بالقهوة، وبعض الحلوى احياناً، وكان لهذا الكرم الحاتمي سبب، هو ان

الشيخ بسيوني كان يحفظ الكثير من وصفات الطب القديم، مما قرأه في تذكرة داود الانطاكي، او مفردات الادوية لابن البيطار، او كتاب الطب لابن النفيس. فاذا جلس عند معوض العطار تقاطر عليه المرضى من هذا الريف المحروم، يشكو احدهم من المغص فيلتفت الشيخ الى العطار آمراً بمسحوق الدرسيني مع الكمون والمر. . وتوكل على الله. فيدفع القروي ثمن المسفوف الثمين وينصرف، وآخر يشكو من ان زوجته نحيفة جدا وهو من هواة اللحم السمين، فيقول الشيخ بسيوني: بسيطة يا شيخ! حلبة مطحونة، وسمسم، ومخشبان عفصلي، وحبة سوداء، وقلب لوز واعجنها في العسل واجعل فطورها منه كل صباح. . مع السلامة! وهذا الآخر يهمس في اذن الشيخ لان المشكلة ليست في زوجته، بل فيه هو. فيأمر له بلحوس من الدبس ودهن الخردل ومسحوق السقنقور، وجوزة الطيب، وزيتونة بني اسرائيل. . واستعذ من الشيطان، فهذا اللحوس يصنع العجائب! . . وهكذا تكون جلسة الشيخ بركة على العطار. . وعندما يؤذن المغرب يذهب الجميع الى المسجد، ماعدا مانولي الرومي طبعاً، ثم ينفتل الشيخ بسيوني حسب جدول زمني دقيق جدا. فقد كان الرجل طفيلياً محترفاً، لا يتعشى الا في الاعراس او الجنائز او حفلات الختان وتوديع الحجاج واستقبالهم وعلى موائد المرشحين للانتخابات، أو في دار العمدة اذا زاره المأمور او المحافظ. فاذا اعوزه ذلك في القرية الصغيرة، التمسه في بعض الربوع المجاورة، او في احد الموالد الكثيرة التي تعج بالناس، وبالطعام والشراب، في حب ولي الله صاحب المولد. وكان يلذ للشيخ بسيوني في هذه المناسبات ان يتحف هؤلاء البسطاء بالقصص العجيبة الغريبة. فكنا ننصت له نحن الصغار، ونشرب كلامه فننتشي كما لو كان خمراً، وكانت ذروة هذا السحر عندما يقص الشيخ مغامراته هو شخصياً مع الجن والعفاريت، فأين من قصصه تلك افلام الرعب، والحروب، وهبوط الغزاة على الارض من كوكب الزهرة او المريخ؟ كان الشيخ بسيوني يغني عن مسلسلات التلفزيون واشرطة الفيديو وافلام السينما!

سمعته مرة يقول: الشياطين ـ يا جماعة الخير ـ مثلنا في اشياء كثيرة. منها ان الرعونة والتهور والتمرد والعدوان تكون فيهم ابان الشباب، فاذا كبروا في السن اصابوا كثيراً من التعقل والرزانة والروية. ذات ليلة ـ قل اعوذ برب الفلق! كنت عائداً الى داري بعد سهرة حافلة اكلت فيها زوجين من الحمام المحشو، وطبقاً كبيراً من الكنافة، وشمامة. وهنا يسارع بعض ذوي القلوب المرهفة باحضار طبق من الكنافة وشمامة كبيرة، معتذراً عن الحمام بان الشيخ قام لتوه من عشاء المولد بلحم العجل والثريد. ويمضي صاحبنا في حديثه، وهو يأكل ما وضعوه امامه. ويشير بالسبابة الى الطعام صائحاً: ليحرمني الله من الزاد، ويجعلني اشحذه (كأنما هو الآن يشتريه)! اذا كان ما ارويه لكم الآن ليس بالحق، كنت في طريق العودة كما قلت، وكانت الليلة من ليالي المحاق لا ترى شيئاً من شدة الظلام، وفجأة وجدتني اصطدم بجدار! يا بسيوني. . هذا طريق الدار، احفظه بأدق مما احفظ ما في جيبي. .

ويقاطعه احد المستمعين قـائلاً: ربمـا كنت يا شيـخ قد تنـاولت شيئاً من الحشيش في تلك الليلة. فيمتقع وجه صاحبنا غضباً ويصيح! أي حشيش يا ابني؟ انني قادر عـلى تناول رطل كامل من الحشيش دون ان تهتز شعرة في رأسي! فينظر القرويـون بعضهم الى بعض في اعجاب واضح ببطل الدوري الماثل امـامهم.. في تعاطي المخـدرات، ويستمر هو قـائلاً: الى اين وصلنـا؟ نعم الى الحائط.. فقلت لنفسي: يـا ولد! ربمـا اخطأت الطريق في هذا الظلام، وانثنيت على عقبي، لارجع وابدأ المسيرة من أولها، لكن ـ يـا للعجب ـ الحائط اللعـين يقف في وجهي من هذه النـاحيـة ايضـاً! ورحت التمس مخرجاً عن يمين، وعن شمال، ومن خلف، ومن قـدام.. لكن بلا فـائدة.. الحـائط يحـاصـرني، وعنـدئـذ فهمت.. نعم.. فهمت انـه واحــد منهم.. فقلت (للحـائط) افسح احسن لـك! ولا تحاول اطـالة هـذه اللعبـة غـير المسليـة!.. لكن الجدار قائم لا يريم.. وقرأت شيئاً من القرآن والوضع هـو هو!.. يعني (صـاحبنا) هذا كافر! شيء جميل.. ووضعت يـدي في جيبي فاخـرجت المطواة ـ وهي التسميـة المعتمـدة للسكين التي يـطوى نصلها لتـوضع في الجيب ـ وفتحتهـا، وقلت: أمـا ان تنصرف أو تنال جزاءك، وكأنـه ـ يا عبـاد الله ـ جدار حقيقي لا يـرى ولا يسمع ولا يتحرك، وبنصل المطواة رحت أحزه من أعلى الى اسفل، فسمعت صرخة عـظيمة، ثم انفتح الطريق باذن الله! ومن يومها يا سـادة، وأنا ارسم نصـل هذه المـطواة على ورقة عنب، واكتب عليها تعويذة بدم هذا الجني الكافر، فمن حملهـا لم يستطع احـد من الانس أو الجن ان يتعرض له، وأنا اعطي نسخة من هذه التعويذة لمن يشاء نظير عشرة قروش فقط، اقبلها في محبة صاحب المولد، وصلوا على النبي!

تذكرت الشيخ بسيوني، وأنا اصغي لتعليقات الاذاعة العبرية تل ابيب على نشرة الاخبار، في تلك الفترة التي يحتفل فيها مناحم بيغن بمرور خمسة وثلاثـين عامـاً على قيام الكيان الصهيـوني في فلسطين العـربية المحتلة. والجـديد في هـذه التعليقات ان (شهر العسل) الذي بدأ، بناء على اتفاقية كامب ديفيد، بـين مصر واسرائيـل، يبدو وكأنه قد اصبح في خبر كان.. فالمعلق السياسي الناطق بلسان سيـده مناحم بيجن، يتصـدى لمصر في كل اتجـاه، ويسد عليهـا في الظلام الـدامس الذي تشقـه الآن كل مسلك تتجه اليه، تماماً كهذا الجدار الكافر الذي سد الـطريق على الشيـخ بسيوني. فاذا ما يممت مصر وجهها نحو العـالم العربي، اتهمهـا (صاحبنـا) بالـردة عن كامب ديفيد المقدس. واذا أعلن الـرئيس حسني مبارك ان الشخصيـة العربيـة الفلسطينيـة هي مفتاح السلام مع اسرائيل، كان ذلك هرطقة وتجديفـاً وكفرا.. واذا قـال السيد كمـال حسن علي ان العمق الاقليمي الـطبيعي لمصر هو هـذا العالم العـربي الكبـير، ضربت الصهيونيـة كفا بكف، وانتقـل (الحائط) يسـد على مصر منـافذهـا على هـذا العالم. واذا اعلن الفريق ابـو غزالـة ان الجيش المصري سيكـون درعاً واقيـاً للعرب جميعاً، لطمت الصهيونية خديها وأولت ذلك بانه تهديد لامنها، الذي يجب ان يكون أغلى على العرب من حبات عيونهم، كما هو لدى الرئيس ريجان. واذا اشار الدكتـور بطرس بطرس غالي الى ان السلام سيظل متعثراً طالما اسرائيل تحتـل لبنان والجـولان

وتبني المستوطنات، وتنهب الممتلكات، في الضمن الاردن، وفي قطاع غزة الصابر المناضل، اتهموه بخيانة السلام، وقام (الجدار) يقطع عليه الطريق. واذا سار المرحوم الدكتور عصام السرطاوي في الخط المعتدل الذي التقت فيه انظار الساسة المصريين مع معتدلين من كل ساسة العالم مثل كرايسكي وانديرا غاندي وميتران وغيرهم، بل من انصار السلام في اسرائيل نفسها، مثل يوري افنيري ومتتياهو بيلد، اصيبت الصهيونية بالجنون والسعار، وسفكت دم عصام السرطاوي على مرأى ومسمع من العالم كله، ليسد (الحائط) طريق السلام من هذه الجهة ايضاً . . واذا تجرأ الرئيس ريجان فمنع الطائرات الحربية الامريكية الصنع عن اسرائيل حتى تجلو عن لبنان، نسفوا له سفارته في بيروت، لينتقل الى هناك نفس (الجدار) الذي يقطع جميع مسالك السلام. . ويبدو ان (مطواة) الشيخ بسيوني هي الحل الاخير لهؤلاء المعربدين من أولاد الأبالسة .

لكنهم لم يغفلوا عن ذلك، فقد راحوا يسوقون اوهاماً اخرى اشد خطورة وهولا ، فمن ذلك زرع اليأس من كل شيء في قلوب العرب: اليأس من التفاهم، واليأس من المستقبل، واليأس من الكفاح المسلح، واليأس من التقدم، وحتى اليأس من البترول! لكنهم في ذلك يلعبون بالنار واليأس له نهاية والويل لهذا (الجدار) اذا اصر على شل حركة العالم العربي فى جميع الاتجاهات! الويل فيما يسمى في جميع الاتجاهات! الويل له فيما يسمى في كتاباتهم المقدسة (يوم الرب)، ذلك اليوم الاسود الذي تقوم فيه السماء بتصحيح الاوضاع على الارض، ولو ادى ذلك الى هدم (الجدار) .

ونقطة الضعف عند اصحابنا، انهم ككل الكذابين والافاقين ينتهون بالايمان بذلك الوهم لطول تسويقهم له، وتكرار القول في محاسنه ومزاياه. واذكر انني سمعت الشيخ بسيوني هذا يقول في مساراته: ان اخطر ما يتعرض له الكذاب هو ان يصدق نفسه، فسأله بعض من حضر: وهل يمكن هذا؟ فأجاب بانه لا أيسر ولا أسهل! قال الراوي: يحكي ان فرعون عندما ادعى انه الإله، اجتمع بوزيره هامان، وامره بان يساعده ـ اعلامياً ـ على اقناع الناس بانه ربهم الاعلى. وبذل هامان جهدا جبارا في نشر تلك العقيدة، فما ترك احد من الخطباء والوعاظ والكهنة والادباء والشعراء والرواة والقصاصين الا جنده لهذا العمل. وكان فرعون يتابع المعركة الاعلامية بمثابرة واهتمام، حتى انه لكثرة ما تكرر على مسامعه منها، آمن هو نفسه بربوبيته. وجاء هامان لمقابلته لامر ما، فدخل الحاجب يستأذن له، ثم عاد يقول للوزير: انتظر قليلاً . . فقد طلب فرعون مهلة قصيرة، حتى (يخلق) بعض ما يريد ايجاده من المخلوقات. فهجم الوزير واقتحم الباب، وهو يصيح ساخراً محتجاً: على هامان يا فرعون؟ فذهبت مثلاً. وانتهى فرعون وهامان. . ولكن تسويق الوهم مايزال مستمراً، وتصديق تجار الاوهام لكذبهم وتلفيقهم يسير سيرته الأولى، مع هبوط المستوى بما يناسب (ديموقراطية) العصر. فمن ذلك ان اثنين من اللصوص اشتركا في سرقة حمار، وقررا الا يبيعاه وان يستعينا به في ممارسة مهام عملهما، فيقف

احدهما بالحمار، بيما يتسلل صاحبه الى الدور فيسرق ما فيها، ثم يحملان ما اخذا على ظهر الحمار وينطلقان. ومضت الايام بلا مشاكل الى ان افاقا ذات صباح فوجدا الحمار ميتاً، وهنا اصابهما هم عظيم، الى ان بادر احدهما قائلاً: عندي فكرة! ندفن هذا الحمار، ونقيم عليه قبة، وندعي ان هذا قبر ولي من اولياء الله، فيأتي الزوار - والبدع والخرافات كثيرة ومنتشرة - ليتبركوا بالمرحوم، وتنهال النذور، وتكثر الحفلات والسهرات والتبرعات، ونستريح نحن من مخاطر السرقة واهوالها و. . . نتوب! وتحمس زميله لهذه الفكرة الذكية النيرة، واقيمت القبة والضريح، وحفرا على القبر شاهدا يحمل اسم العارف بالله، شيخ الطريقة، وجوهر الحقيقة، صانع الكرامات، ومفيض البركات، الخ . . .

تقاطر السذج من الخلق على (المقام)، وحلت الدنيا وطاب نعيمها للصديقين، وكانا يتوليان الحراسة والسدانة ومراسم الزيارة، ويفرغان صندوق النذور قسمة بينهما، حتى نسيا الصورة الأولى من اللصوصية، وركنا الى هذا النمط الاخير. لكن ذات مرة اختلفا على بعض النذور، واتهم احدهما الآخر بالاختلاس، واذا بصاحبنا هذا يضع يده على القبر ويصيح: اقسم لك بحق (المرحوم) انني لم اختلس شيئاً! . . فانفجر الثاني ضاحكاً وهو يقول: نحن دفناه معاً! . . العب غيرها! . . فيا سيد مناحم بيجن: العب غيرها!

ولا تزال في دنيانا (مؤسسات) بعضها له الصفة الدولية، لتسويق الوهم.

في ضواحي جهنم

نعم.. بعيداً عن الدرك الأسفل، وسواء الجحيم، والحطمة، والسعير - نجانا الله واياكم منها - بدأت سياحتي في «جحيم دانتي»، وهو من نسج خيال شاعر ايطاليا في عصر النهضة، منذ خمسمائة عام، ثم شردت منه إلى آخر، رسم حدوده، ووضع في داخلها من شاء هو من شعراء العربية، أبوالعلاء المعري قبل دانتي بنحو ثلاثة قرون. وقرأت - في طريقي إليه - بعض ما كتبه الدارسون عن تأثر دانتي بهذا الذي جاء في رسالة الغفران، واحسست بأن فكرة هذه المقارنة غير ناضجة (على الرغم من انها محشورة بين نارين)، وان بعض الأثر القرآني يبدو عند دانتي أوضح من اثر المعري. ولما كانت رحلتي الفكرية هذه قد بدأت في الشتاء - كما تقتضي الاحوال الجوية - فإنني واصلتها بغير كبير عناء، واحسست بأنني لا أخاف من جحيم الاديبين العربي والايطالي معاً، بينما اتصبب عرقاً وفرقاً من آية واحدة من وصف الله تعالى لناره الحامية، التي اعدها للمغضوب عليهم. فهي نار زجر ووعيد، وتحذير وتهديد، وليست مفاجأة سياحية لطيفة كما رسمها الأديبان الكبيران. ولما كانت ليالي الشتاء طويلة شديدة البرد، فقد فكرت في مواصلة المسيرة، ورحت ابحث عما دخل في جحيم دانتي من عناصر وثنية، فطالعتني دار العذاب اليونانية التي تسميها اساطيرهم (هادس)، وفوجئت بعلاّمة مسلم سبقني إلى مثل هذه الجولة بنحو ألف سنة، هو أبوالريحان البيروني، في كتابه عن الهند، حيث يقارن بين الأغريق والهنود في معتقداتهم حول من استحقوا اللعنة في الآخرة، وهو يقارن بمنهج علمي وصل من الدقة والنزاهة، وأصالة المعلومات، إلى درجة يحسده عليها أي مؤرخ للأديان في عصرنا هذا، وفي أرقى أمم الأرض في الدرس والبحث. ولكننا ننتفخ وننتفش ونحن نقعقع باسم الباحث الغربي، ونجهل - أو نتجاهل - البيروني ومن لف لفه من علمائنا السابقين الأولين، وهم كتائب متتابعة تستعصي على الاحصاء. وأمام هذه الظاهرة شعرت بأنني هذه المرة، وبحق، في جحيم. فابتعدت

مذعوراً لأبحث عن بعض دور العذاب الاسطورية، التي توهمها خيال البشر، في الشرق الأوسط القديم. ورأيت (هادس) اليونانية تطالعني بصورة مقاربة في الملاحم العراقية المسمارية، قبل الاغريق بأكثر من ثلاثة آلاف عام، عند السومريين والاكاديين، حيث دار البوار (ابسو) في قاع الظلمات السفلى، وراء عالم الأفلاك السيارة التي نراها، وحيث أقصى العذاب الذي يذوقه من حلت لهم اللعنة هو. . . الضياع! وانتابتني هاجسة ارتجفت لها ومازلت إلى الآن ـ اخرجنا الله وإياكم من الظلمات إلى النور ـ وهي اننا، منذ خمسة آلاف سنة، ضائعون هائمون في هذا (الابسو)! لولا ان انتشلني تاريخ حافل بالحضارات الشامخة التي عرفت طريقها، وأنجزت وعودها، وصنعت للفكر والقلب والعقل جناناً وارفة الظلال، فيها الايمان، وفيها كل جمال الدنيا من فن وأدب وعلم. ولما شعرت بشيء من الطمأنينة، واصلت قراءتي في اساطير الأولين من اسلافنا القدماء. فطالعني في (الابسو) نزيل مظلوم، هو البطل الشعبي السحيق «قلقامش» ـ رمز القلق في طفولة التاريخ. قال الراوي: كان هذا الرجل جميل الصورة، عملاقاً، فولاذي العضلات، رقيق القلب، كريم النفس. وكان ثاقب العقل، نادر الذكاء. فراح يتأمل الكون، ويقول لنفسه: لماذا كان الانسان مفكراً مدبراً صانعاً مبدعاً، يشبه الآلهة في ذلك كله، ولكنه متغير فانٍ يموت كما يموت الحمار؟ ومضى يسأل الحكماء الذين يحتفظون تحت ركام الجاهلية الوثنية ببقايا من قبس العلم الإلهي. فاخبروه بما وقع من آدم وحواء من معصية الأمر العلوي بالأكل من الشجرة المحرمة، وانهما طردا من الجنة قبل ان يأكلا من الشجرة التي يعود بها الشيخ صبياً فتياً، فلا يعرف الموت إليه سبيلا. وببراءة الرجل البدائي فكر قلقامش في البحث عن هذه الشجرة، وغرس شتلة منها في أرض بابل، تقي الناس من الفناء وفي مغامرات ملحمية هائلة، يمضي صاحبنا ملتمساً هذه النبتة المباركة في كل مكان، ويلتقي في طريقه شيخاً جليلاً مهيباً يعيش على قمة جبل منذ آلاف السنين، هو «أصل النفوس». فيقول للفتى: لا تتعب نفسك يا بني، وإياك وتحدي الادارة العليا، فأنا في مكاني هنا منذ الطوفان، لا أرى شيئاً يقع على هذه الأرض إلا طوعاً لهذه الارادة. ولم يضعف عزم البطل بل استمر في رحلته يقاتل السباع والجن والثعابين الرهيبة، حتى اقترب ـ كما تقول الاسطورة ـ من الدرب المؤدي إلى الجنة وهنا عرضت له «عشتروت» إلهة الحب والجمال والجنس، وحشدت كل فتنتها وفنون اغرائها شركاً تصطاد به هذا البطل الطيب. وما كانت إلا نظرة فابتسامة فسلام، وقع المنحوس على اثرها في احابيل الغريزة، وفقد سيطرته على نفسه تماماً. وتضايقت وأنا اقرأ هذا المقطع من الملحمة، وضربت الارض بقدمي وأنا اصيح: يا له من غبي! اهكذا يسلم نفسه بلا قيد أو شرط؟ وضحك شيطان صغير في رأسي قائلاً: هذه عشتروت شخصياً، يا استاذ! ولو كنتَ مكانه لما قاومت طرفة عين. وصحت: كلام فارغ!.. فالرجل يجب عليه ان يتماسك، وان يتصلب، وان يظل قوياً.. ووقوراً.. ومحترماً.. خصوصاً إذا كان بطلاً، وصاحب مهمة على هذا المستوى!. وقهقه اللعين ساخراً، وقال: يا ابن

القرن العشرين الميلادي، وشاهد عيان لحضارة مرعبة في قوتها وشموخها، اما تزال أجهزة التجسس، والقتل، والنسف، تعتمد على الفاتنات في تحطيم أعتى الجبابرة، والحصول على أهم المعلومات وأشدها خطورة؟ . . ومع ذلك فأين هن من عشتروت؟ نهارك سعيد ووقاك الله من كيدهن، هذا إذا كانت فيك بعد بقية لا يسيطرن عليها. وصحت به: اذهب يا خبيث، فأنت تدافع عنهن لانهن من جنودك! واجابني: بل أنا من جنودهن!

وتركته بعد ان اختلفنا في وجهة النظر، وعدت إلى الملحمة لأرى عشتروت تأخذ بيد قلقامش فيسيران، إلى ان وصلت به إلى شفير حفرة دفعته إليها، فراح يهوي . . يهوي . . نحو اعماق الابسو. وبقي الشرق الاوسط القديم ينتظر عودة قلقامش، حاملاً في يده غصناً من شجرة الشباب الابدي، حتى انقرضت تلك الأجيال وحضارتها ومعتقداتها، وصاحبنا لم يعد بعد من جحيم عشتروت.

لكن، بالرغم من تلك النهاية الحزينة، فإن المنتظرين لعودة قلقامش رأوا ان الوفاء لهذا البطل الصنديد يجب ألا يقف عند رسم صورة على الفخار، ونحتها في المعابد، ونقشها على الاختام التي يوقعون بها على الوثائق، بل ينبغي ان يساعدوه على اتمام مهمته. فراحوا يدرسون كل نبات، وكل غصن وجذر وزهرة وثمرة وحبة، وكل لحاء وخشب وقشر وتبن، وكل عشب وكلأ وحلفاء، ويبحثون في الخواص الدوائية المختلفة لكل فصائل الزرع والشجر. لعل بعضهم يهتدي إلى «شجرة الشباب الأبدي» حتى يريح البطل من العناء والغربة والعذاب، وهكذا ترك لنا السومريون والأكاديون والبابليون والاشوريون والكلدانيون موسوعات حقيقية في الطب والصيدلة وعلوم النبات والكيمياء والزراعة، لأنهم لم يكونوا ينظرون إلى قصة البطل قلقامش على انها أثر شعري للتسلية، بل بمثابة قطعة من تاريخهم البطولي يجب أن تظل حية ومتفاعلة مع الثقافة والمجتمع. وهكذا احاطوا اثراً، لم يكن بالتأكيد وحياً من السماء، بقدسية راسخة نشيطة، فجنوا من ذلك أعظم الفوائد، بينما نحن نضيع كل يوم من مقدساتنا، وفيها «وحي يوحى، علمه شديد القوى»، وفيها مدارس ومساجد ـ منها ما يرقى إلى منزلة الحرم ـ وفيها ديار وأوطان وعشائر من اخواننا وابنائنا، وفيها ـ قبل ذلك كله ـ كرامتنا التي تنتهك كل يوم.

ومرة أخرى تردد في خاطري سؤال مكمل لهذه الأفكار، في القرن الخامس الهجري استولى الحسن بن الصباح على قلعة الاموت في شرقي ايران، ودعا تلك الخلائق الجاهلة الساذجة إلى اتباع مذهبه ـ مذهب الشيعة الحشاشين ـ بعد ان انشأ لهم في الوادي الواقع خلف القلعة «جنة». فكان يخدرهم بالحشيش، وهم عنده في القلعة، ثم يأمر بحملهم مسطولين كما هم إلى هذه (الجنة)، حيث يأخذهم الذهول أمام ما يرون من اناقة المكان، ورشاقة الحور العين، من حوريات طوس وشيراز وبندر عباس وهراة (لا تنسوا عشتروت يا جماعة الخير!) ورقة الكؤوس وقوارير الشراب، وجودة المأكل والغناء وقوة تأثير الحشيش، الذي يعيدهم إلى الوضع الافقي ـ وضع النائمين والمساطيل ـ حتى يتسنى نقلهم إلى (الدنيا الفانية) من جديد

وإذا بالواحد منهم لا يشك في انه زار الجنة، ورآها عيانا، وتمتع بها جهاراً نهاراً، بسر مولاه الحسن بن الصباح، فما يعود شيء عنده أشهى من الموت - الآن الآن وليس غداً - لكي يعود إلى أحضان الحور العين، هذه المرة دائماً وأبداً وإلى غير رجعة.

سألت نفسي: الم يخطر ببال واحد من أولئك الناس الطيبين ان يطلب من شيخه ان يريه جهنم ايضاً ومع اني لا اشك في دهاء الحسن بن الصباح، فإنني اشك في قدرته على تقديم نموذج مسرحي لدار العذاب. فهذا النموذج يكلف خزانته أكثر من هذه الجنة الكاريكاتورية التي انشأها. إذ من اين يحصل على الوقود الضخم، السريع الاشتعال، العالي اللهب والشرار، الدائم الجمر والنار؟ واين يجد سلاسل من حديد، كل واحدة سبعون ذراعاً؟ والزبانية الذين يتحركون خلال السعير وما يغلي فيه من نحاس وقطران؟ وكيف يزرع في هذا كله شجرة الزقوم؟ وكيف ينز في هذا الفرن الكبير مستنقع من غسلين؟ وإذا تمكن من حل كل هذه المشاكل، التي يستحيل حل الكثير منها، فمن اين له «زبائن» الزبانية؟ ومن اين له - إذا نضجت جلودهم - ان يبدلهم غيرها؟ ومن يضمن له انهم سيتكلمون في هذا الهول إلا ان يلعنوا اباه ومن اتبعه إلى يوم يبعثون؟ وابتسمت ابتسامة ارتياح طويلة عريضة، إذ تبين لي بالحساب الدقيق - ولمرة في العمر - ان الجنة كانت عند هذا الدجال ارخص وأسهل من جهنم! وليس هناك من قياس ممكن بين هذه الترهات، وما عند ربنا سبحانه وتعالى من الثواب والعقاب.

وعدت اقول ان هذا التصور الوقح لإمكان تقليد النعيم والعذاب من قبل بعض المضللين لم يقف عند الغيبيات، وانما تعمده الكثير من المتاجرين بالفن والأدب في جميع انحاء العالم، وفي عالمنا المسكين هذا على وجه الخصوص. فالأديب الذي يستحث في الشباب كل ما هو شهوة بهيمية جامحة، دون ان يفيده شيئاً إلا ان يسلم قياده إلى اية «عشتروت» تغمزه بـ «رمش» عينيها، انما يسحب الشاب المسكين إلى تلك الهوة السحيقة في ضواحي جهنم، والشاعر الذي يطرق على اعصابنا بمقامع اللامعقول المستورد من الخارج، لا يرجو من وراء ذلك إلا ان يشككنا في عقولنا ونفوسنا وماضينا ومصيرنا، ليس إلا مندوباً لبعض من يتعاطون النخاسة الفكرية بحثاً عن زبانية وحشم وخزنة يقومون، في ضواحي جهنم، بالعمل على القاء الناس فيها. والسياسي الذي يردد بمناسبة وبغير مناسبة ان نظامه مثالي، وان بلده بفضل حزبه الحاكم قد أصبح جنة الله في الارض، هو سياسي يخلط بين جنة الله تعالى وجنة الحسن بن الصباح، التي هي في جوهرها ضاحية راقية من ضواحي جهنم. وفي الفن - في بلادنا وفي العالم - نجد الحد الفاصل بين مواطن الجمال الحق - الذي هو روح الفن - وبين ضواحي جهنم الخبيثة الهزيلة، يكاد يختفي في الضوضاء والعجاج والدخان والهرج والمرج، الذي يلوي قلوب الناس واحشاءهم، وعقولهم ايضاً لذلك يقول افلاطون: ان الجمال هو قمة تألق الحق، وهو بهذا قد قطع

الطريق على المهرجين والغشاشين ومدمري الأذواق والاخلاق. ونقلوا عنه ايضا قوله: ان العمل الفني الجميل هو الذي يقدم صورة محسوسة مفهومة للجمال المثالي. وبعبارة أخرى هو المنقذ الذي ينتشلنا من ضواحي جهنم إلى نعيم الجنة. وإذا كان ذلك يبدو ممكناً في «الاعمال الفنية» فإنه أكثر تعقيداً فيما يتصل بالجمال الانساني. فالغرائز القائمة بين ذكور البشر واناثهم تدخل عاملاً - غير فني ولا جمالي ولا مثالي - في حكم الواحد من الطرفين على الآخر، كما ان الجوع الجنسي الغريزي قد يبدي صورة خادعة - مثل حشيش الحسن بن الصباح - لا علاقة لها بالواقع. وهنا يكمن سر من اسرار الحب الجارف المتوهج بين الشاب وخطيبته، ثم انطفاء هذا الوهج في حالات كثيرة، وبسرعة، بعد ان تشبع الغريزة الحيوانية، ويبقى الحكم على الشخصية خلواً من الغمريات والمشوقات. واظن ان الشاعر بهاء الدين زهير كان قد انجذب بتأثير سلطان الاغراء إلى امرأة لا يبقى منها شيء بعد ذلك، وربما زاد الطين بلة انها تشبثت بصاحبنا حتى زاد ملله منها فقال:

كم ذا التصاغر والتصابي غالطت نفسك في الحساب
لا اقتضيك مودة رفع الخراج عن الخراب
هذا، وكم لك وقفة بين الأزقة للعتاب!

وإذا كانت عشتروت جبارة وقاسية وظالمة، فإن عدداً كبيراً من النساء على العكس منه، مظلومات. فالعريس لم ير فيهن عند الخطوبة إلا عشتروت، وبعد الزواج ظل يجهل حلاوة اللسان، وحسن التدبير، وصدق الاخلاص، ورجاحة العقل، وكمال الخلق والدين فأهمل المرأة الفاضلة، واستسلم لنزوات المراهقين، يحلم بعشتروت.

الموت اكثر من مرة..

حكى احد رواة النكت اليهودية قال: كان ابشالوم يهوديا من رومانيا قضى حياته كلها متصعلكا في اوروبا، لم يحقق اثناء ذلك امنية واحدة من امنياته في الحياة، ولما ادركه ضعف الشيخوخة قرر ان يهاجر الى اسرائيل. وفي المطار قال وهو يودع اصدقاءه: ان تضييق الاوروبيين على امثالنا من بني اسرائيل قد جعل مني صهيونيا ملتزما، وسأذهب الى فلسطين لاعيد امجاد الاولين هناك، ولم يعد لي من امل سوى الموت في تلك البلاد المقدسة، بعيدا عن التعصب العنصري الاوروبي، واقلعت به الطائرة الى تل ابيب. لكن بعد بضعة اشهر، رآه احد الذين ودعوه اشعث اغبر يجر قدميه في المانيا. فسأله بدهشة: ماذا حدث حتى رجعت من اسرائيل الى اوروبا؟ واجاب ابشالوم بمرارة: طردوني! هذا شيء لايصدق! . . لقد بحثت المخابرات الصهيونية عني تمهيدا لمنحي الاقامة والجنسية واكتشفوا ان جدتي الخامسة والعشرين كانت عشيقة لتاجر خنازير الماني فقرروا انني لست يهوديا اصيلا وطردوني. وهكذا جئت الى المانيا ارض اجدادي غير الشرعيين، ليس لي من امل الا ان اموت «مرة اخرى» بعيدا عن النازية الجديدة، والنعرة العرقية عند هؤلاء الصهاينة الملاعين.

استرعى نظري قول ابشالوم انه يريد ان يموت . . مرة اخرى، مع انه لم يمت قبل ذلك قط. وسألت نفسي: كم مرة يمكن ان يموت الانسان؟ وصاح في اعماقي صائح يصرخ: العمر واحد . . والرب واحد . . واذا انتهى العمر جاء الموت، فهو واحد ايضا. الم تسمع قول الشاعر:

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره
تنوعت الاسباب والموت واحد

فقلت: الم تسمع قول شاعر الانجليز شيلي، في عمل من اجل اعماله الشعرية، اسمه الموت:

تموت لذائذنا اولا
وفي اثرهن يموت الامل
وتهوى مخاوفنا بعدها
سدادا لدين المنى والوجل
ويبقى التراب ينادي التراب
ويمضي به حين يأتي الاجل

واجابني هذا الهاتف من اعماقي: وماذا في هذا؟ انه موت واحد، لكنه - في وجدان الشاعر - يتم بالتقسيط. ولوكان عزرائيل ماذونا بتعليمنا لقال لك ان الموت - طال عمرك - انما هو العملية النهائية التي تتم على يديه هو، وكل ماسواها فهو. . ماذا اسميه؟ . . لنقل انه ادب او خيال او ثرثرة فارغة. قلت وماذا تقول في الشاعر العربي الذي هاجمه المرض فقال:

دب في السقام سفلا وعلوا
وأراني اموت. . عضوا. . فعضوا

قال كذاب! . . ماهذا الميت الفصيح؟. انه يموت، هو ايضا، بالتقسيط. . في اعضائه لا في اهوائه. ومادام لم يمر بعد بيد عزرائيل، فمن المستحيل ان نحسبه ميتا. قلت: يامكابر! اماسمعت قول الشاعر:

ليس من مات فاستراح بميت
انما الميت ميت الاحياء

قال: وهذا ايضا. . ادب! وانا استطيع ان اذكر لك الكثير من هذا الادب. خذ مثلا ياسيدي فقرة كتبها الاديب البريطاني وليم هازلت من مقال بعنوان: الشعور بالخلود عند الشباب: اننا لانموت جملة واحدة في ساعة الاجل المحتوم، اذ اننا نكون قد بلينا شيئا فشيئا قبل الموت بزمن طويل. وياتي الموت فيحمل البقية الباقية منا، او مماكنا، الى القبر! ان اللغة - وانت سيد العارفين - مرنة لينة، ولسان الانسان مراوغ العبان من حقه ان يلهو وان يتفنن وان يبالغ حتى يقيم من الحبة قبة او يصغر ويحقر، حتى يجر الجبال، بالحبال، ويريك الموت والبعث والنشور في سطور. كل هذا مائع ومائج رجراج، بينما الموت صلب حاسم، لايناقش ولايساوم. الموت حق ومايزعمون انه هو. . باطل. ودعني اذكرك الآن ببعض هذا الباطل، في مقطع من غزلياتك انت، حيث تقول لها:

اسمعيني الكلمات المعجزات
كلمات البعث من بعد الممات
التي تقلع جذر الياس من اعماق صدري
التي تستل شوك الموت من رنات شعري
التي تنساب في القفر فيخضر النبات
صفرت بالشفتين الحلوتين
وحكت دهشتها نظرة عين
واشارت باليدين:
كلمات. . كلمات. . كلمات!ز. .

اهذا رحمك الله! موت؟ انه على اكثر تقدير يدخل في باب النكتة التي يروونها عن قوم

من مدمني المخدرات ، ظلت الشرطة تتعقبهم وتنكل بهم في كل مكان ، وتفاجئهم حيثما ثقفوا، الى ان ملوا السجون والسياط ، فقرروا ان يمارسوا هذه المصيبة في المقابر ، آمنين من هجمات رجال الامن . لكن خاب ظنهم ، عندما اطبقت عليهم هذه القوات فأطلقوا سيقانهم للريح وشردوا في كل مكان يقع منهم اناس ، وينجو اخرون . وفي ركن من الاركان قبع واحد منهم لم تسعفه قدماه ، فظل منكمشا ، متقنفذا خائفا يترقب ، الى ان رأى الضابط فوق راسه . فقال له : انت واهم ، ياسيدي الضابط فانا لست من الحشاشين ، انا ميت!

ولم اقتنع ، على الرغم من كل ماسمعت . وعدت اكرر على نفسي السؤال : هل يموت الانسان مرة واحدة ووحيدة؟ ولنضيق الدائرة قليلا حتى يسهل علينا حصر الاجابة . فنجعل سؤالنا خاصا بمشاهير الناس فقط في الادب والفن والسياسة والحرب وما اليها .

مات المنفلوطي عام ١٩٢٤م ميلادية ، وكانت وفاته في يوم مؤامرة لاغتيال الزعيم المصري سعد زغلول ، مما الهى الناس عن فجيعتهم فيه وهكذا كان موته مضاعفا «كمن مات يوم الحشر» كما قيل في رثائه . ولكنه وسرعان ماعاد الى الحياة النشطة المؤثرة بماترك من كتب ومقالات وظل الشباب بعد موته بخمسة عشر عاما او تزيد ، يجعلون من نثره المثل الاعلى ، ومن خياله الرومانسي الذي يزلزل القلوب ، رفيق فكرهم ووجدانهم ، ومن مثاليته العاطفية غذاء ارواحهم . ويشهد الناشرون ان كتبه كانت اكثر رواجا من طه حسين ، والعقاد ، والرافعي ، وسلامة موسى ، ولطفي السيد ، وكان هؤلاء مايزالون على قيد الحياة ثم تتابعت الأحداث الجسام ، قاسية عاتية وقويت مخالب الاستعمار وانيابه واشتدت معها حملات التفتيت للاوطان والاخلاق والمقدسات ، وجثمت الازمة الاقتصادية ، على هذا الشرق العربي المنكوب ، وتعاونت الصهيونية مع كل اعدائه والطامعين فيه حتى بات خيال المنفلوطي ، ودموعه ذات المذاق السكري ، وديباجته الوثيرة الناعمة اللامعة ، عاجزة عن اشباع نفوس تبحث عن قراءة حارة حريفة ، ملتهبة ، تدخل المعركة الرهيبة مستبسلة مستقتلة . هنا مات المنفلوطي مرة اخرى . . ومات جدا ! لكن من يدري ؟ ربما عادت آثاره يوما ما ، قريبا وبعيدا ، الى نور الحياة .

ولم يمت المنفلوطي وحده ، بل مات معه في عالم الغناء والطرب كل من ترعرعوا على طنافس الباشوات الاتراك ، وفي دخان النرجيلة ، وبين غلائل الراقصات ، وطراطير المضحكين . مات عبده الحامولي ، ومحمد عثمان ، ويوسف المنيلاوي وعبدالحي حلمي ، وماتت الظ وبمباكشر واسماء الكمسارية . وجاء عصر سيد درويش ومنيرة المهدية ، ثم عبدالوهاب وام كلثوم .

واهم من ذلك . ان يقع الموت لبعض تلك الشخصيات المؤثرة قبل ان تمتد اليهم يد الرحمة ، يد عزرائيل . فالمطربة منيرة المهدية عاشت بعد موتها الفني اكثر من ثلاثين عاما ، مقبورة في اخاديد النسيان ، يحفر عنها احيانا صحفي او اذاعي من هواة الآثار القديمة للاتحاف والاطراف . ومثلها صالح عبدالحي .

وهناك من يموتون فنيا وهم في عنفوان الشباب . فصديقنا المطرب جلال حرب كان صوتا ساحرا ، ولحنا باهرا ، ثم اخذته وظيفة حكومية ادارية في شركة المياه بالاسكندرية فلم يعد يجود بقطرة واحدة من فنه . اما المغني احمد عدوية فقد جاء عليه حين من الدهر كاد ان يكون صاحب الكلمة الاخيرة في مستقبل المغنين جميعا بقاء وفناء . كان كل شيء

في مصر قد انهزم مع هزيمة ١٩٦٧م . وفي عاصفة الذهول، والضياع، والفقر، والحسرة، والشعور بالعار، والاستسلام اليائس لكل ما سيكون، بدأ الفن والفكر ينبت الشوك والحنظل والزقوم، وكان الناس يبحثون عن اي طعم جديد، حتى طعم السم، ويقبلون على ذلك بنهم، وقد اعمتهم الكوارث، واثخنتهم جراح الحوادث. فعلا شأن البضاعة الغثة، في جميع الاسواق: في الصحافة والموسيقى والغناء والسينما والمسرح والادب والسياسة والاقتصاد، وراح الشرق العربي كله يئن مع مصر من ثقل اولئك الثقلاء، ومن المستوى الهابط الفاضح المتردي الذي وصلوا اليه ليؤسسوا امبراطوريتهم على الجهل وفساد الذوق والتفريط في كل الامكانات، وكثير من هؤلاء احياء ادرك بعضهم هذا (الموت الاحتياطي) فانتهوا، الا من جثث تتحرك على الارض لكن تفوح منهم رائحة الموت. وبعض هذه الاشباح يقوم بتمثيل ما كنانسمعه من جداتنا عن الاطلال القديمة (المسكونة) اي التي تتحرك فيها هذه الاشباح مرة كل بضع سنين، محاولة ابقاء الرعب راسخا في قلوب الاحياء. كانت جدتي ـ وقد ماتت نهائيا، رحمها الله ـ توصيني وانا طفل صغير، اذا مررت بطلل او بيت مهجور ان اقول بعد البسملة يا عمار هذا المكان، صلوا على سيد ولد عدنان ! حتى تبقى هذه الاشباح حبيسة الموت، لا تتصدى ولا تتعدى.

فهذه الاشباح الفكرية التي تزعج من موتها مسيرة الحياة، تطفو فوق نهر الحياة. فتصخب وتجلجل وتعوي، حتى اذا خدع الناس، في عجيجها وضجيجها غاصت من جديد في ظلمات الصمت والموت، ترقب فرصة اخرى، لاغتصاب مجد جديد. الشاعر الذي يقضي وقته بحثا عن اثارة، والكاتب الذي يخطط ـ مع غيره احيانا ـ لاحداث هزة تزيد من صدوع البناء وشروخه. والمسرحي او السينمائي الذي يعبد شباك التذاكر، والسياسي الدي يفتش عن فضيحة ما لفلان وفلانة من الناس، حتى ينصرف بها الراي العام عن التفكير في المواجع العامة والآلام الشاملة، التي تتغلغل في كل ثنايا هذا الجزء من العالم، اولئك لا يعودون من (الموت المؤقت) الا ليحاولوا ان يسبقونا نحن الى (الموت الابدي)، فاذا اعيتهم الحيل، عادوا امواتا مرة اخرى، في انتظار ظرف اسهل، واكثر ملاءمة لاطماعهم الابتزازية المستميتة. وليس لاولئك من دواء الا النقد البناء، الواعي، المحنك، الذي لا يتيح اية فرصة لاصطياده في شرك المهاترات، او للايقاع به في مزالق الغضب الساذج الغشوم. ومع ذلك فانني احلم بان يكون هذا النقد بعيداً عن التجهم والعبوس، جذابا، مرحا، لماحا، مبتسما، ذكيا، فهذه صفات تجعله اكثر رواجا، واقرب الى القلب والعقل. وهو اسلوب برع فيه الاوروبيون جدا، حيث يحطم الواحد منهم رأس ضحيته بلا صراخ او ضوضاء.

اذكر من هؤلاء (الفرنسي) (ريفارول)، احد نقاد السياسة في القرن الثامن عشر. كانت حملة السياسة ضد الثورة الفرنسية شديدة اللذع والحرافة والمرارة، مما عرضه لنقمتها، ففر الى المانيا لاجئا، وبقي في منفاه سنين. قال مرة عن ميرابو زعيم الزعماء في هذه الثورة.

(ان ميرابو مستعد، في سبيل مصلحته الشخصية، لعمل اي شيء، حتى العمل الصالح ان اضطر اليه).

وفي حمى الديمقراطية، والتغيير الثوري، والتقدمية مات ريفارول، اولا على يد

عزرائيل عـام ١٨٠١م، ثم على يـد الرأي العـام الفرنسي مـرارا، فهم يستخرجـونه من اكفـان النسيان كلما ارادوا ان يشـاغبوا حكـوماتهم، ثم يعيـدونه حيث كـان اذا سـارت الجمهورية على ما يرام.

وذاعت عن ريفارول خواطر شديدة الايجاز، تجري مجرى الامثال وكانت اشد فتكا، وابعـد مدى من مقـالات النقد. الطويلة الفضفـاضة وكـان بـطبعـه لا يميـل الى اطـالـة الكلام. ولكنه ذهب ذات ليلة الى ناد للادباء، رأى فيه وجوها لاتنم عن ظـرف او علم او لطافة. فبدأ يتكلم، ولم يتوقف، واستأثر لنفسه بالحديث طيلة السهرة، فقال له بعض اصدقائه: ماذا حـدث؟ لقد رحت تتكلم.. وتتكلم.. عـلى غير عـادتك! فـاجاب: مكره اخاك لا بطل! وقد تكلمت هربا من ان اسمع!.

ومن المذكورين بهذه الجمل القصيرة الواخزة الناكزة (اسكندر دوماس الكبير). حضر حفلة الافتتاح لمسرحية (هرناني) لامام الرومانسيـين على الاطـلاق فيكتور هيجـو، وكان الـرجلان المتعـاصران المتبـاغضان جـدا، لا يدع احـدهما فـرصة للنيـل من صاحبـه الا غنمها. وعند انتهاء المسرحية صاح اسكندر دوماس ببعض الملتفـين حولـه: لنخرج من هنا بسرعة، فربما فكروا في اعـادة الحلقة! وتنـاقلت باريس هـذه الجملة وسط عواصف من الضحك والسخرية.

وفيكتور هيجو نفسه، ذلك العمـلاق الجبار، ابـو الادب الفرنسي في القـرن التاسـع عشر، ومبدع الرومانسية الاوروبية، واحد كبـار روادها في الغـرب (قبل ان يصـاب بها الشرق ايضا) مات اكثر من مرة، يذهب في ظلمـات الاهمال فتبعثـه السينما في (احـدب نـوتردام) وفي (البؤسـاء)، ثم يموت مـرة اخرى، فيقيمـه النقاد المتبـرمون بـالـوجـوديـة والسريالية واللامعقول. ومثله في الموت اكثر من مرة الروسي تولستوي، والهندي تاغور، والالماني شيلر، والايطاليان دانونزيو وبيرانديلو، ومن عندنا ابو القـاسم الشابي، وطـه حسين، والمازني وغيرهم.

واما (موتى الاحياء) في ادبنا المعاصر، فانني امسك حتى عن الترحم عليهم خشيـة ان يسألني بعض الشباب: من هؤلاء؟ وخوفا من ان اطلق منهم اشباحا مؤذية تخيف الناس واكاد اقول لهم: ياعمار هذا المكان، صلوا على سيد ولد عدنان!.

حضارة من ورق

قال الاولون ان الشيء اذا زاد على حده، انقلب الى ضده، وأوضح مظهر لهذا يتجلى في اساليب الادارة، ومبلغ احتياجها الحقيقي الى الوثائق والأوراق . . والادارة حضارة، لكنها قد تصل في متطلباتها من الصحف المكتوبة، والاوراق المعتمدة، الى درجات تزاحم بها الطقوس الغيبية في بعض انواع الكهانة والسحر والشعوذة، وتجعلنا نتذكر حياة البداوة بحنين واحترام، ففي البداوة فضائل لا يمكن ان تعيش في الملفات، ولا ان تعبأ بالتوقيعات والاختام والحاسبات وآلات الكتابة والطباعة والتصوير، الكلمة الشفوية في البادية عقد والاتفاق غير المكتوب ملزم، والوعد والعهد أقوى من أية صحيفة مسطورة، أو ورقة ممهورة، لان مخافة الله في تلك المجتمعات أعمق من مخافة الشرطة والقضاء في مجتمعاتنا، لان شرف الناس معقود باطراف السنتهم، وكرامتهم في نفاذ كلمتهم، يراعون ذلك، ويرتاعون منه، بما هو أشد من القيود والشهود والعقود، وليس ذلك لان الله سبحانه وتعالى خلق البدو من طينة غير طينة الحضر، لكن لأن بعد مجتمعهم عن الاختلاط، جعل كلا منهم معروفاً للآخر، وجعل مصالحهم منوطة بالثقة وحسن الاحدوثة، وقد شرح ذلك علامة المسلمين ابن خلدون في مقدمته في أكثر من موضع، واكدته الملاحظات والتجارب التي قام بها علماء الاجتماع في العصر الحديث، وفي مقدمتهم البريطاني ادوارد وستر مارك في كتاب له يجمع بين الضخامة والعمق والطرافة، عنوانه «أصل المبادىء الاخلاقية وتطورها»، وهو يلاحظ فيه ان الجماعات البشرية التي تعيش بمعزل عن الاختلاط بعناصر غريبة تظل اكثر تمسكا بالفضائل الاساسية، من الصدق والامانة والصراحة والشجاعة، وان الفساد انما يتسرب الى الجماعات الانسانية اذا هي اضطرت الى التعامل المعقد، الذي تتشابك فيه المصالح وتتقاطع وتتناطح بين انواع مختلفة من الناس، وضرب لذلك أمثلة كثيرة منها ان أهل الموانىء الصينية يكثر فيهم الخداع والتهويش والنصب والاحتيال، بل السرقة والكذب وشهادة الزور، لانهم اخلاط من الصينيين والكوريين والفيتناميين والماليزيين

وغيرهم، لا يعرف بعضهم بعضاً الا للاستثمار والاستغلال، بينما الفلاح الصيني في داخل البلاد مايزال نقياً، بعيداً عن هذه العيوب.

والأمر نفسه ملاحظ على الساحل الافريقي، حيث يرجع الانحلال الخلقي الى كثرة العناصر البشرية المختلفة، في حين تبقى الغابة الافريقية الداخلية بريئة من تلك الرذائل، باستثناء القواعد التي اختارها الاستعمار الابيض مستقرا ومنطلقا، فتفشى فيها الزنا والسكر والسرقة والقتل، وهي كما نرى ظاهرة خطيرة جدا، وضريبة باهظة تدفعها الامم النامية ثمنا للحضارة، وفي رأيي ان البحث في هذا الامر، في عالمنا العربي والاسلامي، قد غدا ضرورة ملحة، من أجل قياس الابعاد التي يمتد اليها الدمار الاخلاقي بسبب كثرة العناصر الوافدة، وهبوط مستوى الاصالة في مجتمعاتنا.

ومع الحضارة، وضعف ثقة الناس بعضهم ببعض، يصبح الاعتماد على الذمة والشرف والكلمة سذاجة ومغامرة سيئة العاقبة، ومن هنا أمست الحاجة الى الادارة، الادارة التي تعول على الورق، ولا تتعامل الا به: وهو احتياط ضروري على شرط الا يجاوز حده، لكن تجاوز الحد في الاجراءات الادارية امر لا تنجو منه أمة من الامم، مهما بلغت من تقدم، وفي الادب المسرحي في العالم كله موضوع يستحق الدراسة، هو نقد الاجراءات الادارية المتجاوزة للحد، فالكاتب الفرنسي الساخر جورج كورتلين مثلاً اشتهر بمسرحية فكاهية اسمها «السادة ذوي الوسائد الجلدية المستديرة» وهم الموظفون الاداريون الذين يشترون هذه الوسائد ليضعوها على كراسيهم، ليجلسوا مستريحين امام مكاتبهم، لاهم لهم الا ابتكار العقد، والمبالغة في المطالب الورقية، احيانا للتخلص من المراجعين، وتأجيل النظر في مطالبهم، او لإحالتهم الى وسادة جلدية مستديرة اخرى، تتكفل بجزء طويل من مسيرة المعاملة الصغيرة في الدواوين والمؤسسات، فاذا ما تركنا الادب الى الرسم، وجدنا من تخصصوا في السخرية من الموظف الاداري، وصب نقمتهم عليه، وهو في الواقع مظلوم اذا اخذناه وحده، لانه لا يتحرك الا مع الآلة الادارية كلها، وكان المفروض في الآلة الادارية انها وحش يعيش على طحن هموم البشر والتهامها واراحتهم منها، ولكنه ـ وقانا الله السوء ـ اذا شاخ وترهل وضعف اكتفى بأكل الورق والهرب من هموم الناس.

وفي كل بلاد العالم المتقدمة، والنامية، ترتفع الصيحات بإصلاح الادارة، ثم يسفر ذلك عن مزيد من الورق والمكاتب، ووسائد الجلد المستديرة، بينما الاصلاح الحق هو في التبسيط وحذف الزوائد التي تنمو مع الزمن فتصبح جزءا لا يتجزأ من الادارة، وكم من مرة وصل فيها السخط على التعقيد الاداري الى درجة استغلتها المعارضة، أو حتى جهات متآمرة طامعة من الخارج، في اثارة القلاقل على الجهاز السياسي الحاكم، وانتهى الامر احيانا الى ان دفع هذا الجهاز السياسي كفارة اخطاء الجهاز الاداري، وبقي هذا الاخير على وسائده الجلدية المستديرة يضحك هازئاً مما حدث.

والاداري من هذا النوع انسان موسوس لابد له بدل الورقة من اثنتين أو ثلاث، مصحوبة بصور، وفي موضع التوقيع توقيعات، وفي مكان التاريخ تواريخ، وفي محل

الصادر والوارد ارقام ورموز وحروف من الابجدية لا حصر لها، وفي بعض الاحيان لا يكون تبسيط هذه الاجراءات الا بثمن باهظ، سماه ديننا الاسلامي بصرامة وصراحة «الرشوة» وجعلها جريمة من أقسى الجرائم .

ذات مرة كنت من شهود بعض هذا التعقيد، في واقعة تغني بسخاء عن مسرحية خيالية .

كان الشاب ـ واسمه عامر ـ قد انهى دراسته الثانوية بنجاح وتفوق، في بلدة على اطراف الصحراء الغربية في مصر، وكان ابوه امام مسجد البلدة، وهو رجل صالح درس العلوم الاسلامية في الازهر، وطلب تعيينه بين أهله وعشيرته، فكان له ما أراد. ونشأ ابنه عامر غلاماً صالحاً مستقيماً، وبعد الثانوية العامة حصل على قبول في كلية الحقوق والشريعة والقانون في الجامعة، وكان في بلدته الصغيرة النائمة على حواشي القفر يحلم بالنور والعلم والحضارة، في المدينة العظيمة الآهلة الحافلة، متى يبدأ العام الدراسي؟ متى ينصت الى محاضرات الاساتذة، الدكاترة، الذين نهلوا من العلم في الازهر وفي السوربون بباريس، وفي أرقى جامعات اوروبا وامريكا ؟ اتراهم يعيشون كما يعيش هو وأبوه ؟ ويتكلمون بنفس اللغة ؟ والمدينة الشامخة نفسها ؟ لقد سمع ان فيها مئات المساجد الفاخرة، التي اصغرها اعظم من مسجد ابيه مائة مرة .

وذهب عامر الى المدينة، وخطا الخطوة الأولى عبر باب الكلية، ثم راح يتجول في الشوارع الفخمة، وينظر الى العمائر الشاهقة، ويبحث عن مسكن يؤويه فلا يجد، وصدفة رأى شاباً كان من زملائه في المدرسة الثانوية، وحكى له مشكلته، فقال له صاحبه ان الحصول على مسكن رخيص في هذه المدينة من المستحيلات، وانه اتفق مع خمسة من زملائه على استئجار شقة يسكنونها، كل اثنين في حجرة، ولكن أحد الزملاء وجد له قريباً يؤويه فتركهم، وهكذا بقي مكان يستطيع عامر ان يأخذه، وحمد الشاب الله على توفيقه، وذهب مع صاحبه للسكنى في الشقة وحلا له طعم الحياة، واطمأن الى مالابد منه ليصبح من ابناء الجامعة ومن أهل هذه المدينة المتحضرة الزاهرة، وازداد حبه للشقة التي أوى اليها، لوجود مسجد جميل بالقرب منها، يذهب اليه لاداء الفريضة، ولكن خالجه وسواس في أمر ما ، وهو نازل لصلاة الفجر في يوم من الايام، فهناك شقة مجاورة كانت ابوابها مفتوحة، يخرج منها رجال شكلهم ابعد ما يكون عن الذهاب لصلاة الفجر، بعضهم يهذي ويترنح، وبعضهم يودع النساء في الشقة بما يندى له وجه الحياء، فترد أحداهن بضحكة ماجنة بهيمية، ولم يفهم عامر في البداية ما الموضوع، فهو في بلدته لم يسمع بوجود شيء اسمه السكر، ولاتصور ان المدينة العتيدة، حيث كل هذه المساجد والكليات والمعاهد، يمكن ان تكون فيها مواخير ! ويوما بعد يوم تكشفت له الحقيقة سافرة عن تلك البقع السوداء التي تشوه وجه مدينته المثالية، التي ظل شهوراً طويلة يحلم بها في بلدته، في احضان الصحراء، يا للهول ! لم يطق الفتى البريء هذه الصدمة الرهيبة، وأصيب بالجنون، ونقل الى مصحة الامراض العقلية والعصبية .

بقي هناك سنتين، يعالج بشتى الاساليب، الى ان استرد عقله، وعاد الى المدينة القاسية، متجها لتوه الى كلية الحقوق لإعادة قيده، ومعه شهادة من المصحة .

نظر الاداري اليه، وطلب منه ما يثبت شخصيته فاخرج له البطاقة الخاصة، وبطاقة القيد القديم بالكلية، والاشتراك القديم في خطوط النقل العام بالمدينة، الذي كان يذهب به الى الجامعة، والكفالة الابوية المعتمدة، أما الموظف فقد تناول دفترا طويلا عريضا وراح يفتش فيه :

عامر . . عامر . . عامر جمال الدين البحيري . . ها هو ذا ! آسف يا عامر . . انت مفصول نهائياً من الكلية لتغيبك عامين بدون عذر . . مع السلامة .

- بدون عذر؟ . . لقد كنت في مستشفى المجانين يا سيدي، ولم اخرج الا اليوم .
- لماذا لم تبلغنا قبل ان تذهب . . او لماذا لم تطلب من الادارة الصحية بالجامعة الاشراف على ذلك .
- يا استاذ أنا كنت مجنون . . مجنون لا اعي شيئاً حتى ابي واخوتي لا اعرفهم .

هذا شيء يرثى له . . لكنها القوانين واللوائح والتعليمات ! عندك ما يثبت ؟

وأشار عامر الى شهادة المستشفى، فأخذها صاحبنا وتأمل الخاتم الحكومي عليها اولا ثم قرأ بصوت بين القراءة والتمثيل والغناء، وبين الجهر والهمس : تشهد مصحة الامراض العقلية والعصبية ان عامر جمال الدين البحيري كان نزيلا بها من تاريخ كذا الى تاريخ كذا، واعطيت له هذه الشهادة بناء على طلبه .

والتوقيع : المعاون الاداري لمصحة الامراض العقلية والعصبية .

ومط الموظف الاداري بالكلية شفتيه باشمئزاز وقال : هذه الشهادة غير قانونية !

فسأله عامر : نزيل في مصحة امراض عقلية، وليس في فندق يا أستاذ ! وهز الاداري رأسه وقال : ادري . . لكن لا استطيع ان افعل شيئاً . . اذهب الى عميد الكلية . . وأسرع عامر الى مكتب العميد، وبعد ان ملأ ورقة بطلب المقابلة، ارفق بها كل ما معه من أوراق، جاءه الاذن بمقابلة العميد، فدخل والقى التحية وشرح قصته، فاقترح عليه العميد ان يراجع مصحة الامراض العقلية للحصول على تقرير من طبيب، فاندفع عامر يقول للعميد، ببراءة شديدة جداً : هل دخلت مرة مصحة الامراض العقلية؟ وابتسم العميد وهو يقول : الحمد لله، لا ! وتمتم عامر : لا مؤاخذة، ان الداخل الى هذا المكان مفقود، والمعاون الاداري له مكتب بجوار الباب، ومن بعده باب من الحديد المصمت من دخله فالله وحده أعلم متى يخرج، وهم على كل حال لن يسمحوا لي بمقابلة أحد .

وتناول العميد الهاتف واتصل بكبير اطباء المصحة، فقال الطبيب : مستحيل يا سعادة العميد ! مستحيل! اولا، الاجراءات الادارية عندي تمنع اصدار تقرير طبي بتوقيعي الا بناءً على طلب النيابة او القضاء او الطب الشرعي، لما قد يترتب على هذا التقرير من حجر على الممتلكات، او تطليق زوجات، او اهدار لعقود مبرمة، او اعادة النظر في جرائم وقعت، ونحو ذلك، ثم ان كلمة (مجنون) لا توجد في المعجم الطبي للامراض العقلية والعصبية، وهناك مصطلحات اخرى بعضها يمكن فهمه، وبعضها الآخر خاص جداً، وهذا المعجم يحتوي على اسماء ألف مرض عصبي وعقلي، أنا وأنت، يا سعادة العميد، مصابان بعشرات منها، لكنها تعتبر حالات توعك بسيط لا خطورة منها، أما الذهول، والمانخوليا، والشيزوفرينيا، والسادية، المازوشية، والهلوسة، وازدواج الشخصية، والهوس التاريخي او الجنسي او

الفني، والافكار الثابتة، فهذه امراض عصبية وعقلية، بعضها يعتبر مبررا للاجازة المرضية، دون بعضها الآخر.

- حسن يا دكتور، فبماذا تشير؟ واشار الطبيب بعرض عامر على المجلس الطبي الاعلى.

وفي هذه الاثناء كان ملف الموضوع يزداد سمكاً ثم يعزز بملف ثان وثالث، الى ان وصلنا الى الطبيب المكلف بفحص حالة عامر، من قبل المجلس الطبي الاعلى، وكنت مرافقاً للشاب فالقى الطبيب نظرة على الاوراق الكثيرة، ثم هز رأسه وضحك قائلاً: هذه المشكلة خطيرة!

وقلت مستفسراً: خير يادكتور! قال هم يطلبون مني تقريراً فنياً يثبت هل عامر عاقل او مجنون؟ فاذا قلت: عاقل، تأكد فصله من الكلية، وان قلت مجنون: اعادوه الى مصحة الامراض العقلية! مصيبة هذه! لكن عندي حل، انت دكتور في الآداب وما عليك الا ان تملي علي تقريرا يكون (بين بين)، يعني ان الشاب خارج من مرض عصبي شديد، يتماثل للشفاء منه ويمكنه استئناف دراسته، على ان تعامله الكلية بما ينبغي لحالته من رفق.. الخ.. الخ، وامليت هذه الورقة الحاسمة.

تخرج عامر في الكلية، واصبح محامياً يشار اليه بالبنان، وكلما التقينا قال في حيرة، مازلت لا أفهم كيف جننت بسبب شرذمة من المنحرفين والمنحرفات، بينما الموظف الاداري بالكلية لم يصبني بالجنون؟ فأرد ضاحكاً: من يدري؟ ربما اصابه هو الجنون، بسبب خدمته لهذا الغول الذي نسميه الادارة، والذي غذاؤه الورق وحده.

ويضيف عامر قائلاً: لو رأيت متطلبات الادارة في ميدان المعاملات القضائية لعرفت ان وصفك بلفظة (الغول) للمتطلبات الادارية متواضع جداً، ان عندي في مكتبي ثلاثة يكتبون على الآلة، واثنين من السعاة لاستيفاء الاجراءات، كل هذا لأذهب الى المحكمة مرة او اثنتين في الاسبوع، فلا ارتطم بتأجيل قضية لنقص بعض الاوراق او التوقيعات او الاختام، انها حضارة من ورق، وربما استطاع بعض المفكرين ان ينقذونا من شرها.

كيمياء الاحقاد

كانت اسرائيل الصهيونية تحتفل، منذ ايام، بالعيد الخامس والثلاثين لقيامها في فلسطين بتفويض وتحريض من الدول العظمى ذات حق النقض في هيئة الامم المتحدة، وفي مقدمتها امريكا وروسيا. وفي هذه المناسبة حرص الدكتاتور القميء مناحيم بيجن، على ان يضيف للوحة (الامجاد) اليهودية في الوطن العربي قطعة فريدة هي من الاتفاق اللبناني الاسرائيلي، ولم يكن هدفه في ذلك مزيدا من الاذلال للامة العربية فحسب، . بل كان ـ وهو المنقوع في التلمود الى نخاع عظامه ـ يريد ان يلقي على قومه درسا للمستقبل، هو ان العرب موجودون في المنطقة ليتنازعوا فيفشلوا وتذهب ريحهم. وان الاوان قد آن لترث اسرائيل الارض ومن عليها، يفرك يديه هازئا. وكأنه يقول لجماعته: أرأيتم. . صبرا، وشاتيلا، وعين الحلوة، وانصار. . وقبلها تلميذات نابلس وشيوخ القدس والخليل، ورهبان اورشليم وبيت لحم والناصرة. . وبحر البقر باطفاله المصريين. . الى ما وراء ذلك من دير ياسين وكفر قاسم وغزة والطيبة. ماذا فعل العرب؟ لا شيء الا الصياح والكلام! ويواصل الدكتاتور الصهيوني القميء درسه. وكأنه يقول: ايتها الآذان الصهيونية! لا تصغي للصراخ، ولا تقيمي وزنا للكلام، واستمزي في الاغتصاب والاحتلال، والسلب والنهب، والذبح والقتل، والتهديد والارهاب، فلن يتعرض لك احد، وهذه لك فرصة تاريخية لن تتكرر، تبنين فيها لك امبراطورية محترمة، على انقاض العرب واشلائهم.

كان الاتفاق الصهيوني اللبناني اذن، بتوقيته هذا، عصارة من الحقد تشربها اسرائيل نخب ثغرة جديدة فتحتها في الحصن العربي. . لها ما بعدها وهذه الكأس المسكرة من خصائصها انها ـ وذلك من رحمة الله ـ تعمي المنتشي بها، فلا يعود يرى حتى الامس القريب، ولولا ذلك لتذكر شاربها القولة المشهورة: لقد عدنا يا صلاح الدين! وهي عبارة رواها الشهود عن الجنرال الفرنسي غورو، عند دخوله دمشق في

أواخر الحرب العالمية الاولى، وكذلك عن الجنرال البريطاني اللنبي، وهو يتقدم نحو المسجد الاقصى في قلب مدينة القدس، ثم وهو ينظر الى اللوحة الحجرية المثبتة فوق محراب هذا الحرم الشريف، تحمل نقشا عربيا يقول: امر بعمارة هذا المسجد المبارك، بعد ان اخرجه الله من يد الكفر الى حوزة الايمان، عبدالله صلاح الدين يوسف بن ايوب. وكأن الجنرالين، غورو الفرنسي، واللنبي البريطاني، ارادا، بعد اكثر من سبعمائة عام، ان يعلنا شماتتهما بصلاح الدين واشباع الحقد الصليبي القديم. ثم دار الزمن دورته، وانتفضت الامة العربية انتفاضة بطولة جديدة، زلزلت بها الارض تحت اقدام المستعمرين، ونالت استقلالها، واصبح غورو واللنبي هما ايضا من اساطير الاولين، لو فكر دكتاتور اسرائيل الدموي الحقير في ذلك - لوجد - ربما - ان الحكمة تقتضي بالا يسرف في اطماعه، والا يستمرىء الدم العربي على الارض العربية، وهو يعلم يقينا انه هو وقومه وكيانه تحت رحمة انتفاضة واحدة وكل ما جاد به خياله حتى الآن هو ان يقطع اوصال الجسم العربي حتى لا يتمكن من تلك الانتفاضة، ولو انه خرج من دائرة معلوماته التلمودية، ومن تسليمه الاعمى بها، لادرك انه لا الصليبيون قديما، ولا المستعمرون الغربيون حديثا، استطاعوا منع هذه الانتفاضة، واذكر - ونحن صبية صغار - المظاهرات في مصر والعراق والسودان، تحت سمع الانجليز وبصرهم ومدافعهم وبنادقهم، تأييدا لاخواننا السوريين او اللبنانيين او المغاربة ضد الغطرسة الاستعمارية الفرنسية، كما اذكر المقاتلين السوريين والمغاربة، والعراقيين الذين كانوا ينطلقون من الجامع الازهر بالقاهرة، يواجهون الى جانب اخوانهم المصريين رصاص الانجليز في سبيل استقلال مصر، في تلك الايام التي تبدو الآن وكأنها اسطورية كنا نعلم جميعا ان الطعنة في مصر ينزف دمها في بغداد ودمشق وعمان وفاس والخرطوم، وان الظلم في طرابلس او الجزائر يستنفر المقاومة في القاهرة والكويت والرياض وبيروت ثم تم (تسييس) اكثر هذه الشعوب، ونشرت القوى العظمى اجنحتها، ليستظل هؤلاء (المسيسون) بها. ولان هذه الاجنحة تطوي هذه الفراخ السياسية الغضة لالتهامها لا لحمايتها، ولان هذه الاجنحة لجوارح من الطير متعادية متنافرة، فان تلك الفراخ، التي هي نحن، اعزكم الله! تبالغ في الالتصاق حيث رمتها المقادير، ولا يستفيد من ذلك الا الخفاش الصهيوني، الذي يجيد مص الدماء، والسعي في الظلام، ومع ذلك فان العدل الالهي الاعلى يأبى ان تسير الامور عكس نواميس الكون. وهكذا فكلما امتدت اسرائيل شرقا وغربا، وملأت المنطقة خرابا ورعبا، وجدت نفسها في حال اسوأ مما كانت عليه من قبل، تستجدي الطعام والكساء، وتكاليف المعارك، وتستجدي التأييد السياسي الدولي، ثم تتوسع كل يوم في نظمها البوليسية، وتهدد مخابراتها كل من تحدثه نفسه بالخروج عن طاعة حزب ليكود الحاكم بكتم الانفاس، والالقاء في السجون، والحرمان من الخدمات، والاغتيال ان استلزم الامر ذلك، واصبح جواسيس (الموساد) وهي المخابرات الصهيونية، شبحا مخيفا للعرب واليهود جميعا في اسرائيل، ولهم مندوبون في الطائرات الذاهبة الى تل ابيب او المغادرة لها،

تبرر الحكومة وجودهم بضرورات الامن، والتدخل في حالات العنف او خطف الطائرات، وعليهم واجبات اخرى غير معلنة، منها مراقبة الركاب وما يقولون في السياسة، والتبليغ عن كل من يعلن معارضة اشد من القدر المسموح به، لسلوك مناحم بيجن وحكومته، وكذلك كل من ينقد الاوضاع الاقتصادية في اسرائيل.
ويبدو ان الموساد ـ الى جانب من فيه من (العباقرة) ـ يضم نسبة من التيوس والحمير ايضا، كل مؤهلاتهم انهم يعبدون مناحم بيجن من دون الله. وينفذون شريعة حكومته ولو حرمت ذلك شريعة موسى عليه السلام، قال الراوي: وبلغ من غباوة احدهم وتعصبه لرئيسه الدكتاتور القمىء انه سمع المضيفة الجوية تعلن في الطائرة: سوف نهبط الآن في مطار بن غوريون الدولي في اسرائيل، فلا تنسوا ـ سيداتي سادتي ـ ان تشدوا الأحزمة وعند سلم الطائرة القى هذا (الموساد) القبض على المضيفة بتهمة انها تنشر دعاية سيئة عن الجوع في اسرائيل، وتطلب من الركاب شد الاحزمة ! ومثل هذا الموساد المسيس شديد الخطر في كيان هش مثل اسرائيل، فهو يتحرك من خلال ما لا يحصى من عقد الحقد القديم، وهو لا يتردد في سفك الدم ـ وقد رأينا ذلك كثيرا ـ لا يردد الا جملة بلهاء واحدة تعلمها من رئيسه الدكتاتور القمىء، وهي: الأمن الإسرائيلي، وهي التي تكررت الى درجة مملة جدا في الاتفاقية الصهيونية اللبنانية وما صاحبها من شروح ومذكرات وملاحق، وذكرتني هذه النكتة الساخرة باشباه كثيرة لها تروى في كل المجتمعات الموجهة سياسيا على حد التعبير الحديث، منها قصة ذلك الرجل المسكين الذي قبضت عليه المخابرات في دولة عقائدية وهو جالس في مقهى يقول عن رئيس حزبها الحاكم انه خنزير ولما قدم للمحاكمة نام القاضي اثناء المرافعة الطويلة الحارة التي القاها المحامي دفاعا عنه، ثم استيقظ ليحكم على المتهم بالسجن المؤبد! فصعق المحامي وصاح: يا سيدي القاضي ! ان جريمة السب العلني ـ حتى بحق رئيس الحزب الحاكم ـ اقصى عقوباتها الحبس سنة فقط، فرد القاضي قائلا: ان المحكمة لم تعتبر وصف المتهم لزعيمنا بانه خنزير سبا علنيا، وانما اعتبرته افشاء لسر من اسرار الدولة!

وانا عندما وصفت مناحيم بيجن بانه دكتاتور قمىء لم اهدف ـ واعوذ بالله من ذلك ـ الى السب العلني، بل كنت افشي سرا من اسرار الدولة الصهيونية، ولم يعد بعد سرا الآن فالرجل، في سلسلة من تعديل القوانين، ودوائر الانتخابات، وشروط العضوية في المؤسسات القومية، قد انتهي بتكميم الافواه، والاكتفاء بمعارضة ظريفة خفيفة لطيفة، تكفي فقط للابقاء على لفظة الديمقراطية لاستعمالها في الخداع والتهويش خارج اسرائيل، اما في الداخل فهو يحكم بالمخابرات وباعوان خبراء في احتواء الرأي العام، وتوجيهه في قنوات محددة، بعضها محفور في مخاوف ومحاذير شعارها الامن الاسرائيلي، واخرى في (انتصارات) تثير الاطماع الاستعمارية، والصلف العنصري، والدروشة الدينية، وثالثة يفتعل فيها خلافات مع احدى دول الشرق او الغرب، ولو كان ذلك بعمل ارهابي مخطط ينفذه في تلك الدولة، او بتهديد بشيء من ذلك يأتي في محاولة هاتفية منسوبة الى تنظيم سري عربي او

اوروبي، قد يكون موجودا وقد لا يكون، ثم آخرا وليس آخر بهموم اقتصادية تحول المحكمين الى مجتمع للسخرة والعبودية وعدم التفكير الا في ا داء الضرائب الفادحة التي تشغل البال باكثر واشد هؤلاء من كل الهموم الاخرى في الحياة، وهذا بطبيعة الحال بعد ان سلب رئيس الدولة الصهيونية في التشريعات الجديدة، جميع السلطات وكل الصلاحيات .

ليس بالصدفة اذن ان يأتي توقيع الاتفاق اللبناني الصهيوني (تتويجا) للعيد الخامس والثلاثين لاعلان الدولة الصهيونية، وان يتم هذا التوقيع في قلب العاصمة العربية الكبيرة بيروت، وفي فندق دمرته قوات الغزو اليهودية بمدافعها وطائراتها وعلى مرمى حجر من صبرا وشاتيلا، ووسط احتياط امني عسكري صهيوني تتولاه القوات الغازية بمدافعها ودباباتها، وكل هذا المنظر الكريه كما نرى انما ينبع من حقد دفين ليس على بيروت، بل على الوطن العربي كله مرموزا اليه ببيروت، بينما صاحبنا الدكتاتور القميء يفرك يديه تشفيا وشماتة واستعدادا لوثبة عدوانية جديدة، يزعم انها مفروضة عليه في منطقة البقاع بسبب الوجود السوري الفلسطيني فيها، وقد نرى - وادعو الله ان يخيب ظني - ان منطقة البقاع لن تكون الا ميدان مناوشات لجر الجزء الاكبر من القوات العربية اليه، ثم تقع الوثبة في مكان آخر، بمذابح اخرى، واحقاد جديدة، ووسائل مبتكرة لمزيد من الارهاب والاذلال، لان منهج الدكتاتور القميء يرتكز اساسا على بث الرعب، وتصديع الثقة بالنفس وبالمستقبل عند العرب، وعلى جاهلية كافرة طاغية متعطشة للدماء عند اليهود. . وليس كل هذا طبعا بطريق الى السلام في الشرق الاوسط، لان الحقد - بكل بساطة - ليس طريقا للسلام، وقديما قال الشاعر العربي :

كل العداوات قد ترجى افاقتها
الا عداوة من عاداك عن حسد

وفي تحليل (كيمياء الحقد) قال العلماء انه يبدأ سخطا وغضبا، ثم يبرد دون ان ينفجر، ثم يزمن، ويبقى كامنا تحت ضغط هائل في اعمال النفس، ثم يتحول الى قوة مخنوقة، تشق لها منطلقا عشوائيا، ولو انصبت حممها ونيرانها على ابرياء، وكم من مرة رأينا رجالا ساقتهم المقادير الى التعامل مع بعض شرار النساء، وقصرت قواهم عن تصفية الحساب بصورة عادلة مع اولئك النسوة المعتديات، فاذا هم قد انقلبوا اعداء للمرأة عموما وبلا تمييز يضطهدونها لمجرد انها انثى. والعكس ايضا صحيح، المرأة التي قضت ظروف خاصة بها الا تجد فارس احلامها، والمرأة التي جاء حظها من الاغراء تحت الحد الادنى الذي يمكن به ان تتزوج، والمرأة التي تزوجت لكن بعريس لا يكيد العدو، ولا يغبطها عليه احد. . كل اولئك ينقلبن الى الكراهية، كراهية الرجال، وكراهية النساء السعيدات في زواجهن وبين اولادهن ايضا. وتزمن تلك الكراهية حتى تصبح سما قاتلا، وعنفا مدمرا، وسعيا بالفساد، ورميا للمحصنات. هؤلاء هن اللائي كيدهن عظيم حتى بالمقارنة بكيد الشيطان، ان كيد الشيطان كان ضعيفا .

بهذه السموم المتحوصلة في نفس الدكتاتور القمىء، وبهذا المرض العضال المزمن، مرض الحقد، وجد صاحبنا نفسه على رأس اليهود في فلسطين، بعد ان ظل ثلاثين عاما يهيم على هامش الصهيونية، يخشاه مفكروها، ويرون فيه شبحا كريها يهددها بالانهيار، وقد كانوا على حق، مهما ظهرت ضرباته في العالم العربي حتى الآن طنانة رنانة بطولية ولنتذكر انه في اوائل القرن الماضي، اي منذ مائة وخمسين سنة، قام القائد الفرنسي الدوق دومال باحتلال الجزائر، ووقتها ظن هو وقومه انهم وجدوا حليفا في شخص المحامي اليهودي الفرنسي (ادولف كريميه)، ووصل هذا الحاقد القديم الى عضوية البرلمان بباريس، والى تولي وزارة العدل في فرنسا، فاصبحت على يديه وزارة الجور والظلم، اذ اصدر اول قانون في فرنسا للتفرقة العنصرية، لايزال يحمل اسمه الى اليوم، وفيه يعتبر المسلمين في الجزائر عنصرا دون المستعمر الفرنسي، وجعل يهود الجزائر، وهم مئات الآلاف من ابناء الذين نزحوا مع المسلمين من الاندلس هربا من محاكم التفتيش، والمذابح التي اجتاحت المسلمين واليهود هناك على يد فرديناند الاول وزوجته ايزابيلا، جعل كريميه هؤلاء اليهود من طائفة المستعمرين الفرنسيين، لا من السكان الاصليين العرب المسلمين. وعلى الرغم من المعارضة الشديدة التي لقيها حتى من قادة جيش الاحتلال الفرنسيين، فان احقاده على المسلمين استحكمت، وتم تنفيذها، والمسلمون لم يرتكبوا بحقه شيئا، ولكنهم كانوا امامه العنصر الضعيف المهزوم الذليل المغلوب على امره، فافرغ فيهم كل طاقته من الحقد اليهودي على الجنس البشري كله، وازدهر يهود الجزائر - الذين اصبحوا فرنسيين - وتضاعفت اعدادهم، وبنوا القصور والمتاجر والمصانع والمصارف، واقتنوا الضياع والبساتين والاراضي، واستعملوا المسلمين خدما لهم، بلقمة الخبز الحاف، وبالمهانة وضرب السياط، ولكن انتفضت الجزائر، وحطمت سلاسل كريميه، ومعها اغلال الاستعمار كله، في حرب ضد فرنسا دامت اكثر من ثماني سنوات، لسبب واحد وهو ان فرنسا كانت تعلم ان استقلال الجزائر معناه - في نفس اليوم - هجرة ثلاثة ارباع المليون من اليهود المتمتعين بالجنسية الفرنسية - وغير الملتزمين بالولاء لفرنسا - الى بارس، وقد تمت الهجرة الموعودة، الا جزءا صغيرا هاجر الى اسرائيل، وهؤلاء «المواطنون» يسببون في فرنسا متاعب اقتصادية واجتماعية لا حصر لها، اما كريميه فانه بعد هذه الضربة الاولى، اسس الاتحاد الاسرائيلي العالمي، ومقره في باريس حتى يومنا هذا، وبفضل هذا الاتحاد اسس في فلسطين اول مستوطنة زراعية يهودية استعمارية، قبل هرتسل، وصهيونيته العالمية، بنصف قرن من الزمان، ليتذكر الدكتاتور القمىء، ان النفوذ اليهودي المستظل بالراية الفرنسية في الجزائر قد انهار، وان النفوذ اليهودي المستظل بالراية الامريكية في منطقتنا سينهار ايضا .

الحقيقة المكشوفة والأباطيل الملفوفة

رمز الحقيقة عند أرباب الفنون الجميلة، فتاة رائعة الحسن، تخرج من أعماق بئر بعيدة الغور، عارية تماماً، إلا مما افاضه عليها الخالق من جمال، لا تشوبه شائبة من اغراء. بل إن المبدعين من أهل الفن يضعون عليها النقاء والطهر والبراءة، بحيث لا يشعر الناظر إلى الرسم أنها تنظر اليه، او تبتسم له، او تعرض مفاتنها عليه. لا! فهي دائما مشغولة عن عالم الغزل والشهوة بشيء آخر.. شيء غامض يكاد لا يدرك، على الرغم من انها لا تخفي شيئا، ولا تكتم سراً ولا تستر أمراً، وأذكر أنني استعملت هذا الرمز في مقطع مما ألهو به من شعر، أكتبه أحياناً للعبث بالوقت وبالنفس. وكانت المناسبة ـ في ذلك الوقت ـ أنني كنت أنصت، من الاذاعة، إلى خطبة حماسية نارية جهنمية عنترية عرمرمية، يلقيها أحد الزعماء العرب ـ رحمه الله ـ وكنت وأنا أستمع إليه قد صدقته، وتأثرت بما يقول، ثم فكرت في اليوم التالي فيما سمعته منه، بعد أن بردت الحرارة. وسقطت الشظايا الساخنة المتطايرة مع نبراته، واستقرت على أرضية العقل، ورحت أتساءل عن الحقيقة. وإذا بأفكاري أنا تتفرق شذر مذر ـ كما يقول الفصحاء من العرب، وإذا بي أنزل في ظلمات الآبار السياسية، والادبية، والفلسفية، فلا أرى من الحقيقة أثراً، ولا أجد نفسي إلا في غيابة جب من الحيرة، والتخبط، والشك. ومن سماعي للخطبة العصماء إلى اندحاري في ليل الضياع هذا قلت:

وهنا صفق قلبي
وتجلى النور لي من كل درب
والتقت روحي بجسمي، بعد غربة
بعد تيه دائم، من ألف حقبة
خاضه الآباء والأبناء أفواجاً تباعاً

أمماً تمضي ضياعاً
تحت نار السوط كم كدوا . . وهاموا
وعلى الحيف . . على السيف . . على الزيف أقاموا
أي ذل! . . أي ظلم! . .
والتقت روحي بجسمي
عدت انساناً سوياً
أعرف اسمي
صرت شيئاً . . .
وبعثت اليوم حياً

● ● ●

بل لعلي الآن أحلم
أن في الأرض فصيحاً يتكلم
ومسيحاً كفه برء وبلسم
لست أعلم ! . .

● ● ●

أو لعل الوهم في رأسي مع الليل تخمر
وعلا . . ثم غلى . . ثم تبخر . .
ثم صور . .
بعض أشباح الأساطير السحيقة
فتخيلت الخرافات حقيقة
طلعت من قاع بئر
لست أدري! . .

● ● ●

واسأل نفسي الآن: اذا كانت الحقيقة عارية، فلماذا تصعب رؤيتها على الانسان؟ ويسعفني الشاعر البريطاني ت. س. اليوت ببداية ما يمكن ان يكون اجابة عن سؤالي، حيث يقول: إن البشر لا يقوون على تحمل الحقيقة كثيراً. واستمر في التفكير: ولماذا لا يتحملونها؟ ربما لانها عارية، والعري عورة، تستفز غيرتهم على الحشمة والوقار، فهم لذلك أكثر اطمئناناً الى الأباطيل الملفوفة، منهم الى الحقيقة المكشوفة. ومرت بخاطري ذكريات بعيدة، إذ كنت ذات يوم اجوب الجبال والوديان في شمال العراق. وسمعت بطائفة اليزيدية، عبدة الشيطان كما يقول الناس عنهم. وقررت ـ حباً في المعرفة ـ ان ازور قرية من قراهم، اسمها (بحزاني). ووجدت لديهم صنماً على شكل الطاووس، يقدمون بين يديه ألواناً من طقوس التقديس. كان هذا الطاووس من الذهب، ملفوفاً في ريشه الفاخر المحلى بالنقوش، المرصع بالجواهر. وتخيلته طائراً مذبوحاً منتوف الريش. ماذا يبقى منه؟ . . جسم صغير نحيل ركيك، أقل من واحد من عوام الفراريج وسألت اليزيدي الذي يرافقني: لماذا

الطاووس؟ . . وفي نبرات فيها اعتزاز بالعلم ـ او ما يظنه كذلك ـ قال: لان (صاحبنا)، وهو يعني إبليس، والنطق بهذا اللفظ، وبلفظ الشيطان محرم عندهم، كان صاحبنا طاووس الملائكة قبل ان يحدث له ما حدث عندما أبى السجود لآدم. وقلت في نفسي: وعندما حدث ذلك أظهره خالقه على حقيقته، طريداً، رجيماً، ملعوناً.

وبعبارة اخرى: جرده من طاووسيته، وعراه، وكشف عن حقيقته، فلماذا يبقيه اولئك المساكين ملفوفاً، رائشا، نافشاً؟ . . وتكررت عبارة اليوت: لان البشر لا يطيقون لحقيقة. وتوالت امام ذاكرتي مواكب من طواويس البشر: ادباء، شعراء، كتاب، زعماء، رجال أعمال واموال، وربات فن وجمال، ماذا يبقى منهم، لو ان قوة سحرية نفضت عنهم هذا الريش الغزير المزركش المبرقش؟ . . آه! ما امر الحقيقة! . وما اشدها هولا! . وما ازهد الناس فيها! . . ويطالعني شاعر بريطاني آخر (هوسمان) بقوله:

طالما تعذب لب الانسان، وسيستمر عذابه، كلما فكر في أن اثنين واثنين حاصلهما اربعة، لا خمسة، ولا ثلاثة! . . فهذا الشاعر يرى ان الحقيقة ـ مهما كانت صغيرة ومتكررة ـ عذاب لمن يتأملها، فما بالك بالحقيقة المرة، عندما يرى الانسان ضعفه وعجزه وقلة حيلته، مهما بلغ من السطوة، ونفاذ الكلمة. فمن ذلك ان معاوية بن ابي سفيان سمع بوجود النسابة العربي الكبير عبيد بن شرية الجرهمي، وكان من اشهر المعمرين في التاريخ، فاستقدمه الى قصر الخلافة بدمشق وسأله: كم مضى من عمرك؟ قال: مائتان وعشرون سنة. وبعد حديث طويل عن العجائب التي رأها في حياته، حاز اعجاب معاوية، فقال له: يا أخا جرهم، سل ما شئت.

قال: ما مضى من عمري ترده، والاجل اذا حضر تدفعه! قال: ليس ذلك لي، سل غيره.

قال: يا امير المؤمنين! ليس اليك رد شبابي ولا آخرتي، واما المال فقد اخذت منه في عنفواني ما كفاني. قال: لابد ان تسألني. قال: اما اذ شئت فامر لي برغيفين، اتغدى باحدهما، واتعشى بالآخر، واتق الله، واعلم انك مفارق ما انت فيه، وقادم على ما قدمت. فامر له معاوية بزاد من حنطة وغيرها. فردها وقال: إن اعطيت المسلمين كلهم مثلما اعطيتني، وإلا فلا حاجة لي في ذلك! . . ثم ودعه وانصرف.

والحقيقة المرة التي رآها عبيد بن شرية، وعرضها عارية امام معاوية بن ابي سفيان هي ان الحياة باسرها اباطيل، ملفوفة في شهوات، مغلفة بكثير من حطام الدنيا، وليس وراء ذلك كله الا الرحيل، عندما يأتي الاجل.

وكنت في عجاج هذه الافكار ما أزل اطوف في قرية (بحزاني) اليزيدية، وانتشلني من شرودي هذا صوت رفيقي صاحب الطاووس يدعوني الى الغداء، واردت ان اعتذر شاكراً ولكنه الح إلحاح الكرام. فقلت له انني رجل لا احب اللحم ولا الطير (حتى الطاووس) فان كان لابد فقليل من اللبن والجبن والفاكهة وبعض الخضر كالخس مثلا. . فقاطعني صائحا: لا استطيع: قلت: فشيء من اللهانة (وهي الذي

نسميه الملفوف او الكرنب). قال: ولا هذا! وسألته عن السبب، فقال: انها في ديننا حرام!.. وصحت: لماذا؟. قال: لان (صاحبنا) ـ اي الشيطان ـ منذ الواقعة الكبرى، يهيم في الارض، ويختفي في كل ملفوف من النبات، ياوي اليه، ويتوارى فيه، ويسكنه، فنحن لا نريد ان نزعجه في مثواه، ولذا لا نقرب كل نبات ملفوف. وقلت له: هل قرأت كتاب آكام المرجان في احكام الجان؟ فقال: أنا لا اقرأ ولا اكتب. وعدت اكرر: لماذا؟ قال: لان القراءة والكتابة في ديننا حرام، لا يستثني من ذلك إلا رئيس الدين ونائبه. وقلت له مازحا: افهم ان تحرموا الكلام الملفوف، الملبد بعضه في بعض مثل الخس واللهانة، اما الكلام الصريح، الواضح، العاري فلماذا؟ قال: لا ادري. قلت فكيف تحصلون على الثقافة؟ فسألني: وما هي الثقافة؟ وصعقني سؤال هذا الجاهل، عندما حاولت ان اجد له عبارة تصلح لان تكون تعريفا للثقافة، فعجزت. ولكي لا اظهر اكثر منه جهلا، بعد ان ذكرت له اسمي في البداية، ملفوفا في هالة من الالقاب العلمية والوظيفية، قلت: الثقافة يا رجل! الشعر، المسرحيات، الصحافة، القصة.. الخ.. الخ.. فاذا به يصيح: لا يا عم! الحمد لله على الامية!.. وكانت جملته عارية، غير ملفوفة، فاجفلت منها، ولم اطق حملها. ولكنني قلت في نفسي: من يدري؟. لعله على حق، امام كل تلك (العبقريات) التي تقدم لنا ما تجود به من التحف، ملفوفة، من المحيط الى الخليج، ليست فيها كلمة واحدة عارية، صاعدة لتوها من قاع البئر. واحضر صاحبي اليزيدي اللبن والجبن والفاكهة، والقثاء بدل الخس، وكثيرا من الفاكهة، وبعض الطماطم، او البندورة (والكلمتان غير عربيتين من الدخيل الاجنبي في اللغة) والقيت على هذه الاخيرة نظرة ثم على جيرانها من التفاح والكرز وقلت: وهذه الالوان الحمراء القانية؟ الا تعني شيئا يستثير الاسى في (الطاووس). انه خلق من نار، وربما حركت هذه الحمرة عنده (نعرات عنصرية) امامنا نحن الذين خلقنا «ديمقراطيا» من الطين. وظهر على وجه صاحبنا ضيق بهذه الخواطر الفجة، التي يسمعها عارية تماما، ربما لاول مرة في حياته، فاشار الى المائدة وقال: كل!

ومنذ ذلك اليوم وانا دائب التفكير: احقا ـ عباد الله ! ـ اننا ننفر من الحقيقة العارية، ونفضل عليها الاباطيل الملفوفة في هذه السرابيل من النفاق؟ واذا كان ذلك كذلك. فلماذا حفظ الناس قول الشاعر:

ثوب النفاق يشف عماً تحته
فإذا اكتسيت به فانك عار

اظن ان ذلك يرجع الى ان الحقيقة العارية مفحمة مسكتة متحدية، ولذلك لا يطيقها الناس، ويحبون ان يروا ظلا باهتا منها فقط، ملفوفا في غلالات من النفاق حتى يلطف وقعها. ومع ذلك فان اناسا من ذوي البصائر الصافية يحارون امام هذا اللف والدوران، والتعمية والايهام. حتى يقفوا مقرين بان ذلك يسلبهم القدرة على رأي حاسم. قال الراوي: قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة الى

الشام، على حمار، فتلقاه عامله هناك وهو معاوية بن ابي سفيان في موكب ضخم فخم. فاعرض عنه عمر. فترجل معاوية، وجعل يمشي بجانبه. فقال له عبدالرحمن بن عوف: اتعبت الرجل! فاقبل عليه عمر وقال: يا معاوية، انت صاحب الموكب؟ مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟ قال: نعم يا امير المؤمنين! قال: ولم ذلك؟ قال: لانا في بلاد لا تمتنع على الجواسيس، ولابد لهم مما يروعهم من هيبة السلطان. فان امرتني بذلك اقمت عليه، وان نهيتني عنه انتهيت. قال عمر: ان كان الذي قلت حقا فانه رأي اريب. وان كان باطلا فانها خدعة اديب، فلا آمرك ولا انهاك عنه!

ولقد وصلنا من تقبل الاباطيل الملفوفة الى حد ان جعلناها قاعدة يقول بها الكثير من الادباء. فالحلاوة والاناقة واللباقة تكمن كلها في الغموض. والادب الواضح عندهم قلة ادب، واظن انهم يخلطون خلطا بين الغموض المطبق الذي يحبس كل شيء - ان كان هناك شيء - في قماقم طلسمية، كالتي تحبس فيها العفاريت، وبين الستائر الفنية الساحرة التي تغري القارىء بالغزل مع فكرة المؤلف، وبالتودد فيها، وطلب القرب منها، مما يدعوه نقاد الفنون التشكيلية بالواضح الغامض. وهو في الصور والوجدانات يقابل السهل الممتنع في شكل الصياغة. وبلا شك نجد بعض الصور تزداد بهاء وجمالا اذا ترك فيها ركن مظلم يستطيع الخيال ان يكمل ما فيه، وبعضها يبدو على جانب من البلاهة والوقاحة اذا بدا عاريا تماما، لان الناس، كما اشرنا، لا يريدون، ولا يطيقون، التضحية بوقارهم وسيادتهم حتى ولو ظفروا بالحقيقة عارية. والمهم ان يعرف الفنان كيف يتصرف في هذه المعادلة الصعبة. وقد تصرف فيه بشار، وهو اعمى، بما لا يستطيعه المبصرون، فمن ذلك في وصف احدى الحسان:

صدت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المرتد

ولقد وصف بعضهن عاريات تماما، لكن بقيت هذه الصورة المحتشمة اكثر حقيقة من الجميع، لانه القى علي بعضها شيئا من الظل، ولم يأت بها ملفوفة في اسمال الالفاظ الكاذبة المنافقة. ولا اسكنها في ثنايا الخس والكرنب الملفوف كما يقول اليزيدية، فهل ينتهي طواويس الفكر العربي الآن عن وأد فكرهم في حقول واسعة شاسعة من كل نبات ملبد منفوخ تحت شعار (الغموض الفني)!

إما...
إما...

ـ واما أروح الى بيت اهلي! ـ إما أن تدفع هذه «الاكرامية» البسيطة . . .
ـ اما ان تتنازلوا عن القضية . . . ـ إما أنا . . . . ـ . . . وإمـا . . فقد حـذرناه! ـ . . .
وإما الانتحار!

وهكذا نرى ـ في أغلب الاحيان ـ ان استعمال الناس لعبارة إما . . وإما . . في لغتنا، وما يقابلها في كل لغات العالم، تعني خياراً بين امرين احلاهما مر. . ويـظن من يستخدم هذا التعبير انـه بذلـك قد احكم الحصـار على من يحـاوره، بدون ان يلزمـه بوجهـة نظر واحدة، بل يبدو ـ بين إما . . وإما ـ انـه كريم، متسـاهل، من انصـار حريـة الاختيار، ومن اعداء الاجبار، بينما الامر غير ذلك في حقيقته تماماً.

فمثلا، ما زلت اذكر هذا الفلاح الطيب «عبدالموجود»، والمشادة الحامية التي اندلعت بينـه وبـين زوجتـه «مبـروكـة» في الهـزيـع الاوسط من الليـل، ووعيت منهـا صيحتهـا المجلجلة، وهي تقول: . . . وإما أروح الى بيت اهـلي! . ثم انطلقت تـولول: يـا شؤم حظك يا مبروكة . . . ! يا سواد بختك! . يا مـرارة عيشتك مـع رجل. . يعني. . الاسم رجـل، لكن. . وصرخ عبـدالموجـود: اخرسي! . واختلطت اصـوات الاولاد والجيـران والاقارب، بصيحات الزوجين. ماذا هنالـك يا عبـدالموجـود! . وقال الـرجل، وصـوته يتهدج حنقاً وبؤسـاً وارهاقـاً، اسمع يـا سيدي! انت تعلم ان عنـدنا قـطعة صغيـرة من الارض، ازرع فيها بعض الخضر: بقدونس، كراث، بصل، خس، باذنجان، وما الى ذلك، تساعدني في زراعتها فرحة (اسم بقرة عبدالموجود)، كما اننا نأخذ منها كل صبـاح ما تجود به علينا من اللبن الحليب، فـاذهب وابيعه واستعـين بثمنه، هـو وغلة الارض، على ان نبقى مستورين امـام الناس. معقـول؟ وفي يوم من ايـام الاسبوع المـاضي، اراد شؤم طـالعي ان تذهب (مبـروكة) لـزيارة بنت اختهـا التي تزوجت حـديثا، فـوجـدتهـا مريضة، وعندها امرأة من اولئك النوبيات الـلائي يحترفن. . . والله نسيت اسم هـذه الحـرفة، لكن بـاختصار يسمـونها (العلم الروحـاني)، يدخـل فيها الـوشم، والسحـر،

والكشف عن الطوالع، والاتصال بالاسياد. . قل اعوذ برب الناس!. وايضا يا سيدي شفاء المرضى. وما ان وقعت عينها على (مبروكة) حتى ضربت كفاً بكف، وجذبت باصبعها جفن المرأة، وحملقت في عينها، ثم ضربت بكفها على صدرها، وقالت: كان الله في عونك! . يا سلام! . كل هذا في جسمك؟ . . وقالت مبروكة وهي مضطربة قلقة: كل هذا. . ماذا؟ وهزت العرافة رأسها بأسى: واحد من اهل تحت! وزاد اضطراب الفلاحة الساذجة وصاحت: انا لا اعرف اهل تحت، ولا اهل فوق. . من هو؟ قالت: اللهم اجعل كلامنا خفيفا على قلبه. . غطميش يا اختي. . غطميش بن ابي الريش! . وعادت تسأل: من هذا؟ . قالت: جني سفلي، عدو ذرية آدم وحواء! . يا اختي لابس في بدنك، ولولا ان الله انعم عليك بصحة كالحديد، لكن المؤذي قد ضرب كل شيء. . كان شعرك الجميل هذا قد شاب نصفه، وسقط النصف الثاني، وكان قوامك ـ ما شاء الله! غصن بان! ـ قد هوى واصبح انقاضاً. . وصدرك وبطنك وخصرك ـ ارقيها من العين! ـ قد صارت مثل عجين الطين. سلام قولا من رب رحيم! . اشتاتا اشتاتا! . . لا تدخلوا بتاتا! . وآه. . ثم آه يا سيدي! عادت مبروكة يومها وكأن كل خطوة منها تشدها الى القبر. وبعد يومين اثنين، استيقظت في وسط الليل على نواحها ونشيجها، وقالت لي: اسمع، يا عبده! أنا سأذهب هذا الصباح الى النوبية، لاني بدأت احس ان ابن ابي الريش يخرج في كل مكان في جسمي. قلبي يا عبدالموجود! آه يا قلبي! رأسي يا عبدالموجود، مفاصلي، ظهري، مصاريني. . آه يا ربي! . وطبعاً لم يكن امامي الا الاذعان. وبيني وبينك، انا لا اؤمن بهذه الخرافات، لكن قلت في نفسي: اذا كانت رؤية هذه العرافة اللعينة تعيد الطمأنينة الى مبروكة فلا بأس.

كنت أنصت الى عبدالموجود، وانا افكر فيما قاله امبروز بيرسي من ان العفريت هو التجسيد الخارجي المنظور لرعب داخلي خفي، وهي تقريباً نفس الفكرة التي عبر عنها معاصره السير جيمس ماثيو باري بقوله: ان الانسان لم ير العفاريت الا عندما مشى في الظلام الدامس. وفي قصة مبروكة كان الرعب والظلام من صنع العرافة.

وبعد، يا عبدالجواد؟ . عادت المرأة من عند النوبية تقول: سنبيع البقرة، هكذا؟ نبيع فرحة؟ مرة واحدة؟ ولماذا؟ لان عطميش بن ابي الريش، حتى يخرج من بدني لا بد ان يعمل له (عمل)، ويقام من اجله (زار)، تقوم فيه جوقة (الحاجة مرجانة) العرافة بكل ما يلزم، من طبل وزمر ورقص وشمع وبخور، وستذبح فيه ديكاً ابيض من جبال الجزر المعلقة، يكون خارجاً من بيض دجاجة سوداء، باضتها يوم سبت، على ساحل بحر الظلمات. وهي وحدها تستطيع الحصول على الديك. أرأيت يا عبده! فوق كل ذي علم عليم! وحاولت بعد العشاء ان اتفاهم معها بالتي هي احسن: ان البقرة، يا بنت الكرام، ركن من اركان حياتنا. . وقاطعتني صائحة: يا ويلي منك! . لو كان عطميش بن ابي الريش يسكن في بدنك انت، لهان عليك الامر. لكن ـ يا عيني! ـ أنا لا قيمة لي في بيتك. . البقرة اهم مني. . بل الكراث والباذنجان. . فانتهرتها قائلة: باذنجان في عقلك! كل هذا دجل. . كلام فارغ! ولماذا هذا الديك الابيض لا غيره؟ وعلا صوتها قائلة: اخسأ يا رجل ـ انت جاهل. . لا تفهم شيئاً في (الروحاني)، والحاجة مرجانة تدري ما تفعل، والناس كلهم يشهدون لها بعمل العجائب والمعجزات! .

يرضيك يا عبده، أهون عليك يا ابوشحاتة! جسمي، يا اخواتي، جسمي ملبوس. . مسكون. . ممسوس. . . ! حرام عليك! . . والله حرام يا ناس! . واجبتها: مستحيل! فرحة لن تخرج من البيت! . فقامت، والشرر يتطاير من عينيها وصاحت: اسمع! إما ان نعمل ما قالت مرجانة، وإما اروح الى بيت اهلي! فهمت؟ وكنت اعلم ان مبروكة لم يكن لها اهل؟ وانما وجدتها القرية ضمن صغار يعملون في الحقل بقوتهم، فنشأت هكذا، مع حلفاء البر، وتعلقت باهداب القرية كما يتعلق نبات اللبلاب بجذوع الاشجار، ثم تزوجها عبدالموجود ـ وزعمت ام السعد الخاطبة انهما كانا عاشقين متيمين كل منهما بالآخر قبل الزواج. ولم اجرؤ على تذكيرها بذلك.

وحاولت ان اناقش مبروكة، فكانت تخرج الى متاريس إما. . وإما. . وترى كغيرها ان القضية قد اصبحت منطقية جدا، وفيها قولان، وليس هناك اجبار. واطرقت مليا وانا اردد في سري (إما. . وإما)، وفجأة اكتشفت، بما بقي في ذاكرتي من قواعد النحو في هذا الوقت المتأخر، ان إما. . وإما، يمكن ان تتوالى فيها وجوه الاختيار الى ما لا نهاية، وانه لم يقل احد بحصر المخاطب بين هاتين الاداتين فقط، وانه من الجائز كما تقولين (ملبوسة). قالت: نعم! قلت: فاما ان يبيع عبدالموجود البقرة، ويسلم ثمنها الى مرجانة، وإما. . . قالت: . . اروح بيت ابي! قلت ـ بجدية مصطنعة ـ رحمة الله عليه! من يدري اين هو؟ وبلعت المرأة الغاضبة ريقها، ولابد انه كان مرّا كالعلقم، بينما واصلت انا الحديث: وإما ان نعرضك على طبيب، فان وجد في صحتك خللا، نظرنا: إما المستشفى وإما مرجانة.

ولم يبد عليها الاقتناع، لكنها افحمت، ولم يسعها الا ان ترضخ لفحص الاطباء. وقد قرر هؤلاء انها مريضة بالوهم، ووصفوا لها ادوية هينة لتقوية الاعصاب. رأت بعدها ان الامر قد تيسر عسيره، وان البقرة (فرحة) لابد ان تبقى في البيت، هي والحب، وعبدالموجود.

خطيرة إما. . وإما. . هذه. وهي على ضآلتها قد تكون مثارا لأزمات رهيبة. اذكر انني، منذ سنين، كنت احضر دورة للامم المتحدة، لا امثل هناك احدا ـ حتى نفسي ـ وذلك من حسن الحظ وببركة دعاء الوالدين، فقد كانت هذه الدورة ساخنة متوترة، هي التي ظهر في اثنائها اصطلاح (الحرب الباردة). واحتدم الجدال بين مندوبين عظيمين كل منهما عن بلد ممن نسميهم القوى العظمى، وقام احد المندوبين غاضباً اثناء نقاش حاد، وصاح: اذا كان ما يقوله الطرف الآخر محمولا على محمل الجد، فانه كلام لا معنى له! وقد حاولت ان اتبين له بعض الدلالة، فخرجت من كل هذا الجهد المضني بنتيجة اليمة: إما انني سكران (وهذا محال لانني لا اعاقر الخمر) وإما انني غبي. . غبي. . غبي. وبابتسامة عريضة در محاوره وهو جالس، وقال: يا صديقي العزيز! منذ بداية هذه الجلسة وانا اقول لك لا، في كل ما تقترحه، فاسمح باصلاح بعض هذا الخطأ، بأن اقول لك: نعم! نعم! نعم! . . ودوت القاعة بالضحك والتصفيق والصفير. اما انا فخرجت متشائماً: كيف؟ كيف تحل مشكلات الملايين من الناس، والعشرات من الامم. بين إما. . وإما. . وعاصفة من الضحك، ونكتة، وخطبة جوفاء، وردود خاوية. وتصويت متبلور قبل عرض القضية؟ ورحت الوح بيدي في الهواء، واقول لنفسي: إما ان تعيد هيئة الامم المتحدة النظر في ما لها وما عليها، وإما ان تضرب الامم

الضعيفة المظلومة المسحوقة، عن اللجوء اليها، ودفع حصتها من نفقاتها، وعرض مشاكلها عليها، بعد ان اصبح التقاضي لديها هزأة وسخرية.

وما كدت الفظ بكلمة التقاضي حتى تذكرت ما يرويه الاوروبيون عن قاض ظالم عندهم. قالوا: إن ابليس هرب من الجحيم، وغافل خازن الجنة فدخلها. لكنه ما كاد يفعل حتى احس به الخازن، فانتهره وامره بالعودة الى جهنم. ولكن ابليس تلكأ واخذ يسوق مبررات واهية للبقاء في الجنة، فقال له خازنها: إما أن تخرج، وإما ان نحتكم الى القاضي إياه. فاسرع ابليس، وهو يصيح: جهنم ولا محكمة هذا القاضي.

فاين هذا من فقهاء المسلمين، الذين كانوا مع عدلهم وتقواهم يهربون من منصب القضاء وينتحلون لذلك الاعذار حتى لا يقعوا في شبهة، او يأخذوا بحجة زائفة، كل ذلك خوفاً من الانزلاق في ظلم لم يديدوه ولم يتعمدوه. فمن ذلك كل ذلك خوفاً من الانزلاق في ظلم لم يريدوه ولم يتعمدوه. فمن ذلك ان احد الخلفاء اصدر امرا بتعيين واحد من أعاظم الفقهاء وعلماء الشريعة قاضياً. فجاء الفقيه بكل ما علق بذهنه من اعذار حتى يعفيه امير المؤمنين، لكن بدون جدوى. فقال للخليفة: إن في البلد فلاناً، وهو أفقه مني وأعدل، فعليك به. ثم اضاف قائلا للخليفة: والآن لزمتك الحجة يا أمير المؤمنين، فقد قلت انه افقه مني واعدل، فاما ان اكون صادقاً، وعندئذ عليك ان تأخذ الافضل وإما أن اكون كاذباً، فيحرم عليك تنصيب قاض كاذب.

اما في السياسة، فان إما.. وإما.. على طريقة (مبروكة) زوجة الفلاح عبدالموجود لاتفتأ تطالعنا كل يوم في معمعة الشرق الاوسط حتى اصبحت من المفاتيح في المعجم السياسي الاسرائيلي على الخصوص. فدول العالم اجمع إما الا تعترف بوجود شيء اسمه الشعب العربي الفلسطيني، وإما ان تكون من فقاقيع النازية، واذناب اللاسامية. واذا سمحت دولة ما بوجود مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية فوق اراضيها، فالويل لها! رئيسها يخسر الانتخابات التالية، وعملتها تهوي في الحضيض، والقلاقل الداخلية تندلع فيها، وكذلك اعمال النسف والاغتيال والارهاب، وبعد ذلك: إما ان تجثو على الركبتين تائبة مستغفرة، وإما ان ترى ما لا عين رأت من الوان التنكيل. فاذا تقلص النشاط العربي الفلسطيني، وحوصر وخنق وسحق، في امريكا ومن يدور في فلكها في قارات العالم، ولم يبق من ذلك الا المكاتب التي تؤويها روسيا وحلفاؤها، انطلق المرجفون في اسرائيل يقولون للمساكين في امريكا، واتباعهم في انحاء الدنيا الم نقل لكم؟ الم نحذركم من عرب فلسطين؟ انهم جميعا شيوعيون، كفار، ماركسيون، علمانيون، اعداء للغرب، ولله وملائكته وكتبه ورسله، وللبنتاغون، وكامب ديفيد، ومسيرة السلام! والبشر بكل اسف ذاكرتهم قصيرة، وقدرتهم على التجميع والربط والاستنباط محدودة. فهم لا يتذكرون مثلا ان زعيم حزب المحافظين البريطاني، السياسي الداهية، ونستون تشرشل قد ابرم معاهدة سياسية وعسكرية مع اخطر زعماء الشيوعية، ستالين، للوقوف معا في وجه الخطر الهتلري، وعندما نوقش تشرشل في هذا (الانحراف) صاح في البرلمان البريطاني بعبارته المشهورة: انني مستعد للتحالف مع الشيطان اذا كان يساعدني على تحطيم الهتلرية!

ذلك ان معارك المصير ليس فيها إما.. وإما.. وإنما فيها من (إما) هذه صف طويل، لو إتيح لنا شيء من الفكر المنطلق لوجدنا فيه اثر من واحدة تصلح لان تكون منطلقاً

امينا، ولن تكون تلك بالتحديد من الاثنتين اللتين ترددهما اسرائيل: إما التوقيع على نسخ (منقحة) في تل ابيب من اتفاقيات كامب ديفيد، وإما الحرب في المنطقة، والذي يردد هذا رجل تقاسم جائزة نوبل مع صديقه المرحوم، من اجل (السلام). وكما كانت الفلاحة مبروكة تهدد بالذهاب الى بيت اهلها، بينما هي بلا بيت وبلا اهل، فان هذا المجاز من اجل السلام ليس لديه سلام، ولا حتى حرب، الا عندما يثير لدى الامريكان مخاوف وهمية نابعة من فكر متخلف، حول مصالحها في المنطقة. والامريكان ليسو قطعاً اغبياء، ولا اطفالا في السياسة، ولا مصابين بالوسوسة او الهلوسة، ولكنهم جالسون على (خازوق) الصهيونية الرأسمالية عندهم، وهو خازوق امريكي الجنسية، صهيوني الولاء، بعيد عن كل ما في اليهودية الموسوية من التقوى والامانة والدماثة، يدمر كل شيء حتى في امريكا نفسها في سبيل ان تكون الكلمة الاولى والاخيرة لتل ابيب.

ان امام العرب مسيرة طويلة لتعويض التخلف الاستعماري القديم، ولكنها مسيرة اكيدة وراسخة، واعتقد انه من مصلحة الجميع ـ والصهيونية في المقام الاول ـ ان تكف عن مناوراتها الوحشية من اجل عرقلة هذه المسيرة، إذ أخشى ان تتراكم تلك ديون تدفعها اجيال قادمة في اسرائيل، وربما لم يكن لها ذنب فيما حدث. واصحابنا هناك يحفظون الحكمة العبرية التي يقول فيها احد انبيائهم: الآباء قد اكلوا العنب وهو حصرم، ولكن اسنان الابناء هي التي تضرس. وهذا ما حدث في ايام بختنصر، وتيتوس، وهدريان، وقسطنطين وحتى هتلر، ليتذكروا الابرياء من اجيالهم القادمة، قبل ان تفاجئهم (إما.. وإما..) لا ثالث لهما.

المعنى... وبطن الشاعر...

في القول المأثور (ان المعنى في بطن الشاعر). والذين يرددون هذا القول انما يريدون ان يجعلوه عذرا عن الغموض الذي يجثم على كثير من خواطر الشعراء، فتبقى تلك الخواطر في (بطونهم) كالدرر في بطون الأصداف في اعماق البحار. والأمر في حسباني اكثر تعقيدا من ذلك، ولو انه وقف عند هذا الحد لهان الخطب، ولأمكن للناقد ان (يغوص) في الأعماق فيستخرج هذه الدرر للناس في كامل لألائها، ويقدمها اليهم متألقة على مهاد من اصدافها، مما يسمونه (ادراك ما بين السطور). اما اذا كان بطن الشاعر خاويا طاويا، كبطن المؤمن العابد في رمضان، فان هذا السغب المعنوي لا يعطي شيئا، اللهم الا قعقعة لفظية، تذكرنا بما يسببه الجوع في جوف بعض الناس من (قرقرة) معوية، وهواء محبوس. وقد يعجز الشاعر حتى عن ذلك، اذ ينغلق بطنه على لا شيء، فلا تسعفه حتى الكلمات الجوفاء. فمن ذلك ان الشاعر احمد شوقي، فوجيء ذات صباح بأمر من الخديوي بكتابة قصيدة في رثاء (أدهم باشا) لكي تلقى على قبره بعد عصر نفس اليوم، عند تشييع جنازته، ولم يكن موت أدهم باشا من النوازل التي يمكن ان تهز قلب امير الشعراء، كان رجلا تركيا وصل الى ما وصل اليه، من سراديب ودهاليز بعيدة كل البعد عن دروب البطولة الشائكة، وعن مسالك العبقرية المحفوفة بالمكاره والأهوال. لكن هناك الأمر العالي، الواجب الطاعة والامتثال. وجلس شوقي الى مكتبه يكد قريحته، ويبحث، لعل في بطنه معنى شاردا يصلح لتأبين أدهم باشا، لكن بدون جدوى، كان قد كتب الشطر الأول من بيت المطلع، وهو: مصاب بني الدنيا عظيم بأدهم.. ثم ماذا؟.. لا شيء!.. لم يفتح الله عليه بعدها بكلمة واحدة.

وهنا دخل فراش المكتب يحمل الى شوقي ـ مع القهوة ـ بعض الطلبات الشفوية من زملاء له في الديوان. وكانت اعصاب الشاعر قد توترت، وعقارب الساعة اللعينة تركض نحو موعد الجنازة، بينما يقعد به العجز حيث هو، لا يقدر على كلمة واحدة. فصاح بالفراش غاضبا:

ـ اتركني الآن.. لا اريد ان اسمع شيئا.. وحتى القهوة لا اريدها.. اخرج من هنا!..

وتعجب فراش المكتب من خشونة شوقي، فقد كان عهده به رقيقا، دمثا، لين الجانب. فقال: لماذا؟..

ـ لأن صاحب الفخامة الخديوي امرني برثاء أدهم باشا، فكتبت شطرا واحدا ثم عجزت!..

قال الفراش: وماذا كتبت، يابك؟.. ـ مصاب بنى الدنيا عظيم بأدهم..

فضرب الفراش كفا بكف، وصاح: والله ان مصاب بنى الدنيا اعظم عندما يعجز امير الشعراء عن اكمال بيت واحد!.. وكاد شوقي ان يرقص وهو يصيح: واعظم منه حيرة الشعر في فمي، وما كاد استهلال المرثية ينتظم له على هذا النحو، حتى انطلق فيها فأتمها، ولم تكن بطبيعة الحال من عيون الشعر، ولكنه ـ اداريا ـ قد ابرأ ذمته، بأبيات يشيع بها هذا الباشا الى مثواه الأخير.

واذا كانت المشكلة هنا تكمن في انه لا يوجد معنى في بطن الشاعر، فان هناك مشاكل اخرى يقابلها الشعراء، أهم من تلك واجدر بالبحث. اولها غزارة المعاني بحيث تتراكم وتتراكب فلا تستطيع الألفاظ ان تحيط بها. وقد سئل الاصمعي ذات مرة: اي بيت تقوله العرب اشعر؟

فقال: الذي يسابق لفظه معناه!.. اتراه كان يقترب بتلك العبارة مما يقوله الشاعر الانجليزي القديم عن الالفاظ التي «تعنى أكثر مما تسمعه الاذن من نطقها؟.. وهذا الشاعر الانجليزي خبير بما يقول، لأنه جاب مجاهل العبقرية الشعرية، واندمج فيها، واتحد بها انه جون ميلتون.

وهناك من وصلت خبرتهم بالشعر، وبأسرار التلاحم الحميم بين اللفظ والمعنى وبطن الشاعر الى درجة عجزوا معها عن قول الشعر. ومن هؤلاء الأصمعي هذا. فقد سأله بعض تلاميذه عما يمنعه من قول الشعر مع براعته في فهمه ونقده، فأجاب: يمنعني من ذلك اطلاعي على رديئه! ويقترب منه ناقد بارع في معرفة اسرار الشعر، وخباياه، لا يقول شعرا البتة، ويبرر ذلك بقوله: انا كالمسن، اشحذ ولا اقطع. فالكلمات القليلة التي يزجي بها الشاعر الخواطر الكثيرة، والمعاني الدقيقة، من اسباب ما نقابله في بعض الشعر من غموض. وقد اشتهر عن المتنبي ان مدحه لكافور الأخشيدي كان في ظاهره مدحا وفي بطن الشاعر استخفافا وقدحا. وقد اشار النقاد من ذلك الى قوله لكافور:

وما طربي لما رأيتك بدعة	لقد كنت ارجو ان اراك فاطرب

وكأنما هو قد قام بالرحلة من اقصى الشام الى مصر للترويح عن نفسه برؤية صورة مطربة مضحكة هي كافور، حتى قال نقاد المتنبي انه لم يزد على ان شبهه بأبي زنة، (نوع من القرود).

وانطلقوا يتلمسون مثل ذلك في سائر مدائح المتنبي لكافور حتى قالوا ان قصيدة باكملها من ذلك النوع تنطق في اذن السامع بعكس ما في بطن الشاعر، وهي التي مطلعها:

عدوك مذموم بكل لسان

وان كان من اعدائك القمران

وكأن اعداء كافور مقدرون من قبل المذمة والتقبيح، بسر خفي عند الرجل، حتى لو عاداه الشمس والقمر، المنزهان عن كل عيب او قبح. ثم انه يستمر على هذا النهج الى

آخر القصيدة. فالمجد الذي حازه كافور، ليس له سبب واضح، وكان الله اراد ان يثبت قدرته على اي شيء، وعلى كل شيء، فرفع هذا الـ . . . كذا . . وكذا . . الى الذروة، تاركا الساخطين على ذلك في هذيان :

ولله سر في علاك وانما
كلام العدى ضرب من الهذيان

وهنا يجد الناقد نفسه مضطرا لأن يسأل: في هذه الحالة، ان اتعامل مع النص بما في ظاهر اللغة، ام بما في بطن الشاعر؟

والجواب بدون تردد ان كليهما داخل في الحساب، حتى عندما يقول الأديب البريطاني لويس كارول في كتاب له اسمه (في المرآة) : عندما استعمل كلمة ما، فانها تعني ما اختاره انا لها من معنى، لا أكثر، ولا أقل.

ذلك ان الشاعر او الأديب عندما يضع القلم، ويقدم عمله للناس يصبح لا دخل له في فهم هذا العمل، ومن هنا تبدأ مهمة القارىء والناقد، في ادراك (التكثيف) الذي يحمله الشعر.

هناك ماهو اكثر من هذا، هناك من يقولون ان المعنى ليس في بطن الشاعر، وانما هو في الشعر، وان الشعر يجب ان يكون بلفظه هذا مرادفا لغير الواقع، والقصيدة ليست الفاظا ذات معنى، بل معنى تقمص الالفاظ فأصبحا شيئا واحدا. ومن هنا كان الشعر الجدير بهذا الاسم منبثقا عن موهبة، وعن حساسية خاصة، وعن نظرة تتخطى المادة، وتخترق العناصر الى آفاق من الكشف السحري الذي لا يتيسر لكل انسان، ولا يمكن تحصيله بالتعليم. وكان المفكر الفرنسي (مونتاني) كان يحوم حول هذا المعنى عندما كتب في (المقالات): ان الانسان الهادىء المطمئن لا يستطيع ان يطرق باب الشعر. وفي بطن هذا الكاتب ان الشعر محتاج الى التوتر والقلق، والى شعرة من الجنون، حتى يفتح لمن يطرق بابه من الشعراء.

ولو اننا وقفنا قليلا عند هذا الخاطر لرأينا عجبا، فالناقد يجب ان يكون مثقفا، خبيرا، صبورا على الفحص الطويل، منطقيا في تناوله، فكيف بالله يستطيع رجل مثل هذا ان يكتشف شعرة الجنون في رأس الشاعر؟ وكيف يستكنه جوهر المعنى الكامن في بطنه؟.

ان النقاد العرب القدماء كانوا على حق في الاكتفاء بتلمس اللغة فقط من خلال الشعر، وتسجيل البراعة في التعبير، والمرونة في الصياغة، والتصرف في الأداء، وايداع ذلك كله بطون المعاجم، وكتب النحو، اما هذا التشريح للمعنى الكامن في بطن الشاعر، وما يتطلبه من تمزيق لقلبه واحشائه، حسب قواعد النقد الحديث، فانه احال القصيدة الى حشرة من حشرات المختبرات، تستخرج منها اسرار - هي حقائق علمية اذا اردنا - بينما تبقى الحقيقة الفنية المثيرة، والمحركة، والباعثة الى الحكم الصحيح، بعيدة المنال، يستجيب لها القارىء الذي لم تتعقد فطرته بهذه المعلومات. والشعر الذي يحتاج الى شرح - وراء شرح اللغة ان كان من غير عصرنا - ليس بشعر، والقصيدة المعاصرة التي لا أفهمها الا اذا تناولتها التفاسير والحواشي، وسلطت عليها الأضواء، واطلقت من حولها ادخنة النقد الحديث، من مباخره او قنابله، ليست بقصيدة !.

لكنني اشعر في اعماقي بصوت يقول لي: ان هذا تطرف، لأنه الغموض في الشعر قد

يأتي ايضا من الرعب، ان الخائف لا يرى الأشياء كما هي. والشاعر الخائف انسان تعس، تختلط في بطنه المعاني، وتترامى عليها تهويمات اخرى يختطفها من الخارج، احيانا للتمويه، واحيانا بسبب صعوبة التمييز، اذا انهارت الكوارث والقوارع من كل جانب. والناقد الحديث هو مهندس هذا السديم المعتكر، الذي يعيد فصل عناصره، وتمحيصها، واضفاء بعض الوضوح عليها ترتيبا وتعليلا. ولكن هل يقدر الناقد الحديث حقا على ذلك؟ . . ان الشاعر نفسه كثيرا ما يعجز عنه، حتى بعد ان يخرج من حالة المعاناة، او الوجد الفني المتجاوب مع موسيقى الكون الكبير.

واذا كان عمل الناقد الحديث عملا (علميا) في أضيق الحدود، يقرؤه وينتفع به من يرصدون الظواهر الفكرية، ويؤرخون للآداب، ويقارنون بين بعضها وبعض، فأين يكمن الحكم على الشاعر وشعره بطريقة ايجابية فعالة في المجتمع كله. يجب البحث عن ذلك في جمهور قراء الشعر ومستمعيه ومتذوقيه، فهؤلاء هم الذين يتوجه اليهم الشاعر قبل غيرهم، وهم الجبل الحقيقي الذي يريد ان يحركه بمعجزة. لكن الناس في زماننا هذا ـ ومنذ اصبحت المطابع تفيض كل يوم بطوفان من الكتب ـ قد اشتد عزوفهم عن القراءة، وبخاصة قراءة الشعر. فهل من وسيلة للأخذ بيدهم على منعرجات الفن من جديد؟ ان اسواق الأدب القديمة كانت نموذجا للعمل الناجح في هذا الميدان: عكاظ، ذو المجاز، مجنة المربد. . كانت هي المنابر التي جلجل عليها الفحول، وطارت منها بلابلهم في الآفاق. والرأي الآن هو في العودة الى مثل ذلك. بالاكثار من الندوات والمؤتمرات وحلقات الانشاد، على ان يكون اكثرها لسماع الشعر لا لمناقشته، ولعل من الرحمة بالمستمعين الا تمنح السهرة بكاملها لشاعر واحد او شاعرين، بل تكون جامعة لعدد كبير: عشرة او عشرين، وان يكون مسموحا دون استغراب او اشمئزاز او استفزاز ان يغادر اي من الحاضرين القاعة متى شاء، وان يؤمها في اي وقت من انعقاد الجلسة ايضا.

وقد يتيح ذلك للقائمين على تنظيم مثل هذا اللقاء ان يبدأوه مبكرين وينهوه متأخرين بحيث يشغل اربع ساعات او خمسا، مادام الحضور والانصراف غير خاضعين لأي الزام.

واتخيل لقاء مثل هذا يرافقه شيء من التجديد: كأن تباع فيه لمن شاء دواوين الشعراء المشاركين في السوق، وان يسمح لمن شاء منهم بالقاء شعره على خلفية موسيقية يشترك فيها ملحنون، يسهمون في ابراز ما يريد الشاعر الا يبقى في بطنه من معان. وقد تكون تلك فرصة لتشجيع هذه المواهب الموسيقية، وتعريف الناس بها. واتمنى لو سمح القائمون على هذا النشاط لضيوفهم المستمعين بتسجيل ما يقال من الشعر، كله او بعضه، بصوت الشاعر نفسه، والاحتفاظ به كأثر ثمين لسهرة عامرة.

اما دور اجهزة الاعلام في مثل تلك الندوات، فانه هام جدا. فلو ان الاذاعة والتلفزة امتنا نقل ذلك على الهواء، او برمجته في حلقات متوالية، لعرف من حرم من الحضور ان الشعر في وطنه مازال بخير، وان رواده وجمهوره ومحبيه من الكثرة بحيث لا يبقى هناك داع للتشاؤم او اليأس. وتبقى الصحافة وراء ذلك هي منبر النقد والتعليق والمناقشة والاستنباط والتفسير والرصد لكل ما قيل. حتى نخرج من هذه المدهمة التي يبقى فيها اكثر الموهوبين من شعرائنا لا يسمع بهم احد، او يسمع ولا يقرأ، او يقرأ ولا يهتم، الى

ان يموتوا، فنوسعهم ـ بعد فوات الأوان ـ تكريما، وتعظيما، وبكاء، ورثاء. وكأننا لا نحب الاحياء، الا بعد ان يسقطوا شهداء!

وفي عالمنا العربي صحف كثيرة بلغات غير العربية. انجليزية، وفرنسية، وايطالية، ويونانية، لو انها اعطت على صفحاتها (ومضات) مما يدور في كل لقاء من هذا النوع، ولو اننا دعونا بعض المراسلين المعتمدين في الشرق الأوسط للصحافة العالمية، لأمكن ان نتوقع ـ في يوم ما ـ ان يعرف العالم الكبير اننا امم لا تتعامل فقط بالنفط والرشاشات وقروض المال الدولي، وان عندنا من الشعر اكثر من النفط، ومن الموسيقى اسخى من (لعلعة) الصواريخ، واننا عندما تقول عنا جهات حاقدة معادية، اننا متخلفون، مظلومون في هذه التهمة ظلما فادحا، وقد تتولى النفوس السوية العادلة في العالم معاونتنا في رفع هذا الظلم.

اما من حيث الانتاج الشعري نفسه، فان الاتصال الدائم والمباشر بين الشعراء، امام الجمهور على هذا النحو، سيكون خير دافع لنهضة حقيقية في الفن والفكر. اذ طالما بقي الشعراء فرادى، واحد في قوقعته، والآخر في كهفه، والثالث في برجه، والرابع في قبوه، فان تطور الفن لدى كل منهم سينحصر في دائرة ضيقة جدا، مما يؤدي الى ما نراه الآن من التصلب المتطرف لدى كل منهم في مذهبه، وفي موقفه من غيره، والى بقاء بعض المفاهيم الفنية مهتزة غير محددة في فكر الجميع. فلا انت تدري ما هي الفروق بين القديم والجديد، ولا مقدار استجابة هذا او ذاك للمتغيرات الهائلة التي اصابتنا في الفكر والمجتمع، ولا انت تعلم اين تنتهي التأثرية، او ماهي الميزات المحددة للرومانسية، او الوجودية او السريالية او اللامعقول او الفطرية او الاسطورية او البنيوية او الذرائعية، ولا انت تسمع ماذا يريد الناس من الفن، وهم مادته الأولى ومآله الأخير. وهذه كلها امور تستقر، وتنتظم، وتهتز، وتربو، وتؤتي اكلها، اذا التقى اهل الفن لا للجدل، ولا للمناظرة، ولكن لعرض ما عندهم على الناس.

فحرام يا قوم ان يعرف الغرب عن الشعر في اسرائيل ـ اي والله ـ ما لا يعرف عن الشعر العربي، لأن رجل الشارع في اوروبا وامريكا لا يعبأ بالصاروخ، قدر تأثره بقصيدة انسانية رفيعة، وعدوكم يعرف كيف يزن الجرعة اللازمة من هذا وذاك، وتفريطكم في هذا الجانب من المعركة امر خطير.

الجريمة والصمت

الصمت على الجريمة جريمة . . لماذا ؟ . . لأن نجاح المجرم يكمن في ارتكابه فعلته الشنعاء دون أن يتحدث عنها أحد . . ولمّا كان الناس عادة يميلون الى تجنب المشاكل، ويؤثرون العافية، ويجدون الأمن والدعة في البعد عن القيل والقال، فقد تمسكوا ـ إذا جدّ الجد ـ بالركون الى الصمت الوثير المريح، المعطر بعبق الحكمة، وأريج الناس الطيبين. ولهم في ذلك أمثال سائرة، وأقوال مأثورة: إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب (وفي الفقر المتفشي بين الأدباء والصحفيين مصداق ذلك)، ويقول المفكر البريطاني «توماس كارليل»: إن الصمت عميق كالأبدية، بينما الكلام ضحل كالزمن. وكان كارليل نفسه أول من خرج على هذا الشعار الذي نادى به، فقد كان من أكثر الفلاسفة والأدباء كلاماً، حتى أن الناقد «جون مورلي» يعلق على هذه الظاهرة بقوله: إن كارليل قد «لخص» هذه الحكمة التي أطلقها، في خمسة وثلاثين مجلداً! ولم يخل أدب أمة من الأمم، قديماً وحديثاً، من مدح للصمت وذم للكلام. ومما يعلمه اليهود من هذا المأثور لأولادهم: للانسان عينان اثنتان، وله أذنان أيضاً، ولسان واحد فقط، لكي يرى ويسمع كثيراً، ويتكلم قليلاً. ومع ذلك فهم أمة ثرثارة، لا تدانيها أمة أخرى في هذه «الموهبة»، حتى الأمة العربية نفسها، وما أدراك ما هي في كثرة الكلام!.

ففي تل أبيب تتقيأ المطابع ما لا حصر له، وفي اذاعتها تجلجل الحناجر من مطلع الشمس الى الأقاصي من جوف الليل، غير الخطب الرّنانة على قارعة الطريق أو في مختلف الندوات والاجتماعات. الكل يتكلم ولا أحد يسمع. ومالك أنت وشعب الله المختار أيها «الجوى» ـ أي الكافر ـ؟ وعفواً فالكلام لي أنا وليس للقارىء المكرم، مع أنه هو أيضاً «جوى»، لكن لم يعلم بعد بما يدبر له شعب الله المختار، ومن الخير لهم وله ألّا يعلم، أو أن يعلم منهم هم فقط أن هذا الكلام الكثير، في كل مكان، مطبوعاً حيناً ومسموعاً حيناً آخر، هو الحجة الناطقة بحرية التفكير والتعبير، وديمقراطية التدبير والتقرير، الى آخر الأنشودة. فإذا سألتهم لماذا، والحالة هذه، يغلق هذا العدد الكبير من الصحف والمجلات والنشرات التي يصدرها المعارضون لجرائم الحكومة الاسرائيلية وانحرافاتها في الداخل والخارج، ولماذا يزجّ بهم في غياهب السجون، ولماذا تدبّر

لبعضهم الاغتيالات، أو الحوادث المميتة، أو الصدمات النفسية التي تدفعهم الى الفرار من الديار، أو التماس النهاية بالانتحار؟ كان الجواب: ومالك أنت وهذا؟ تلك أمور داخلية، عادية، نسويها مع مواطنينا، ثم هي بعد كل هذا، حالات فرديةنادرة، لا تصلح أساساً للمناقشة، وأخيراً، تفوح من أسئلتك دائماً روائح العداء، والتعصب واللاسامية، ومن الخير لك أن تسكت، وإلا . . وإلّا فلا بد أن تسكت بطريقة أو بأخرى. هل فهمت؟ . . نعم فهمت! إما الصمت، وإمّا الجريمة والصمت. فاختر لنفسك ما يحلو.

إن مقاليد اسرائيل ـ لسوء حظ اليهود ـ موضوعة في يد رجل مريض. مريض بمناقبية جنونية من خيالات مجاذيب الحاخامين، ومجنون بفكرة السلطة المطلقة في قومه، لا يتكلم أحد منهم إلّا بإذنه، حتى حزب العمل المعارض. الجميع يخاف من مناحم بيغن، وينافقه. لقد سمعت بنفسي شمعون بيريز، زعيم كتلة المعارضة في الكنيست، يثرثر في التلفزيون الفرنسي، في الصيف الماضي، مبرراً غزو لبنان. وكان موقفه ذاك مقززاً ممجوجاً ـ خصوصاً في الفكر الفرنسي الحر ـ لدرجة أن محاوره التلفزيوني سأله بلباقة: أنت زعيم المعارضة، وممثلها في المنظمات الديمقراطية الدولية، من الاشتراكية الدولية، الى منظمة العمل، والعفو الدولي، والسلام . . وغيرها، ومع ذلك تقول في غزو لبنان ما يقوله رئيس الحكومة بيغن حرفياً؟ وفي تهافت سوفسطائي متهالك أجاب بيريز: نحن بلد صغير «وضم أصابع يده الخمسة لتصوير مايقول» . . بلد صغير جداً، في محيط عربي هائل «ومد كفيه وذراعيه الى أبعد ما يستطيع» . . وإذا نشب بيننا قتال، فإننا مضطرون ـ أي والله! ـ مضطرون للوقوف وراء الحكومة أثناء المعركة حتى لو بدت لنا مبرراتها غير مقنعة. وكأن أعضاء حزب العمل المعارض قد اتخذوا إماماً لهم شاعرنا العربي ـ الذي تخلينا نحن عنه ـ إذ قال:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم
للنائبات على ما قال برهانا

وبعبارة مختصرة مفيدة، يبدو أن كل عمل يرمي الى قتل العرب، في أي مكان وفي كل مكان، والى خراب ديارهم، وتدمير كيانهم، واحتلال أرضهم، وتشريدهم واذلالهم، يحظى بسهولة بالموافقة «الاجماعية» من الزعامات الصهيونية، على اختلاف مشاربها ومذاهبها. وبعد هذا، لايزال بيننا من يستسلم لسراب الآمال الخادعة، في التوصل مع الصهيونية الى سلام دائم وعادل ومشرف. إن دماءنا هو الغذاء الطبيعي للصهيونية، وبلادنا هي مسرحها ومرتعها ومرعاها، وطالما هي لا تجد رقيباً ولا حسيباً، ولا رادعاً ولا مدافعاً، فإنها لن تجوع لنشبع، ولن تموت لنحيا، ولن تنكمش في حجمها الطبيعي لنأمن نحن ونستريح. أتريدون الدليل على هذا؟ إن اسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم، المعترف بها دولياً، والعضو في هيئة الأمم المتحدة والحليف الاستراتيجي لأقوى وأغنى دولة في العالم «الولايات المتحدة الأمريكية»، ومع ذلك فليست لها حدود دولية معلنة ومعروفة، وكل حدودها لاتزال خطوط هدنة، ومناطق محتلة، ومناطق عازلة تعسكر فيها قوات من الأمم المتحدة. . وهكذا، حتى حدودها مع مصر، التي لم تأل جهداً في التساهل والتنازل لكي تحصل منها على سلام، عدمه خير منه. ولعل كلمة ليفي إشكول، رئيس وزراء اسرائيل عام ١٩٦٧م، من أصدق

الكلمات تعبيراً عن الفكر الصهيوني ومطالبه حول حدود الدولة، فقد قال: الآن يمكن أن نتصور الشكل الجغرافي لاسرائيل، بحدود طبيعية، هي نهر الأردن شرقاً، والبحر المتوسط غرباً، وجبل الشيخ وجبال لبنان شمالاً، وخليج العقبة، وممرات سيناء جنوباً. والذي يأتيه مناحم بيغن من «جلائل» الأعمال الآن، ليس إلاَّ ضغطاً همجياً لجر العرب على وجوههم لكي يذعنوا لهذا التخطيط. ويكاد العالم المتحضر يلزم كله الصمت، غير عابىء بأن «الصمت على الجريمة جريمة»، خصوصاً من قوى رهيبة وعملاقة، يكفي أن تتمطى مرة واحدة حتى تتوقف هذه المأساة.

ولأن نظام الكون كله قائم على العدل، فإنه ما من جريمة تمر بدون عقاب. وقد يكون عقاب جريمة الصمت هذه حريقاً شاملاً يجتاح كل شيء، الى أن يأتي على أولئك العمالقة الناعمين في صمتهم الوثير، فيتحقق فيهم قول شاعرنا العربي الحكيم:

أرى خلل الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن لم يطفها عقلاء قوم ... يكون وقودها جثث وهام

كل هذه معانٍ تعمى عنها عيون السكارى بجنون العظمة، الذين يعتقدون خطأً وغروراً، ان الجرائم الناجحة تحظى لها دائماً بمبررات منطقية، على حد قول الأديب الانجليزي «درايدن». وهي مقولة قد تصدق مؤقتاً، لكنها على المدى البعيد تتطاير كالعصافة تذروها الريح.

ومع أن صمتاً ثقيلاً يلف جريمة بشعة ضحيتها ـ في الماضي والحاضر والمستقبل ـ الأمة العربية كلها، فإن هناك أصواتاً حاولت أن تعلو فخنقتها الصهيونية. كان الاعلام الفرنسي في بداية الغزو الصهيوني للبنان واقفاً الى جانب الحق والعدل والسلام، وقفة شامخة مشرقة فتدخل التآمر الصهيوني ـ في قلب باريس ـ رافعاً راية الارهاب. وقام مناحم بيغن يصيح بنقيقه المسموم، ويهدد باقامة «ميليشيات» سرية في فرنسا، وفي كل من يحذو حذوها من دول الغرب، لحماية الجالية اليهودية من الخطر، وبسرعة وضعت فرنسا «ماء في نبيذها» كما يقول الفرنسيون، وأجرت تغييراً واسعاً في أمنها العام، وفي الشخصيات المسئولة عنه، وأحضرت حاخام اليهود الأكبر بباريس ـ الربي سورات ـ ليقول في التلفزيون ان اليهود بخير في هذا البلد الأمين، يعيشون في أمان واطمئنان، وليس في الامكان أبدع مما كان. وعاد الصمت يستر الجريمة عن الأنظار، إلا ما يسدّ رمق الاعلام، ويثبت للمواطن ان في السويداء رجالاً. وفي تلك الأزمة أيضاً كانت تهمة «اللا سامية» تلقى بكل عفونتها، في وجه من لا يحترم هذا الصمت.

لكن من الذي أحكم فرض هذا الصمت؟ إنه الديكتاتور القميء مناحم بيغن نفسه. ولكي يبدو هذا الصمت «ديمقراطياً»، فقد بدأه بأمر منه شخصياً يحرم على أي وزير في حكومته الادلاء للصحف أو الاذاعة أو التلفزيون أو غيرها من وسائل الاعلام بأية تصريحات عن السياسة الكلية للحكومة، ويوجب عليه أن يقتصر في بياناته وأحاديثه على شئون وزارته فقط، لايتعداها. كما انه ـ لضمان سد منافذ الكلام ـ قد ألغى حضور وكلاء الوزارات اجتماع مجلس الوزراء. ولكي يحكم قبضته على أزمة الأمور، ويمنع الفضوليين من لوكها بألسنتهم، اختار خمسة أو ستة من أشد السياسيين تعصباً للصهيونية، وطاعة لأوامره، فجعل منهم ما يشبه «الحكومة الداخلية» على

الحكومة والشعب، على نحو يذكرنا بما كان يسمى «السنهدرين»، أو المجلس الأعلى، في تاريخ اليهود القديم، كما ان شبح «الموساد» ـ وهو جهاز المباحث السري ـ وما يتمتع به من سمعة مخيفة، من قتل، وخطف، وتعذيب، وتنكيل، قد أحكم دائرة الصمت هذه على الجميع. ولو أننا رجعنا الى بعض ملفات من تاريخ واحد من أعوان مناحم بيغن، وليكن «يجائيل يادين» مثلا، لرأينا الى أي حد تذهب رهبة هذا التعتيم والصمت في أعماق النفوس.

يادين جنرال في الجيش الاسرائيلي، وأستاذ في الجامعة العبرية، من أحسن المتخصصين في الآثار، وكان قد أنشأ تجمعاً سياسياً مرموقاً يسمى الحركة الديمقراطية للتغيير، كان الناس هناك ينتظرون من ورائها خيراً، لأن برنامجها كان أكثر جدية في العمل على التوصّل الى سلام حقيقي بين العرب واسرائيل. وأراد مناحم بيغن ان «يحتوي» هذه الحركة الناشئة، فضمها الى التكتل الحكومي «الليكود»، وجعل من مؤسسها نائباً لرئيس الوزراء، هكذا.. مرة واحدة! وراح بصبر وأناة يحول الحركة عن مجراها، ويقوم في صدر زعيمها بدور الوسواس الخناس، ويوحي إليه بأن التغيير ربما كان أسهل في أفكاره هو منه في المجتمع الاسرائيلي، وصاحبنا الجنرال الأستاذ يغوص في أوحال الليكود، ويتورط في سياسة بيغن، حتى انفض أنصاره من حوله، وانتهى عنفوانه، فأجهز بيغن على ما بقي من حطامه، باقصائه وابعاده.

في هذا الجو الاستبدادي العفن، أصبح كسر الصمت بطولة، لم تقو على المضي فيها منظمات قوية عرفت سابقاً بجرأتها وحريتها مثل «الهستدروت» ـ نقابة العمال الاسرائيليين ـ وكذلك «الفهود السود»، وهو تنظيم يضم اليهود الآسيويين والأفارقة، للنضال من أجل المساواة باليهود الغربيين، الذين يتصرفون تصرف المستعمر المتخلف الغبي، فيعتبرون هؤلاء اليهود الملونين مواطنين من درجة أدنى منهم. أما العربي الاسرائيلي، المسلم والدرزي والمسيحي، فهؤلاء يجب أن يبقوا مقبورين تحت ركام كثيف من الاهمال، والصمت، الى أن يتم جلاؤهم أو فناؤهم.

ومع ذلك فقد قامت على اثر حرب أكتوبر عام ١٩٧٣م جماعات تطالب بالسلام الآن. ولا يكاد السبب المباشر لقيامها يخفى على أحد. فالنجاح العسكري المصري والعربي في تلك الجولة، مهما وصف بأنه ضئيل، ومحدود، كان ناقوس خطر أيقظ النيام في اسرائيل، كما أن الأهمية التي اتخذها النفط في السنين العشر التي أعقبت حرب أكتوبر، كانت ناقوس خطر أيضاً أيقظ النيام في الاقتصاد والصناعة في العالم، وهكذا انتقل الوضع الممتاز الى المعسكر العربي ورأى الاسرائيليون من عامة الناس ان حروب الصهيونية ضد العرب لم تعد تشبه النزهات الخلوية التي دأبت على وصفها أجهزة التوجيه والمعنويات في الجيش الاسرائيلي «الذي لا يقهر..» وعند مجيء مناحم بيغن الى الحكم كان يظنّ ان احتواء حركة «السلام الآن» أمر هين. وما عليه إلا أن يضع تحت عيونهم وأنوفهم هذا السلام. فكان «كامب ديفيد» بكل مباذله ومهازله، خرج منه بيغن الديكتاتور ـ أكثر من اسرائيل ـ بنصيب الأسد. فهذا الرجل الذي ظل أربعين عاماً يتربّع على قمة العنف والارهاب، هو الذي وقع السلام، وبهذا الصابون الأمريكي تم غسله من كل ما كان يلطخه من الوحول والدماء، وعاد بريئاً طاهراً نظيفاً، يحظى في الانتخابات بأغلبية مريحة جداً، وبدون عناء. وخرجت أمريكا من كامب ديفيد بمصالح

ما كانت لتتحقق لها بحرب ناجحة في المنطقة . فالاتحاد السوفياتي قد تقلّص ظله عن الشرق الأوسط، والترتيبات الاستراتيجية المناسبة للأهداف الأمريكية قد استقرت - وبأبخس ثمن - في المنطقة، وتحققت المعجزة التي يحكيها سفر أشعياء، فنام الذئب الصهيوني في أحضان الحمل العربي، تحت عين الرئيس الأمريكي . أما الطرف الثالث في كامب ديفيد، وهو مصر، فإن الانتقال من حال الى حال، بهذه الطريقة غير المدروسة أو المحسوبة، قد أدى بها الى كل النتائج السلبية التي تعاني منها الآن، بعد أن دفع المسئول - المرحوم الرئيس السادات - حياته ثمناً لهذا الاتفاق.

وتأكد عزم أتباع «السلام الآن»، على اثر الغزو الذي وجهه بيغن الى لبنان، ذلك أن صاحبنا قد أصابه ضمور فكري شنيع، فلم يأت بجديد من تبرير عدوانه هذا، وإنما أطلق عليه اسم «عملية أمن الجليل». بالله هذا كلام ؟ ادفع بجيش كامل لأكثر من مائتين من الكيلومترات في قلب دولة أخرى لتأمين الجليل ؟ وأحرق صور وصيدا وبيروت ودير القمر وبيت الدين وعاليه، حتى تستريح «قرية شمونة» ؟ وأترك للقتل والأسر والاصابة أضعاف عدد السكان بهذه القرية، من المجندين الاسرائيليين، دون أن أصل الى ظل من حل المشكلة ؟ إن الديكتاتور القميء - في هذه المرة - كان قميئاً جداً، وكان شؤماً على المنطقةكلها، بما في ذلك قومه . ومرة أخرى فرض الصمت، وأرتكب أبشع الجرائم في لبنان تحت ستار هذا الصمت.

فليس عجيباً أن نسمع بقيام حركة جديدة مناوئة لمناحيم بيغن في داخل اسرائيل تطلق على نفسها هذا الاسم الصارخ: حركة أهل المجندين في لبنان، ضد الصمت.

الصمت يا بني اسرائيل . . الصمت . . وإلا فأنتم - أيضاً - من أذناب «اللا سامية» !.

ماذا عن الحب..؟

الكلام عن الحب دائماً لـذيذ، أمـا الوقـوع فيه فشيء آخـر، وأول مشاكله يتعلق بزاوية الرؤية. فالرجل يصر على أن يكون، بالنسبة لحبيبته، (أول) رجل في حياتها، والمرأة تصر على أن تكون، بالنسبة له، (آخر) امرأة في حياته. وهـذا وحده بـاب قد يؤدي الى خلافات لا أول لها ولا آخر. وبخاصة في العالم المعقّد الذي جرفته حضارة العصر الصاخبة، المتسيبة، الهشة، الكثيرة الصدوع والـرضوض. بينـما كان منـطق الطبيعة أن يكون كلا الطرفين هو (الأول والآخر) بـالنسبة لصـاحبه، الا في حـالات قليلة، ولها مبرراتها الطبيعية أيضاً، أوضحها حالات التـرمل، التي تنشـأ من عامـل قهـري يتدخـل في هذا النـظام، ولا يد لأحـد في دفعه، وهـو الموت. وهنـاك أيضـاً حـالات الخلل في النـظام العـام. فـأصـل الحب ان يكـون متبـادلاً، بنفس القـوة والحرارة. لكن يحدث احياناً ان (تطيش) سهام الغـرام، فلا تصيب أهـدافها، فيـما يقال له الحب من جانب واحد، رحمنا الله واياكم! فقد تتحول هـذه الظاهـرة ـ بكل أسف ـ إلى شيء في القلوب يشبه الحرب الأهلية في الشعوب. فهـذا عشقه كتـائبي، وذلـك درزي، والآخر اشتـراكي، وهـذه وحـدويـة، وتلك بعثيـة، وهـذا المنشق، المتنحي بعيداً، ظبي غرير، يطيع أمر العـذول.. إلى آخر هـذه الصور الحـزينة التي تثـير الرثـاء، وتجلب البكاء، وشـاعرنـا الجاهـلي الاعشى، هو الـذي استوعب هـذه التجربة المرة، وتجرعها حتى الثمالة، فوصفهـا بما لا مـزيد عليـه من الدقـة والامتاع والاطراب، في قوله:

علقتها عرضاً.. وعلقت رجلا
غيري.. وعلق أخرى غيرها الرجل
وعلقته فتاة ما يحاولها..
ومن بني عمها ميت بها، وهل
وعلقتني اخيرى، ما تلائمني
فاجتمع الحب، حب كله تبل
فكلنا مغرم يهذي بصاحبه:
ناء، ودان ومخبول، ومختبل

ولأن الحب هو أثمن مايقترن بالحياة من المعاني، لأنـه السبب المباشر في استمـرار هذه الحياة، وفي عمران العالم، فـانه يشبـه الحياة نفسهـا من جميع الـوجوه: في اللذة التي لا تنفصل عن الألم، وفي القوة الجـارفة التي يكمن فيهـا الضعف، وفي الرسـوخ الدائم مع التحـول المستمر، وفي التـألق المتجدد مـع التكرار الـلانهائي، وفي الجرأة البطولية مـع الخوف الـرهيب، ثم ينفرد بـأنه اصعب سؤال في اختيـار الحياة، وحتى الأجوبة الجزئية، ونصف الصواب، والحلول التقريبيـة، كل ذلـك صفر في امتحـان الحب، كما أن الغش في هذا الامتحان كارثـة على المتقـدم إليه، وعـلى الحياة كلهـا، ورحم الله عمر بن الفارض الذي نفض الكفين من الحب الدنيوي، راغباً في تذوق الحب الألهي، فخرج من تلك التجربـة الساحقـة بأعـذب الخواطـر عن أمر المحن، يقول مثلاً:

هـو الحب فاسلم بـالحشا.. مـا الهوى سهـل
فمـا اختـاره مضنـى بـه ولـه عقـل
وعش خـاليـا.. فـالحـب راحتـه عنـا..
وأولـه سقـم، وآخـره قتـل

وإلى الآن لم يخترع الانسان حـاسباً آليـاً دقيقاً يستـطيع أن (يبـرمج) السعـادة في الحب. لماذا..؟ لقد ألقيت هذا السؤال على ابني، وهو مهندس إلكتروني، فضحك ساخراً، وقال: لأن الحب أعمى. وصحت به: هذا يا مالك يا أبني كلام شعراء، لا كلام مهندسين! فرد على الفور: لأن الحب شعـر، وليس هندسـة!. وتذكـرت فوراً قول شاعر عربي آخر:

والحـب مـن شعـر السمـاء، فسمّـه
وحيـاً - اذا ماشئـت - أو الـهـامـاً
والحـب عـاطفـة الكـريـم تـهـزه
فيسيـل غيثـاً، أو يسـل حسـامـاً

وعـدت إلى حواري مـع مـالـك ابني، فقلت: الحب أعمى!. الحب أعمي؟.. هذه نفسها قضية تحتاج إلى اثبات. فربما كان أحـدّ بصراً من زرقـاء اليمامـة!. وربما كان أعمش، أو أعشي، أو صاحب نظارات مثلي. من يثبت لي أنه أعمى؟. فأجاب مالك بتودة: يبدو أنك نسيت التوسع المجازي في اللغة!. وقلت (في سري): نهارك أسـود!. أما هـو فأستمـر يقول: ليس الحب بـأعمى، لكن الأعمى من يقـع فيـه، وساعة يقع فيه فقط. ألم تسمع النكتة الفرنسية حول ذلك؟.. زوجـان جالسـان في مسكنهما بعد العشاء، في جلسة رضية حميمة. قالت الزوجـة في دلال وملاطفـة: قل يـاجـورج.. هـل كـان حلمـك أن تتـزوج امـرأة غنيـة، أو جميلة فـاتنـة، او ذكيـة مثقفة؟.. فأجاب الرجل، وهو شارد: أبداً ياحبيبتي.. ولذلك تزوجتك أنت.
لكني عدت أجادل الـولد، وقلت: لا يمكن أن يكـون الانسان سـاعة الـوقوع في الحب أعمى، وإلا فكيف يخلبه الجمال، وتجذبه الفتنة، وتشعل لهيب قلب غمـزات الجفون والأحداق، إن العاشق مبصر، حاد النظر دقيق الملاحظة، متجاوب مـع كل جديد من صاحبته. والشاعر يقول:
نظرة، فابتسامة فسلام، فكلام، فموعد، فلقاء.

اسمعت؟. يقول (نظرة) ولم يقل (اغماضة)، ومن قبله هذا الشاعر القديم الذي فقد صوابه من هذه النظرة، واودع تجربته هذه في بيت واحد هو بالتأكيد اجمل من كل الجميلات:

فما هو الا ان اراها فجاءة
فأبهت.. لاعرف لدي، ولا نكر

فها مالك يقول: أنا بعد اذنك ـ افهم ان الحب اعمى، بمعنى انه لا يرى العيوب، ولايستشرف المزعجات. . لا يبصر الا الجمال، والسعادة، والحياة الكوثرية الفردوسية الساحرة، اما فيما عدا ذلك فهو اعمى. . اعمى. . وعلى هذا جاء الحديث الشريف: حبك الشيء يعمي ويصم. واذا كان الضرير تقوده العصا، ويرشده مرافقه، ويهديه نور قلبه، فإن المغرم المتيم يتمرد على الناصحين ويتحدى العقل والحكمة، ويعجز عن النظر الواقعي الشامل، لان الحب، في مثل حالته هذه، سلطان مطاع، يحول عبدالله المصاب به إلى كائن (مجذوب) بمغناطيس الغرام وحده، . لا ارادة له، ولا مقاومة عنده.

وتذكرت وأنا اسمع هذا الكلام ان اليونان، في اساطيرهم الوثنية كانوا يعتقدون ان الحب لا يعلل، لانه يخضع لارادة اله ابدي يسمى عندهم (اروس)، له أخ شقيق يمارس زعامته على البغض والنفور، اسمه (انتيروس). وهما لا يمارسان نفوذهما على البشر فقط، بل تسرى قوتهما في الحيوان والنبات والجماد، والصلب والسائل والغازي، ويقولون ان العسل يذوب في الماء لأن اروس قد الف بينهما ولكن الزيت لا يذوب في الماء لأنهما يخضعان لما اراده انتيروس من التنافر والانفصال. اروس يقرب، ويربط، ويمزج، ويجزىء، وينوع، ويؤمن التكاثر والتوالد والتفاعل. واخوه يتدخل ليمنع الفوضى في كل ذلك، فلا يمكن التزاوج بين الناس والبهائم، ولا بين الطيور والزواحف، . ولا يقع التمازج بين النهر العذب الفرات، والبحر الملح الاجاج، ولا الاندماج بين الليل والنهار، او النبات والنار. أي ان اروس خاص بالزواج، وانتيروس بالطلاق، في الخليقة جمعاء.

وعندما بدأ اهل الكتاب يصلون سراً من الشرق إلى الامبراطورية الرومانية، قبل الاسلام بنحو خمسمائة سنة، كان دعاتهم يجلسون في الاسواق، ويعلمون اولئك الكفار الايمان بالله الواحد، ونبذ هذه الاساطير، وما بها من شرك وضلال. قال الراوي: وكان القيصر الروماني هو واسرته واتباعه يكرهون اولئك الدعاة، ويسخرون منهم ويضطهدونهم. وذات يوم مرت ابنة القيصر بحلقة واحد من اولئك الحكماء، ووقفت تسمع. وكان الرجل يشرح للناس ان الله خلق السماوات والارض في ستة ايام. فقاطعته ساخرة: . وبعد هذه الايام الستة، ماذا يفعل حتى يومنا هذا؟ وقال الشيخ: اشياء لا حصر لها ـ يامولاتي ـ لاجل تدبير هذا العالم. . اشياء كثيرة جداً!. وصاحت الاميرة: دعنا من هذا التعميم الخطابي، واذكر لي مثالا واحداً من اعمال الله بعد انتهاء الايام الستة. فسألها الرجل الحكيم: هل انت متزوجة؟: قالت: لا! قال: حسن! انت ابنة حاكم الدنيا كلها، لا تدانيك امرأة تحت السماء في الجمال، والعلم، والغنى، والجاه. . ومع ذلك فإنت لم تتزوجي إلى الآن، لان الزواج من اعمال الله. . فردت الاميرة: كلام فارغ! فعندي في القصر

المئات من العبيد والجواري، وأنا استطيع الليلة، بجرة قلم، ان ازوجهم جميعاً، بدون انتظار تدبير الله الذي تتحدث عنه!. قال الحكيم بهدوء: لا! لن تستطيعي!. وانطلقت البنت وهي تصيح: سوف ترى!. وما ان وصلت إلى قصرها حتى طلبت قائمة باسماء العبيد والجواري، وراحت تعلم بالقلم: فلان لفلانة، هذه لذاك.. وهكذا. وامرت بزفافهم جميعاً في تلك الليلة. وافاق الامبراطور في الصباح على ضجة وهياط ومياط تحت شرفته، واطل فرأى مظاهرة من العبيد والجواري، اكثرهم مجروح او معضوض او مرضوض او مكدوم او مشروخ، واخذ بعضهم بتلابيب بعض يصيحون: الطلاق.. الطلاق الأميرة تهز رأسها بأسى، وتتمتم وهي بجانب ابيها: صدق الحكيم الشرقي.. ان الزواج من عمل الله!. ومع ذلك يتدخل فيه الناس: الزوج او الزوجة او بعض الاهل والاصحاب، او كل اولئك جميعاً، فيفسدونه ويدمرونه.

لكن.. ما علاقة الحب بالزواج..؟ انها علاقة معقدة جداً، ومحفوفة بالاهوال. ولعل الذين يرون ان الحب الذي ينشأ بعد الزواج اصح واثبت من الحب الذي يقود إلى الزواج، يجدون مصداق رأيهم هذا في حالات كثيرة، وفي اقوال مأثورة عن كثير من المفكرين، في مقدمتهم الشاعر المسرحي الفرنسي موليير، الذي يحرص الناس على تريد قوله ان الحب غالباً ما يكون ثمرة الزواج. كما يؤكد ذلك قول الاديب البريطاني صمويل جونسون: ان الذي يتزوج عن حب، هو عادة انسان ضعيف. وتعلل ذلك الكاتبة الفرنسية مدام دي ستيل بان الحب أمل، والزواج واقع، وانها للحظة قاسية تلك التي يضع فيها الواقع نهاية للامل. وان كان تصحيح هذه الفكرة موجوداً في مقالات المفكر الفرنسي مونتاني، اذ يشير إلى ان الحب شيء، والوقوع في اسر الجمال شيء آخر، الحب روحاني سام، والوقوع في اسر الجمال شهواني وضيع، وكثيراً مايقع الخلط بينهما، ويشرح ذلك حين يكتب: لا ارى زواجاً اسرع إلى الفشل، او اشد تعاسة، من ذلك الذي اغرى به الجمال، وبعثت اليه الشهوة.

يا ويح ابن آدم في متاهات الحب هذه! حيث تختلط البهيمية بالملائكية، وتتشاجر مفاتن الجسد مع جمال الروح، وتتشابك قسوة المجتمع، وسيطرة التقاليد، بخفقات القلوب، ورفرفات العواطف، تتناطح الاعباء المادية، بما تنطوي عليه من مطامع واهواء، مع النزوات الوجدانية التي تتجاهل الماضي والمستقبل، لانها تعيش في الحب وحده، الذي لا يمكن ان يكون الا حاضراً دائماً متجدداً.

وكل هذه الاهوال، لو ان الله سلم، ونجا الحبيبان من نفسيهما، فلم يشترط الفتى ان يكون اول الداخلين إلى قلب الفتاة، ولم تطالب هي بان تكون آخر الساكنات بين جوانحه ولم يكن هو يرى أنها (واحدة) من بين من تضمهم هذه الجوانح، بينما تصر هي ـ وهذا حقها ـ ان تكون «وحيدة» في مثواها هذا. وليست تلك الا قليلا من كثير من البلايا الكامنة الرابضة على دروب القلوب. ثم ان القلوب نفسها تتقلب، وما كان فيها بالامس ناراً ونوراً قد يصبح غدا سواداً ورماداً. وفي شعر العالم كله آيات بينات ناطقات بالشكوى من هذا المصير. فهذا شاعر عربي قديم، نفث آلامه في ابيات غناها المطربون منذ أكثر من الف عام.. يقول:

فلو كان لي قلبان، عشت بواحد
وخلفت قلباً في هوال يعذب
ولكنما احيا بقلب مروع
فلا العيس يصفو لي، ولا الموت يقرب
تعلمت اسباب الرضا خوف هجرها
وعلمها حبي لها كيف تغضب
ولي الف صوب قد عرفت مكانها
ولكن، بلا قلب، إلى اين اذهب؟

وقله يقول الشاعر اللاتيني مارسيال، الذي عاش في اسبانيا منذ مايقرب من الفي سنة.

أنا لا اطيق العيش معها، ولا الحياة بدونها.

وشكسبير يقول في احدى مقطوعاته الغنائية:

عندما تحلف حبيبتي انها مخلوقة من صدق ووفاء
فانني اصدقها، مع علمي بان ماتقوله كذب ورياء

ومن قبله يقول شاعر من شعرائنا الاقدمين:

كل انثى وان بدا لك منها
صادق الود، حبها خيتعور

والكلمة الاخيرة بجرسها الصوتي، ومكانها من المعنى العام، تفيد الكذب والرياء والتغير وعدم الدوام، وان كان اللغويون منذ ابي العلاء المعري إلى الاب انستاس الكرملي قد حاولوا ان يعرفوا منها، وراء هذا المعنى العام، ودلالة مادية محددة واغلبهم قال ان الخيتعور نوع من عنكبوت الماء، يرسل خيوطه براقة في وهج الشمس حتى تتعلق ببعض النبات المجاور للماء فترقى عليها الحشرة، وكل هذا، اذا هب بعض النسيم، ذهب مع الريح. ومعذرة في هذا الاستطراد اللغوي، فنحن في (الكشكول)، وهو كقلوب العشاق، يتحمل الكثير.

اما ما ذكرته هنا عن الحب، فانه ليس الا تشجيعاً للدارسين والباحثين على الاهتمام بهذا الجانب الخطير من نواميس الطبيعة، ودوافع الحضارة والعمران. فهو في آداب جميع الامم وفنونها احد العمد التي ترتكز عليها، وهو في تراثنا العربي والاسلامي كنز لا يفنى، تناوله الامام ابن حزم في كتابه الرائع (طوق الحمامة في الالفة والآلاف)، كما عالجه الطبيب داود الانطاكي الغدير في (تزيين الاسواق وبتفصيل اشواق العشاق) وابن السراج في (مصارع العشاق) وغيرهم.

لكن جاء فرويد في هذا الزمن الوغد فربطه محكماً بالجنس. ونقل ذلك إلى عالم الطب النفساني، والتحليل العصبي والسلوكي، فكاد اهل الفن والادب ان يتركوه لمصيره السيىء معتقدين انه لم يعد يدخل في اختصاصاتهم. فظلموا الحب وظلموا الفن والادب ايضاً، ونسوا قول ابن الفارض:

اهفوا إلى كل قلب بالغرام له
شغل، وكان لسان بالهوى لهج

وكل سمع عن اللاحي بطه صمم
وكل جفن إلى الاغفاء لم يعج
لا كان وجد به الآماق جامدة
ولا غرام به الاشواق لم يهج
عذب بما شئت - غير البعد عنك - تجد
اوفى محب بما يرضيك مبتهج
وخذ بقية ما ابقيت من رمق
لا خير في الحب ان ابقى على المهج

الأدعياء

إبليس ـ والعياذ بالله ـ هو المعلم الأول لجميع الأدعياء من ذرية آدم وحواء. لأنه يعلم ان ادعاء الانسان ما ليس فيه يجمع من الرذائل ما تظل تعده وتحصيه، ثم تكتشف ـ في النهاية ـ انك نسيت أشياء وأشياء. ففيه الغرور، والكذب، والشعور الخفي بالضعة، والتصنع في الظاهر، والاستهتار، والوقاحة، وما لا ادري، ولا اريد أن استرسل في سرده، حتى لا اخدش الآذان المرهفة، وكفاها ما تلاقي في حوار بعض اشرطة التلفزيون. ويعلم ابليس كذلك ـ وبتجربته الخاصة ـ ان الادعاء هو الذي اوقع عليه اللعنة، وطرده من رحمة الله. اخذته النعرة العنصرية، فرفض الأمر الإلهي بالسجود لآدم، هذا الضعيف المخلوق من الطين. وكيف يسجد له بكل ما امتاز به من اعراق نارية متألقة ،متأججة.؟ ويبدو أنه منذ ذلك الوقت قد آلى على نفسه ان يخرب بيوت بني آدم، وعقولهم، وقلوبهم، بايصال عدوى مرضه الوبيل ـ الادعاء ـ اليهم.

ولكثرة الادعياء بين البشر، اصبح الشاذ، والغريب، والخارق للعادة، هو ذلك الانسان الذي يحرص على ان يكون هو هو (أو هو اياه) حيثما وجد، وفي كافة الظروف والاحوال. بينما الآخرون هم الأغلبية الساحقة، ويكادون يكونون القاعدة التي يقاس عليها. الرجل الجسيم الوسيم الذي يأتي الى ندوة عامة، او يحضر لموعد ما في فندق من افخم الفنادق، فلا يجلس حتى يتحسس الكرسي باطراف انامله، ثم يمتعض، وينفض صفحة المقعد بالجريدة التي في يده، وهو يهز رأسه بأسى، او ينادي بالخادم ليمسحه، بينما الكرسي بريء من كل شائبة! واذا حيا اشعرك بانه يتصدق عليك بهذه التحية، وانه يتنازل ويتواضع بتبادل كلمة مع مثلك من المخلوقات الفانية. والمرأة التي تراها في مجتمعات كثيرة في هذا العالم، الذي اختلط فيه الحابل بالنابل، وقد اخذت زخرفها وتزينت، واشمخرت، واسبكرت، وراحت تتهادى في هالة من العطر ووميض الحلي الزجاجية، لا تتحدث الا عن قصرها، ومصفف شعرها، ومصمم ثيابها، وسياراتها، وزوارقها، وخدمها، وحشمها. فاذا ما بحثت فمن المرجح ان تكتشف (أن صاحبنا الاول هيان بن بيان (يعني نكرة لا يفيد فيها

التعريف)، وان الجريدة التي بيده غالباً ما تكون للتعمية على أمية مزمنة، من المهد الى اللحد، واما الأخرى. . آه. . ستكتشف بالتحري انها بدأت مستقبلها الزاهر خادمة في بعض الملاهي، او حتى ما دون ذلك، وذات ليلة اصيبت الراقصة الأولى هناك بأزمة حادة في المصران الأعور، فالبسوا صاحبتنا ملابسها، وامروها ان تبتسم، وتهتز، وتترجرج، وتنثر شعرها المستعار، تحت طوفان الانوار، بينما الموسيقى الصاخبة المتشنجة تواري الأخطاء، وتشحذ من أسنة الاغراء. وفي النهاية تنحني، وتلقي بحفنات من القبل على البهو الكبير، الغاص بالسكارى من سمار الليالي. وفي غفلة من الزمن تألقت البنت في سماء النجوم، وسطع اسمها في كل الاعلانات، الفنانة الكبيرة (دينارزاد)، بينما اصبحت (نفيسة الخدامة) نسياً منسياً.

ولعل هذا النوع من الأدعياء هو اقلهم خطراً. لأنهم على كل حال لا يصطادونك في شباكهم الا اذا اتجهت أنت - طائعاً مختاراً - لتهوي في هذه الشباك. اما اذا راقبت الأمور من بعيد، فقد تعاني من بعض الثورات العصبية على هذا التظاهر الغليظ المزعج، ولكنك لن تعدم بالتأكيد كثيراً من المواقف المضحكة المسلية، خصوصاً عندما يكون الكلام عن الفن او العلم او الثقافة. وأذكر انني وجدت، بالصدفة، في لجنة اختبار لبعض المرشحات للعمل في فرقة من فرق الفنون الشعبية، في بلد عربي. وراحت احدى المتسابقات تندب (انحطاط) الوسط الفني، وما يعانيه من فقر في المعلومات، وضيق في الأفق. ربما - يا دكتور - لأن هؤلاء البنات يخرجن من عائلات. . يعني. . الله أعلم! وعلى فكرة - يا دكتور - كنت اريد ان اسألك عن سعال شديد يداهمني عندما اقوم من نومي صباحاً. . وقاطعتها لأشرح لها انني لست طبيباً. . فقاطعتني صائحة: فهمت. . أنت دكتور بيطري!. - لا يا سيدتي، انا دكتور في الحضارات الشرقية القديمة!. فصاحت: يا روحي!. ان شاء الله تترقى وتدخل في الحضارات الجديدة!. وضحكت اللجنة كلها كرجل واحد!. ثم القى عليها احد الاساتذة مطلع الموشح الأندلسي: جادك الغيث اذا الغيث همى. . . وطلب منها - لا أن تغنيه - وانما ان تشرح معناه. وعلى مدى ربع ساعة لم تتوقف هذه (العبقرية) عن الكلام، الذي لا يمس هذا النص من قريب او من بعيد. تكلمت عن النيل، وبيع القطن، وعمدة القرية، واسرائيل - يبتليها ربنا بقصف رقبتها! - وأغاني عبدالحليم، يا عيني عليه، والليل هادىءوساكن!. . وابتسم ممتحن آخر وقال: يظهر ان الاستاذة (رومنتيكية)؟. فراحت تهز رأسها رفضاً وانكاراً، وتقول: لا. . لا. . اعوذ بالله! انا مسلمة وموحدة، يابك!. . لكن كل المسألة أني (أتثقف) اكثر من غيري!.

والأدعياء موجودون في كل المجتمعات، وعلى جميع المستويات، لأن هوس الانسان بأن يبدو غير ما هو في الحقيقة، لا يقف عند حد. بل ان المحرومين من هذه (الانطلاقات) قد اخترعوا ما يسمى بالحفلات التنكرية، لاشباع هذا الهوس. يلتقون للعشاء والسهر والرقص وسماع الموسيقى، وقد ارتدوا ازياء، ووضعوا اقنعة، تقطع الصلة بينهم وبين الزمان والمكان. وذكر بعض رواد تلك الحفلات انه رأى هناك من تخفى في هيئة مضخة بنزين، ثم حضرت زوجته وقد اتخذت شكل خزانات الماء المعروفة!. . والتي تنكرت في زي ساحرة عرافة، واصرت على ان

يتقمص صاحبها صورة عفريت يطيع امرها، ويضع نفسه رهناً لاشارتها. وفي باريس، فاجأ احد المدعوين الى حفل مثل هذا جميع الحاضرين بأن دخل.. «عريان».. كيوم ولدته امه! وصاحت ربة الدار: ماهذا؟.. فأجاب: آدم!.. قالت: كان ينبغي أن تتستر، ولو بورقة شجر!.. قال: انا مازلت أعزب ياسيدتي، اعني انني ما زلت في مرحلة ما قبل حواء!.. وبعثت العرافة الساحرة بزوجها الشيطان، ليسحب هذا (الآدم) المزيف الى الخارج. وظن الحاضرون انه مشهد تم اعداده للمناسبة، لولا ان سمعوا الصياح والوعيد والتهديد يعلو بين الجني والمجنون. وقلت لصاحبي الذي يروي لي هذه الوقائع: عجباً! كلهم ادعياء، حتى من لا يتخفى بشيء؟ قال: هذا على الخصوص، ومن يقتدي به من الرجال والنساء، كلياً او جزئياً، لا مبرر لهم الا الخروج عن المألوف، واثارة الفضول والتساؤل بمداومة الطرق على اعصاب الناس، بالعجائب والخوارق. والمعجم العربي يشهد على ان العرب ـ منذ اقدم العصور ـ كانوا يمقتون الادعاء، والظهور بمظهر الشاذ، ويفضلون عدم الاهتمام بمخالفة ما عليه الناس، حتى استعملوا للخير والشر كلمتي (المعروف) و (المنكر).

وفي كثير من المجتمعات القديمة، البدائية، كان قادة المعارك يبالغون في الزينة، ويتأنقون في زخرفة اسلحتهم وثيابهم، والراية المرفرفة على رؤوسهم، والسرج واللجام والركاب التي يمتطون بها خيلهم، مما جعلهم هدفاً واضحاً، وصيداً سهلاً لرماة السهام من جند الأعداء. فكفوا عن ذلك، وأصبح رئيس الأركان في الجيوش الحديثة، اذا نزل لتفقد الميدان، لم يميز نفسه عن اي مقاتل من أفراد جنده. قال الراوي: ويشهد التاريخ العسكري لليهود القدماء، بانهم اتقنوا لعبة التخفي هذه بشكل مدهش. وكانت جواسيسهم ـ وما زالت ـ تدخل في كل المجتمعات، وتروح وتغدو بأخطر المعلومات، لا يكاد يفطن اليهم احد، لدقة ما يدبرونه للتعمية والتخفي. ذلك انهم في كل مرة استطاعوا فيها ان تكون لهم كلمة في منطقة الشرق الأوسط، انما كانوا يجلبون بها على انفسهم المقت والكراهية والعداوة من جميع جيرانهم، الى ان يقع فيهم الطرد والتشريد.

وفي غضون القرن السابع قبل الميلاد اتفق ملك يهود الجنوب، يوشافاط، مع ملك اسرائيل في السامرة، آخاب، على الزحف على (راموت جلعاد) جنوب سوريا، وتدميرها. فقال ملك اسرائيل ليوشافاط: انا اتنكر وأتقدم الى الحرب. واما انت فالبس ثيابك... وأمر ملك آدم آرام (سوريا) رؤساء مراكبه الاثنين والثلاثين قائلاً: لا تحاربوا صغيراً ولا كبيراً، الا ملك اسرائيل وحده. فلما رأوا يوشافاط (ملك الجنوب) قالوا: لا شك ان هذا هو ملك اسرائيل! ومالوا عليه ليقاتلوه، فصرخ. ورأى رؤساء المراكب انه ليس بملك اسرائيل، فرجعوا عنه. وفي ذاك الوقت كان آخاب، ملك اسرائيل، يمشي بين الصفوف متنكراً في زي واحد من اولئك الفقراء الذين يؤدون بعض الخدمات بين الجنود في الجيوش القديمة، كتنحية الجرحى من الميدان، وتوزيع الماء على المقاتلين.. ونحو ذلك. فأصابه سهم طائش لم يكن مصوباً نحوه عمداً، فقتله. فنودي في جيشه عند غروب الشمس: لينصرف كل انسان الى بلده، وكل رجل الى أرضه! وكانت هزيمة منكرة، رواها سفر الملوك

من كتب اليهود المقدسة، لأن آخاب كان ممن يضطهدون الأنبياء، ولا سيما نبي الله إلياس. كما انه احب الخيل والعربات والقصور والنساء، واسلم قياده لامرأة كافرة، هي زوجته ايزابيلا الفينيقية، فطغت في الأرض، واستخفت بوحدانية الله، وبنت معابد الشرك في كل جنبات اسرائيل. ولعل هذا الطرف من شجون الحديث يفتح شهية بعض الشباب لدراسة متأنية للدور الهدام الذي لعبه بنو اسرائيل في منطقتنا هذه على مر التاريخ.

ولعل أعظم الحفلات التنكرية، التي تشبع شهوة الادعاء عند البشر، هي التي يطلق عليها اسم (الكرنفال). وهو في الأصل اسم لاتيني معناه «عيد اللحم». وبعد ان انتشرت المسيحية في اوروبا، حددت الكنيسة له يوم الثلاثاء الذي يسبق الصوم الكبير عندهم. ويقع عادة في اواخر الشتاء (في شهر فبراير من السنة الافرنجية، وهو شهر شباط عند السريان) لكن كان هناك كرنفال اقدم من هذا هو كرنفال ذكرى «استير»، وهي امرأة يهودية بارعة الجمال، يعدونها بين كبار أنبيائهم، لدرجة ان قصتها تحظى بحق السكنى في كل معبد يهودي في العالم، في نفس الخزانة التي تضم توراة موسى. عاشت هذه الفاتنة في القرن الخامس قبل الميلاد في ايران، تحت رعاية قريب لها اسمه «مردخاي». وفكر صاحبنا هذا في مشروع (استثمار) لجمال قريبته. لكن كيف العمل والملك احشويروش لاه عن الدنيا بملذاته، ووزيره هامان هو الذي يأخذ بالزمام، وهو رجل ايراني متعصب، من ائمة اللاسامية، يقتل اليهود في كل مكان، تساعده زوجته «زارش» وأبناؤه العشرة. وذات يوم علم مردخاي بأن احشويروش سيخرج في كامل ابهته للاحتفال بيوم «النيروز» ـ وهو رأس السنة الفارسية. فاعد للحسناء «استير» ثياباً فاخرة جداً، تضاعف من فتنتها وجمالها، وأوقفها على طريق كسرى، وأوصاها بان تكون (لطيفة) معه، وان تخفي عليه اسمها اليهودي «هاداسا» فلا تذكره ابداً. وإنما تذكر اسمها الفارسي «استير»، وهو اسم براق متألق، معناه الكوكب، ونجمة الزهرة على الخصوص. وترك مردخاي الباقي لفطنة «استير» ولباقتها. وتوقف الامبراطور الايراني امام هذه الدرة اليتيمة التي تلألأت في عيد النيروز، ولم يستطع عنها صبراً، قال: من أنت؟ قالت: مملوكتك آستير! ثم ارتفعت الكلفة، فدعت استير الملك الى وليمة، ودعاها هو في اليوم التالي لمنادمته في القصر. وكان قريبها مردخاي قد دبر امراً: هو ان يطرق باب بهو المنادمة في الهزيع الاخير من الليل، والانسجام الكسروي في ذروته، فتسرع استير نحو الباب، وتأخذ من مردخاي صكاً، ثم تقول ـ كذباً ـ انها شكوى من مواطن شريف ضد هامان الطاغية!. وفي سلسلة من المغامرات يصل الخوف بهامان الى ان يدخل مخدع استير مستجيراً، باكياً، مقبلا يديها وقدميها، وهي تتملص وتنتهره وكأنما تدافع عن نفسها ضد رجل يحاول اغتصابها. الى ان سمع الملك فأسرع وأصدر امراً بتعليق هامان وزوجته واولاده وحزبه في المشانق وهكذا انتصرت استير وقريبها مردخاي. وادخل كهنة اليهود هذه الاسطورة في عبادتهم، وجعلوا لها عيداً ضخماً جداً هو «بوريم» اي عيد «الحظ» او «الكرنفال» واوصوا اتباعهم فيه بالاكثار من السكر والعربدة، جرياً على سنة استير وكسرى. والى يومنا هذا يرى المشاهد في تل ابيب، وفي كل حارات اليهود في العالم، المشانق تنصب، وتعلق في حبالها الدمى

البشعة المنظر: هامان وزارش، وأبنائهما العشرة، وأعوان هامان، بينما يتهادى الموكب المنتصر، تتقدمه استير الفاتنة، مردخاي، وكسرى احشويروش، وسط الطبل والزمر، ورقص البنات، وترنح السكارى! . وقد شهد مؤرخو المسلمين هذه المظاهرات الخليعة، وجروا على تسميتها «عيد المسخرة» . وهو كما نرى كرنفال الحقد والكبرياء اليهودية الجوفاء .

وأدعياء الفكر والأدب كثيرا ما يخرجون علينا بمثل تلك العربدة، تكاد ترى فيها التخبط الذي يصيب السكارى، والمشانق الوهمية تتدلى منها الدمى من التبن والقش، وتثور حولها ضوضاء الأنغام المتخبطة المتشنجة، وتتجلى فيها الفتنة الجارفة التي تشيعها من حولها احدى وريثات استير.

ونفس «المسخرة» تطالعنا في دنيا السياسة والاجتماع، وكأن العالم اجمع كان واقفاً على باب كسرى واستير، يحمل كل واحد شمعة، وينتظر المذبحة الكبيرة . وكأن الأدعياء والمتسترين، المتنكرين، قد آمنوا بهذه الخرافة، ونسوا الحكمة القائلة: الحق ابلج، والباطل لجلج . وعلى باب استير تهاوت بيروت، وتشاجرت منظمة التحرير الفلسطينية مع نفسها، بينما وراء الباب ليلة من ألذ ليالي الوصال! .

والأدعياء ما يزالون يحملون الشموع . . وإستير تقول ساخرة: العاقبة عندكم في المسرات! .

... والأدب.. هل تذكرونه؟...

الأدب هو تألق الروح الانسانية في شفافية الكلمات او انا احسبه كذلك على الأقل. ويبقى بعد ذلك ان نعلم ان الروح هي العنصر الخالد من البشر اما الباقي فتراب يعود الى التراب. فاذا سرى وميض الروح على اللسان او القلم، ارتفع الكلام الي آفاق الخلود. وهذا هو الادب. لا يبلى، ولا يتحلل ولا يتعفن. بل يأخذ له مداراً في افاق العقل يسكب على اجيال الناس الدفء والنور، والأمن والأمل.

وعندما يصل الادب الى هذه الذروة. نجده يحتضن وحدة الوجود ويضم اطراف اللانهاية ويبقى كما تبقى الشمس والقمر. لكن من ذا الذي يستطيع فهمه والتجاوب معه في ذرى عليائه تلك؟ لا أحد. . وكل الناس، في آن واحد. لا احد يقدر على احتوائه بكامل ضيائه وبهائه. وكل الناس يصيبون منه مع ذلك قدراً معلوماً من البهاء والصفاء. ومن القوة الدافعة المحركة، ومن الترياق الشافي من سموم الكثافة والعتامة والقناعة البلهاء. والزمن وحده هو الفيصل في خلود الأدب. لا النقاد ولا الناشرون ولا الجوائز القومية او العالمية.

فماذا يفعل الزمن؟ انه يدير بلورة العمل الادبي على وجوهها المختلفة فاذا هي تلمع لكل جيل بشعاع يعرف لونه ويرتوي بمائه، ويجد فيه هداه، ولكن الأدب يمثل مزيجاً متوازناً جداً من المحلية والعالمية ومن تجربة الآن وقانون اللازمان، فانه ـ في هذا المستوى ـ يحتاج في تذوقه وتمثله والعيش فيه الى فطرة حادة الفطنة، والى علم واسع وعميق والى مرونة فكرية مثقفة مدربة تسايره بصبر، وتحاوره بلباقة وتفهمه بألمعية. بل قد تحتاج الى خبرة كاملة بالبيئة التي نبت فيها، واحاطة شاملة للزمان الذي شهد مولده. والا بقيت اشعته الساحرة مجرد بريق يخطف البصر. ولا يعني شيئاً. ويحضرني في معرض هذا الخاطر نص صغير من (الفيدا) الهندية، في جزئها المشهور باسم: (ايزا اوبانيشاد) وهو من اسهل نصوصها، ويرجع تاريخه الى نحو الفين وخمسمائة عام. يقول:

في عمايات الظلام يدخل اولئك الذين يؤمنون بالجهل

وفي ظلام اشد كثافة اولئك الذين يتباهون بأنهم يعلمون فقد قيل لنا ان ضالتنا المنشودة تختلف عن هذا الجهل وذاك العلم.

نعم هذا ما حفظناه عن شعرائنا الذين كشفوا لنا عنه النقاب .
الجهل . . والعلم . . ان الانسان الذي يفهم ان ضالته المنشودة تكمن في كليهما جميعاً .
يتجاوز بشاعة الموت بالجهل، وبالعلم يصل الى الخلود. ويقف عالم الادب المقارن (ليون تورس) امام هذا النص متسائلا :
ماذا يمكن ان يعني هذا الكلام للانسان الغربي، الغريب على الثقافة الهندية ؟
ثم يحذر من الغرور الذي يغري بعض الغربيين بادعاء الفهم لما يفهمون، وما لا يمكنهم ان يفهموه، ويقول ان هذا الادعاء لا يقل خطورة وحماقة عن السلبية المطمئنة التي نادى بها البريطاني (كيبلنج) في شعاره الشهير : الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا .
واذا كان للادب رافدان احدهما زمانه ومكانه، والآخر هو جوهر الانسانية في اخص ما يميزها . فان استحالة اللقاء بين أدب الشرق وأدب الغرب حكم سطحي جداً . صحيح ان كل أدب اجنبي يحتاج في عقد الصلات الحميمة معه الى تلك الارادة الراسخة المتأنية . التي تساعد على فهمه كما قلت . لكن ذلك امر ضروري في غير الادب ايضاً . اذ هل نظن مثلاً ان الشاب اذا ما تزوج بفتاة يصل الى هذا الامتزاج الروحي الكامل بها منذ ليلة الزفاف ؟ الامتزاج الجسدي نعم، اما الآخر فانه يحتاج الى وقت . وجهد وصبر ومرونة، والى توفيق من خالقهما ايضاً . وهكذا الحال في كل علاقة تنشأ بين طرفين حتى علاقة الفارس بجواده . والسائق بسيارته والربان بسفينته، كل ذلك لا يمكن ان يتم من اول وهلة .
والأدب كلام المفروض فيه ان يتفاعل مع روح القارىء، وعقله وقلبه . ولذلك فان مسؤولية القارىء عن حياة الادب وموته لا تقل عن مسؤولية الكاتب . فالكاتب يودع ذات نفسه في الفاظ وينتظر من قارئه ان يندمج فيها . وان يقبل عليها اقبال المدعو الى وليمة فاخرة . اذا حضرها وهو متخم او ممعود او مشغول كاسف البال، لم يستطع التمتع بها . ولا تقديرها حق قدرها . وهذا في الأدب امر خطير، لان انتاجه لا يهدف الى الاشباع والامتاع فحسب، بل يريد ان يحرك وان يهز وان يوجه وان يفجر عملاً جليلا يغير من حياة الناس . او كما يرى «مينكن» ان الأدب العظيم هو، في المقام الأول، ثمرة تساؤل العقل المتمرد على اقصى درجة تستطيعها الالفاظ . وليس معني ذلك - وقانا الله واياكم السوء - ان الادب لابد ان يكون، دائماً وابداً . كلاماً معقداً . ثقيلاً . متجهماً، سيء العشرة . شرس المحضر . بالعكس . ربما كانت كلمة موجزة لطيفة تنطوي على اغوار بعيدة من دقة الملاحظة . بل لقد تبدو في ظاهرها سطحية بلهاء . بينما وراءها من التجربة ما وراءها . فمن ذلك ما رواه ابن الجوزي من ان اعرابياً بكر بالوصول الى الكعبة قبل ان يهوي اليها جمهور الحجاج الهائل . فتعلق باستارها قائلا : يا رب اغفر لي قبل ان تدهمنا زحمة الناس ! فهذا البدوي يرى ان تكاثف الحجاج . وزحمتهم وضغطهم، وما يسببونه بعضهم لبعض من ضيق ومشقة، من الأمور التي تتعارض مع خلوة روحية حميمة بين العبد وربه . بل قد تحول بين هذه الجماهير المتدافقة في فوضى قاسية . وبين الظفر بالمغفرة التي يتيحها حج مبرور، لا رفث فيه ولا فسوق ولا عنف . لكنه عبر عن فكرته بايجاز . وبساطة، وبصيغة فطرية بدائية . ان اعوزها البناء الفني

المعقد فقد اغناها عنه هذا الصدق العميق الذي لا يشوبه ادنى افتعال. وقد انتقلت هذه التلقائية الطبيعية من أهلها البسطاء، فصارت هي ايضاً من اساليب الادب الرفيع التي لا تتيسر بسهولة لكل من شاء. واحياناً تأتي السانحة على لسان اولئك السذج على كثير من المبالغة، ولكنها تظل مفهومة وجميلة، فمن ذلك ان اعرابياً كان يمتدح نخله لديه فقال: فيها تمر، تضع التمرة، في فيك فتبلغ حلاوتها الى كعبك! . وهو كلام لطيف. لا يمنع ما فيه من اغراق، من فهمه بوضوح.

والموهبة وحدها لا تكفي للانتاج الادبي الخالد. وسيقول بعض النقاد: وهل كان الجاهليون من اصحاب المعلقات وغيرهم من فحول هذا الفن مثقفين؟ . . نعم لقد كانوا مثقفين واسعي الثقافة، وفي ايامهم لم تكن الكتب ولا الاذاعة والتفلزة والاشرطة المسجلة قد عرفت بعد - لحسن حظهم - بل كانت ثقافتهم سماعية توفيقية عمادها الاسفار والرؤية المباشرة للبلاد والناس، وحضور المجامع والاندية والاسواق. والانصات للرواة والقصاصين، والمنافسة في الشعر والخطابة وحمل مسؤولية القبيلة كلها في السلم والحرب.

كان الكثير منهم يزود بلاد الفرس والروم، ويسافر الى مصر والشام واليمن والحبشة وكان جل اعتمادهم على الذاكرة، التي تغنيهم عن الاوراق والوثائق والصكوك. يحفظون في ذاكرتهم انسابهم، واعيادهم، وايامهم، وديونهم، ومواعيدهم، كما يودعونها ما اعجبهم من شعر، وما عركهم من تجارب، وما استهواهم من قصص واسمار وامثال، وما اسر البابهم من تباريح العشق وليالي الوصال. وكانوا يطلعون على ما تجلب القوافل من منتجات اجنبية وما يعرض في الاسواق من طرف الاسلحة والملابس والعطور والمعادن والجواهر حتى يعود الواحد ممتلىء العقل والقلب بكل ما رأى وسمع. اليست هذه ثقافة؟ بل اين منا مثلها في مقررات المدارس، ولدى كثير ممن يسمون انفسهم اليوم (مثقفين)؟

ولا اريد بهذا ان امنح الاستاذية المطلقة لامريء القيس وزهير والاعشى، ولا لابن المقفع والجاحظ والبديع والهمذاني، بل ولا لطه حسين وميخائيل نعيمة وشوقي. ذلك ان حياة الناس متغيرة دائماً متطورة متجددة. وانا عندما اتزود من هذه الينابيع ومن اخرى في العام الكبير. انما اريد ان احصل على اوفر حظ من الثقافة، والمعرفة، والخبرة بطرائق التعبير والتحرير والدراية بوجوه التصرف عند المعاناة. اما الادب المطلوب مني ان انتجه فلابد ان يكون مختلفاً لكي يكون توجهه الكامل الى زمني انا، والى الناس المحيطين بي، والى الهموم الثقيلة التي تجثم الآن على صدر امتي. وانا لا اراه الا ادباً فدائياً حراً جريئاً مقداماً. لا يهاب في الحق لومة لائم، ولا يهرب من مواقف النضال مؤثراً الغزل بعيون الغزلان، او المراودة البهيمية في اهازيج متدفقة من الحانات والمواخير، او التقوقع في قدرية سلبية على طريقة الدراويش والمجاذيب، فكل هذا خير منه السكوت، الا القليل القليل، كالملح في الطعام.

ويبقى بعد ذلك كله، ان القول الفصل انما هو للقراء، لكن بشرط: الا يظن القاريء انه رقيب على المؤلف. او جلاد يردعه ويرهبه، وانما يتعامل معه كالمشتري في السوق، ان وجد عنده ضالته المنشودة فبها ونعمت، والا مضى في سبيله مواصلاً البحث. ونصيحة اخرى للقاريء: الا يرضى الدنية في ثقافته. فهذه هي الوسيلة

الوحيدة لتطهير سوق الأدب من الغشاشين والافاقين، ومن يدسون السم في الدسم. ذلك ان الادب لا يمكن ان يكون صوت الأديب وحده، وانما هو عنوان كرامة الأمة بأسرها. وهو العاصمة الحضارية التي فيها يقيم فكرها، وهو كلمتها الى العالم كله. ولو ان الادباء يستحضرون كل هذه المسؤوليات لما جرت اقلامهم على الورق بهذه السهولة المسترخية اللامبالية. ولتصيبوا عرقاً. وهم يكتبون ما يكتبون، لأنهم في كل مرة يخطون فيها سطراً، انما يبحثون عن الأحسن، لكي يرتفعوا بالذوق العام الى اعلى، ويأخذوا في انطلاقتهم بقرائهم الى معارج رفيعة، تسهل منها رؤية الحق. والعزم الأكيد على الدفاع عنه مهما كنت التضحيات.

اذكر وانا طالب في الثانوية استاذاً للغة العربية كان مختلفاً تمام الاختلاف عن بقية اقرانه، كان يفهم الشباب، ويفهم التراث، ويعرف كيف ينسق اتصال الحاضر بالماضي، دخل علينا لاول مرة فسألنا عن الكتاب الذي قررته الوزارة للمطالعة، فاخبرنا انه كتاب (ادب الدنيا والدين للماوردي). واذا به يمط شفتيه، ويلوح بكفيه، صائحاً: اعوذ بالله! اذا قرأتم هذا في سن الخامسة عشرة، فماذا تقرأون في سن السبعين؟ اسمع يا ولد، احضروا جميعاً كتاب اخبار الاذكياء لابي الفرج بن الجوزي وستجدون انه اطرف واكثر حيوية والمعية، خصوصاً في سنكم هذه.. وغمرتنا منه نشوة البطولة، فقد الغى الكتاب المقرر بدون الرجوع الى الرؤساء. انه - على الرغم من طول قامته، وشيب هامته - متمرد مثلنا! انه اخونا وصديقنا وحليفنا!. انه رجل عظيم.. وعجيب!.. ورحنا نشرب كلماته كلها كالرحيق، ونكتب الاشعار والقصص والازجال، ونعرضها عليه. فينقد كلامنا بتقرير يكتبه في ذيل (العمل الفني) الذي قدمه له التلميذ، ويكافىء المجيد منا بين الفينة والفينة بهدية من الكتب الادبية يشتريها من ماله الخاص. وسرعان ما تفجرت قرائحنا وتنافسنا في نيل رضاه.. وذات يوم فاجأنا المفتش الأول للغة العربية. المرحوم الشاعر علي الجارم في ذلك الوقت. فنظر في دفاترنا، ثم استمع الى قراءتنا وشرحنا واعرابنا وناقشنا بما يكاد يتجاوز المستوى الرسمي لدراستنا. ونحن في ذلك كله نتسابق بالاجوبة كالشياطين. حتى اعلن الاستاذ المفتش عن اعجابه العميق بنا وباستاذ فرقتنا، فبادره هذا بقوله:

- هذا غيض من فيض! انهم ادباء (يابك) فيهم شعراء وقصاصون وزجالون، يا دسوقي اسمع «البك» قصيدتك في الربيع! ياولد يا شرارة! انشد شعرك في الغزل ببنت الجيران، يا رؤوف! اين نشيدك الوطني؟ يا عدنان! هات الزجل الذي تغنيه لك المطربة نبقة الصعيدية! يا ولد يا ظاظا! قل شيئاً من الموشح الذي تهجو به مدرسي اللغة الفرنسية! كل هذا والاستاذ علي الجارم ينصت وعلى وجهه ابتسامة عريضة كلها سعادة واعجاب وبعد ان هنأنا بهذه (النهضة الادبية) تنحنح وقال: مادمت في حضرة جماعة من اهل الادب، فسأنشدكم انا ايضاً ابياتاً من شعري قبل ان انصرف، ثم قال:

مالي ارقت وسهدت اجفاني

لا المال ضاع، ولا الحبيب جفاني

واذا باستاذنا يضع منديله على فمه ويقهقه فيه قهقهة مكتومة. ثم يقول:

ربما من البراغيث!

واستشاط المفتش الشاعر غضباً وغادر القاعة دون ان يكمل القصيدة، ضارباً الباب

بعصبية عارمة ، وسكت الاستاذ دقيقة ثم قال في اسى، هكذا نحن في كل مكان ! نرفض النقد، ونكره سماع اي شيء غير التصفيق والتقريظ ! والويل لمن يخالف ذلك او يجرؤ على النطق بما يراه ! مازالت الطريق طويلة . . يا اولاد ! لكن اياكم والاذعان !
ومازالت الطريق طويلة ومنذ هذه الايام البطولية المجيدة ملأتها الحفر والشقوق والصدوع وسكنت في بعضها الجرذان والعقارب والثعابين، ومع ذلك فأياكم والاذعان !

الليـل والأدب

اكـثر اهل الادب والفن يفضلون الليـل لأسفـارهم الـوجـدانيـة في آفـاق قلوبهم وارواحهم، ولممـارسة صـراعهم المريـر مـع رواسب النهـار، فـالهـدوء، والـظلام، والاتصال الحميم بين الارض والسماء، وخلوة الانسان بنفسـه من غير ازعـاج، كلها من الامور التي تفتح طاقات الالهام والابداع، وما من شك في ان سكون الليل يعين على استيعاب أهل الفن لسحر الانغام الخفية المبثوثة في الكـون كله، والفن ـ صامتـا او صـائتا ـ مـوسيقى والحان: فـاللوحة الفنيـة البارعـة ليست في جوهـرها الا طـربا تناغمت فيه الخـطوط والظلال، والمسـاحات والالـوان، والبناء المشـرف من عليائـه بحرية وإباء ورشاقة، والتمثال المتهـادي على قـاعدتـه بثقة وانفـة يتلاشى فيهـما وزنه وثقله وكثافة مادته وكتلته، والشعر الذي ينساب رقراقا هادرا شفافا بعد ان يكون قد شق الجبـال واقتحم الصخور، كـل هذه وغيـرهـا من آيـات الافتتـان، ومعجـزات الافتتان، ان هي الا اصداء من الاهازيج العجيبـة الهائمـة في لا نهاية الملكـوت، لا يـدركها الا من كـان له قلب او ألقى السمـع وهو شهيـد، وهي في خفـوت النـور، وسكوت الديجور اقرب مثالا .

والليل عالم غـامض صامت، يغـطي كل شيء، ويضم الى حضنـه الكبير العـابد الـزاهـد، والمـاجن العـربيـد، ولا يضيق صـدره بضحكـات اللذة ودمـوع الاسى، ويتجاور فيه الانين والحنين والتهتك والمجون، وتتعايش فيه المؤامرة والخيانة والجريمـة مع الصدق و لوفاء والجهاد .

لهذا كثر ذكر الليل في شعر الشعراء في جميـع آداب العالم، وتكـرر وصف لواعـج العشق في هدأة الدجى، وشاع ان معركة المريض مع اوجاعه انما تحتـدم في الظلام، فيـطول الليل عـلى المريض، والعـاشق، والمكتوي بلهيب الفـراق، ونار الاشـواق، والامثلة على ذلك ـ حتى في الادب العربي وحده ـ لا تكاد تحصى، وكلنا يذكر وصف الليل في معلقة امرىء القيس :

فيـالـك من ليـل كـان نجـومـه ... بكـل مغـار الفتـل شـدت بيـذبـل

ويذبل جبل في نجد، يرى الشاعر ان نجوم ليله الطويل قد ربطت اليه بحبال محكمة الفتل، فهي لا تتحرك من مكانها ابدا، بل يخيل الى بعض الشعراء انها تتحرك الى الوراء، لتبدأ الليل من اوله مرة اخرى، كما يقول سويد بن ابي كاهل اليشكري، في واحدة من اجمل قصائد الشعر :

واذا ما قلت ليل قد مضى   عطف الاول منه فرجع

وفي الليل يستمع الاديب الى كل ايقاع الكون على اوتار قلبه، ويحاول ان (يفهم) منها شيئا ما، وان يعبر عنه في غيبوبة صفاء، وقد سمى الاوروبيون هذا التجاوز للواقع المنطقي المحسوس الى الموسيقى المجلجلة في اعماق العقل الباطن (السريالية)، اي ما فوق الواقع، لكن كثر فيها الكذابون، والادعياء، الذين يشوش عليهم لغط خارجي، يخلطون بينه وبين القليل الضئيل الغارق في ارواحهم، فيقودهم اللغط الى الغلط، ثم يصرون على انه صواب، ويكون مع الاصرار الغرور، والكذب، بينما الشاعر المعاصر عمر ابو ريشة ينتبه الى هذا اللغط، فلا يعالجه بالتمويه، بل يشكو منه بصدق وتواضع، فيقول :

وليس ما يقلق هجسي سوى   تنفس الظلماء في مسمعي

وقد يكون الشاعر على غير هذه الجدية المرهفة، فنجده يستوحي الليل لبعض اعابيثه، كهذا الشاعر الذي وقع في عشق مليحة سمراء، واراد ان يدافع عن (وجهة نظره) فقال :

سوداء قد تيممت فؤادي   في مثلها يعذب الغرام
كالليل، تستسهل المعاصي   فيه ويستعذب الحرام

ونتركه في المعاصي والحرام والظلام، لنشير الى ان الناس ـ الناس جميعا ـ في ايام وثنيتهم الاولى، كانوا يربطون بين الليل والويل، ويجعلون من هذا الويل صرعات الجنون، تمس اصحابها في الاغلب في الليالي المقمرة، وكأن القمر يسلب هؤلاء المساكين البقية الضئيلة الباقية لهم من العقل، تتسلق صعدا على اشعته الفضية الى ان تفنى فيه، وفي كثير من اللغات الاوروبية نجد كلمة (لوناتيك) ومعناها حرفيا : المرتبط بالقمر، القمري، تستعمل عندهم ببساطة للدلالة على المجنون، مثل كلمة (بن اجارا) في الآرامية والسريانية، ودلالتها الحرفية : الملازم لسطح الدار ليلا، اي الذي يبيت ليله ناظرا الى القمر، وقد فقدت هذا المعنى تماما، واصبحت هي ايضا تدل على المجنون، حتى بالنهار .

قال الراوي : ومما يحوم حول ذلك من اساطير الاولين ما ينقله التلمود اليهودي من ان آدم قبل ان يتزوج حواء، كان ابليس يطمع في (مصاهرته)، طبعا للانتقام منه، فزوجه بشيطانة من بناته اسمها عندهم (ليليت) اي الليلية، ولكن ابانا عليه السلام وجد صاحبتنا هذه تختلف معه تماما في الطباع والعادات، فطلقها فخلق الله من جسده امنا حواء وبقيت ليليت تأكل قلبها الغيرة من حواء فتهاجم ابناءها وتتلبس فيهم وتصيبهم بالتشنج والصرع والجنون، واخترع السحرة والمشعوذون في كل الامم صيغا من الرقية والتميمة والحجاب والطلسم والوانا من الاحراز والبخور

والطبل والزمر لكي يهزموا ليليت وينقذوا اولاد حواء من اذاها، ولا يزال كثير من الناس يسمون هذه الحالات التي تعتري الاطفال، وتضربهم في اعصابهم، باسم (ام الصبيان).

قالوا : وسأل سائل بعض من يدعون العلم بالاسرار سؤالا عسيرا، كان صاحبنا هذا يقول انه ما من فضيلة او رذيلة في الانسان الا بدأت في آدم وحواء، فقال السائل والغيرة المشهورة عند النساء، كيف ورثنها عن حواء، ولم يكن في ملك الله اذ ذاك امرأة غيرها؟ فاجاب: علمت حواء بانها مخلوقة من احدى اضلاع آدم، وعلمت بمأساتها السابقة مع الست ليليت بنت ابليس، فكان اذا نام تقوم حواء بالتميم على عدد اضلاعه كل ليلة، ولا تطمئن الا اذا وجدتها لم تنقص واحدة اخرى ي سلام ما اسهل الاجابة بالخرافة المحبوكة! وما اكثر الرشح الاسطوري في فكر الناس! وما احلاه في الادب!

ومن الامور العجيبة في البادية، الموحية بالشعر وبالاساطير وبالادب والغناء والابدية واللانهاية، هي نفسها التي انجبت البدوي البسيط العفوي، الواضح، الذي يتسلى بكل هذا ولا يصدقه، ويسخر منه، ولا يتستر على مشاعره الانسانية بخيرها وشرها، ففي ذات مساء مر اعرابي بقوم يلتمسون هلال رمضان فقال لهم: والله لئن رأيتموه لتمسكن منه بذناب عيش اغبر! فهلال رمضان عنده نذير الجوع والعطش، والتعب بلا اساطير.

وهذا البدوي الآخر الذي عينه يوسف بن عمر والي العراق عاملا له في بلد، فاختلس من مال الخراج والصدقات، فاستدعاه الوالي وصاح به: يا عدو الله! اكلت مال الله! قال الاعرابي: فمال من آكل، اذا لم آكل ما الله؟ لقد راودت ابليس على ان يعطيني فلسا واحدا فما فعل! هذه العفوية التي ترفض الكذب والنفاق ـ بعد ان قبلت الاختلاس ـ تجعلنا نتمنى لو عاد للادب مثلها، بكل هذا الصدق العاري والشجاعة البسيطة المطمئنة.

لكن المشكلة ان الادب فن، وانه يكتب بعد انتهاء التجربة، وليس سانحة فكر تسقط على رؤوس الناس كالصاعقة، مثل كلام اولئك الاعراب ولان اكثر الادب يكتب بالليل، فان صخب المعاناة، وحرارتها، وتفجرها من كل جانب، تكون قد هدأت، وانقادت للارادة، وخضعت لاوامر الفن، اشبه ما تكون باسود السيرك، او ثعابين الحاوي، التي اذعنت انيابها ومخالفها، وعادت دمثة لعوبا تسلي ولا تخيف! ولا حول ولا قوة الا بالله! وليس ما يكتب منه نهارا بخير مما يجيء في الليل فالاديب إما جالس في داره ومكتبه، وسط ضجيج الحياة المصطنعة الزائفة التي نحياها لا يكاد يلم شعث افكاره بين ازيز اجهزة التدفئة والتبريد، وصليل الهاتف، ونعيق ابواق السيارات، وزيارات الاصدقاء، وما تفرضه من اهلا وسهلا.. وسلامات.. وكيف الحال.. وهات القهوة يا ولد.. والعصير.. والشاي.. ثم الاصغاء لقصص الذين ذهبوا الى الطبيب، والذين سافروا من الربع الى القاهرة او مانيلا او الدار البيضاء.. والحكايات المتكررة عن التفوق العربي.. والاستبداد

الاستعماري . . والغزو الصهيوني . . هذا اذا لطف الله في قضائه ، ولم تأت زوجة العبقري الاديب لتطلب حلا لمشكلة ملابسها عند زيارة ارحامنا الاكارم ، او للشكوى من سخونة اصابت المحروس الصغير ، مع وصف تفصيلي ودقيق لشكل الاسهال الذي يقاسي منه ، او لاستئناف مشاجرة كانت قد بدأت بالامس .

فيحيل ادب النهار بقية ما بدأه الى الليل يواصل عمله فيه منهكا مرهقا ساخطا على كل شيء ، يستوي عنده الليل والنهار في الضجر والسأم وفقدان السرور والسحر وكثيرا ما يتدخل التلفزيون في الموضوع فيزيد الطين بلة ، بلمسة الكرتونية تسلب الليل ما بقي من روعته الاسطورية حتى يختفي معنى الليل الجليل الا من الآداب القديمة .

وقد كانت لليل آلهة في وثنية اليونان ، اختلفت اسماؤها وصفاتها ، ولكن اساطيرهم تتفق على وصفها بانها (ام الآلهة) لان الظلام - اي الليل - كان مخيما على كل شيء منذ الازل ، الى ان تحلى صدر السماء بالنيرين ، الشمس والقمر ، وبالكواكب والنجوم والبروج .

ويذكر الشاعر ان هوميروس وهزيود ان آلهة الليل تزوجت باخيها آله الشفق وانجبا الأثير والنهار ، اما قبل زواجها فانها ولدت - بطريقة معجزة - عددا آخر من الابناء هم القدر ، والاجل ، والنوم ، والموت ، والاحلام ، والسخرية النقدية اللاذعة ، وهي بنت انثى خفيفة ظريفة ، ذكية ، اسمها موبوس (واليها ترجع الكلمة العربية مومس ، بعد تطورات طويلة ، كان بعضها من قبيل الانحراف الخلقي) ، كما ولدت آلهة الظلام ، زبانية العذاب ، وآلهة الرعب والغش ، والشيخوخة ، والخلاف ، والشر ، والفجور ، والبؤس ، والحوريات الفاتنات اللاتي يحرسن المفتاح الذهبي في الجنة الغربية ، وباختصار كانت آلهة الليل اما للخير أو الشر ، وكانوا يسمونها احيانا (ام الرأي الحكيم) لأن امعان الفكر في الليل وهدوئه ، اقرب الى ان يهدي الى الصواب ، اما عرشها فكان في غرب العالم ، ففي ارض (هسبريس) التي صار اسمها اسبانيا فيما بعد ، واما وصفها في الشعر والفن ، فكانت على شكل فتاة جميلة محتشمة ، عند قدميها بومة (من طيور الليل) وفي يدها مشعل منكس تقوم باطفائه ، وكان اليونان والرومان يتوجون رأسها باكليل من زهر الخشخاش (نبات الافيوم المنوم) ، فوق خمار ازرق مرصع بالنجوم الذهبية ، ومعها المشعل المطفأ ، وفي بعض الاحيان يصورونها في شكل فتاة عارية تستر جسدها غلالة رقيقة سوداء ، وقد تركب عربة يجرها جوادان اسودان ، او اثنان من ذكور البوم ، وخمارها الازرق المزركش بالنجوم يغطي رأسها دائما ، وفي النصوص اللاتينية لا نقابلها راكبة عربة وكذلك في الفن الروماني ، فتلك عقيدة خاصة باليونان ويقولون انها ستجلس في الآخرة بين ولديها : النوم ، والموت ، واحيانا يتقدمها طفل يحمل مشعر .

فهذه الرموز التي تطالعنا في الاساطير اليونانية والرومانية بكل هيلها وهيلمانها تنحل ببساطة شديدة جدا الى ملاحظات الاديب والطبيب والفيلسوف والفلكي والواعظ حول كنه الليل وما ينطوي عليه من اسرار وليست هذه الرموز باكثر تعقيدة

ولا ابعد عن التلقائية الفطرية الصريحة من خواطر البدو التي نعرفها .

اما الادب الذي ننتجه اليوم فانه في معظمه لا يمت بصلة الى اي من ذلك، لانه ادب سيرك، هو ادب لا يريد له صاحبه ان يعيش بقدر ما يريد ان يعيش هو نفسه، منعما مقربا محظيا، يشار اليه بالبنان: الاستاذ! . . الاديب الكبير! . . العملاق! الرائد! . . لكن اين الادب؟ ليس هذا بذي بال .

ومعاذ الله ان اريد بقولي هذا الغض من اقدار ادبائنا! . . ومن انا حتى اصل الى ذلك؟ وانما مرادي ان يكون الادب في لغتنا العربية ذا مخالب واظفار وانياب وسموم، وان تكون له ضحايا من المشعوذين والدجالين وتجار المخدرات الفكرية، والمربين للاطفال على الخنوع والاذعان، والمهربين الدوليين للبضائع الثقافية المغشوشة، او البائرة عند الذين صنعوها، ان علاقة الليل بالادب لا تعني اغراق العقل العربي في الظلام الدامس او اطفاء المشعل وتنكيسه، وانما تعني هذه الخلوة الهادئة التي يجد الاديب فيها نفسه فيخلو بها بعيدا عن حطام الدنيا، يصبر على السهر ويغوص في الاغوار حتى لقد ينسى نفسه، ويفصل عن مشاكله الشخصية الصغيرة، ليخوض معركة الحق والحياة مع امته، ومع الانسانية الفاضلة انى كانت وليحترس في هذه الخلوة من اشياء كثيرة: من تاج الافيون المنوم على رأس آلهة الظلام، ومن البوم الرابض عند قدميها، وليحترس من الظلام نفسه، وسيجد الاشراق والاتزان والانسجام تشع من داخله فتضيء كل دنيا الفكر من حوله الى ابد الآبدين هذا هو العملاق الحق الذي اصفه في موشح لي، فاقول :

واطل الدجى على نوامة بنثر المشجيات من احلامه

واقام الفنان في هيكل الوحي يذود الظلام عن اوهامه

من قلبه . . من هواه

يعطي الحياة

نور الاله

اشرقت بالجمال آفاق نفسه وتجلى الخيال في يوم عرسه

فشدا لحنه بمحراب سحر رقرق الطهر حوله نور قدسه

يا حسنه من نشيد

حلم سعيد

ماض بعيد

وادركت شهرزاد الصباح، فسكتت عن الكلام المباح، وهو كلام يصل بين الليل والادب .

سماسرة الخرافات

حب الامتلاك غريزة في الانسان وفي كثير من الكائنات الحية الاخرى. ولهذه الغريزة عند بني آدم اكثر من وجه. ابسطها واقربها الى الاذهان الحرص على الحيازة، ترى الطفل لم يتكلم بعد ولم يبلغ السن التي يمشي فيها على قدميه، فاذا شددت لعبته من يده. او مصاصته من فمه. او دميته من مهده. هاج وماج وملأ الدنيا صياحاً ورفساً برجليه وتلويحاً بذراعيه. الى ان يعود اليه (ما له). . ثم يكبر هذا الصغير، فتكبر معه شهوة الحيازة. وتتنوع. وتتسع آفاقها. هذا يجمع المال، ثابتاً ومنقولاً، وذاك همه في النساء، يحوزهن او يحزنه ـ علم ذلك عند الله ـ وآخر يتحكم في الاسواق والأرزاق، ويبسط سلطانه على الآفاق. الى غير تلك من مظاهر الحرص على الامتلاك. التي تبدو بجانبها نزوات الطفل الصغير آية في البراءة، وغاية في القناعة. حتى ان بعض المفكرين المعاصرين استمد من هذه الملاحظة تعريفاً لما تسميه الشرائع والقوانين (سن الرشد) فقال: هي السن التي يبدأ منها الانسان في ارتكاب اكبر الحماقات! . . ومن هنا احتاط بعض فلاسفة القانون فسموها (سن المسئولية) وسبقهم فقهاء المسلمين الى هذا الاحتياط الدقيق فاطلقوا عليها اسم (سن التكليف)، اي الالتزام بالاوامر والنواهي. واستحقاق العقاب عند التعدي عليها، فهي السن التي يصل فيها المسلم الى مستوى المسئولية عن حقوقه وواجباته في مجتمعه وبداية ذلك ان يقبل الحدود والضوابط التي تنظم شهوة الامتلاك.

وشهوة الامتلاك هذه قد تأخذ اتجاهاً آخر بعيداً عن صراع البشر على حطام الدنيا. مؤثرة حيازة المعرفة وتكديس المعلومات. وتحصيل العلوم. ولان غريزة الامتلاك في هذه الحالة تصفو من شوائب الجشع والعنف. والتحدي والمغالبة. فقد جرى المفكرون على تمييزها باسم خاص هو (حب الاطلاع) او (طلب العلم). وقد ابرز الحديث الشريف التشابه القائم بين حب العلم وشهوة المال في قوله. «منهومان لا يشبعان. طالب علم، وطالب دنيا» او كما قال.

والذين يجمعون حطام الدنيا يعرفون انهم عندما يراجعون خزائنهم بعد عشرات من اعوام الكد والسعي. كثيراً ما يجدون فيها من المقتنيات الغثة ما يثير دهشتهم لماذا

هذه القطعة من الحلي. ومئات من امثالها كاسدة عند التجار؟ ما هـذه الاضابـير من الصكوك والاسهم والسندات التي تبدو وكأنها مقابر لاموال قضت نحبها من زمان؟ وهذا الدفتر الذي يضم ارقاماً وحسابات تفرق اربابها ايدي سبا. فباتت نسيـاً منسياً الا من السوس والفأر والغبار، وما لا يحصى مما اغرى بـه حب الامتلاك! ويحـاول صاحب هذا الكنز النائم ان يتذكر من الذي سول له ان يكدس هـذا الغثاء؟ فتبـرز من اعمـاق الذاكـرة اسماء كثيـرة معظمهـا لوسـطاء او سماسـرة او نصابـين محتالـين والعوض على الله.

فاذا عدنا الى من يطلبون المعرفة ولا يشبعون من تحصيل العلم وجدنا لديهم كثيـراً من اشباه هذه المهملات فهذا (المثقف) الذي يراجع مكتبته رفـاً رفاً. وكتـاباً كتـاباً. مـاذا يرى؟ انـه يسأل نفسـه أكان من الضـروري لاكمال معـارفي ان ارهق بصري وعقلي وذاكرتي بهـذه الشوارد؟ عـلى سبيل المثـال اسم كلب اهل الكهف؟ انسـاب قبائل الجن؟ اللغة التي تفاهم بها آدم وابليس قبل طردهما من الجنـة؟ اسم فرعـون الذي اغرقه الله وهو يطارد موسى؟ سن امرأة العزيز التي احبت يوسف؟ (مع عدم تصديقها اذا كان مروياً عنها شخصياً) المقاييس الهنـدسية لسفينـة نوح؟ ايهـما سبق الآخر عند بدء الخليقة البيضة ام الدجاجة؟ ونحن مـازلنا ايهـا الاصدقـاء امام ركن صغير من رف واحد في مكتبة صاحبنا المثقف. ننصت اليه وهو يلقي على نفسه تلك الاسئلة في أسى وحيرة وسبابتـه تشير الى ظهـور بعض المجلدات من الذي مـلأ هذه المجلدات بهذه الخرافات؟ ثم هذا الرف الآخر. المزركش المبرقش. الـذي تصطف فيه كتب زاهية الالـوان. كانها قـوس قزح انـه الفكر المعـاصر آه أسف. انا لا افهم شيئاً في قنبلة النوتـرون ولا في العلاقـات الدوليـة لمنظمـات الالويـة الحمراء او بـادر ماينهوف. او المافيا او المخابرات الامـريكية او السـوفييتية ولا اطيق نبوءات العرافين عن احوال العالم بعد الحرب العالمية النووية القادمة. وتتـوالى العناوين الى مـا لا نهاية السلام العالمي.. المخدرات الصهيونيـة.. الشذوذ.. يـوميات ذكـريات مـذكرات اسرار. وثائق.. ازمات.. بطولات مغامرات مأثورات شعبيـة.. شعر حـديث..

آه! وسألت صاحبنا المثقف. صاحب المكتبة: أأنت الذي كتبت عـلى هذه البـطاقة شعـر حـديث؟ قـال: نعم، قلت ومـاذا تعني؟ اجـابني انـا لا اعني شيئـاً ولكن اصحـاب هذه (الـدواوين) هم الذين يصفـونها بانها شعـر حديث. لا لانهم احيـاء ولكن لان شعـرهم يمثل ثـورة في دنيا الادب. قلت: ثـورة على مـاذا؟ قال: عـلى القديم.. على المتنبي وشوقي والخليل بن احمد.. خصوصـاً هذا الاخـير لانه حبس الشعـر العـربي في اعمـاق البحـور والتفـاعيـل حتى غـدا مستحيـلاً للعقـل والقلب والاحساس ان تسكن في البيت الخليلي العتيق وهكذا انبرى اربـاب الشعر الحـديث لحل ازمة الاسكان هذه. قلت لكن الخليل بن احمد لم يفعل شيئاً مما يتهمونـه به فـلا هـو حبس الشعر، ولا تسبب في صعـوبة ايـواء المعاني في الاوزان كـل مـا فعله هـذا الـرجل الـطيب هو انـه نظر فيـما صح نقله من الشعـر عن فصحاء العـرب. فحصر الحانه ووصفها وصنفها ورتبها. الا ترى انه وهو ينجز هذا العمـل الجليل، قـد وقع على انغام لم تنشد العرب عليها شعراً، على الرغم من صلاحيتها لذلك، فـذكر كـلا منها. ووصفه بانه (مهمل) ولم يقل (ممنوع) او (خطأ)؟

اجابني لا ادري ! المهم ان هؤلاء الشعراء المحدثين قد قاموا بثورة . . قلت على من ؟ على الخليل ؟ . . بينما العصر الذي نعيش فيه اجدر بثورتهم ! يثورون على الخليل، ويسكتون على مناحم بيجن ؟ وعلى الغزو في لبنان وافغانستان؟ ويسكتون عندما يصفنا الغرب بالوحشية . وبالتحكم في الطاقة النفطية تسعيراً وتصديراً . بينما هذا الغرب نفسه يحارب بعضه بعضاً ويحاربنا نحن كذلك بالقمح . نعم بالخبز، فلا يثورون ؟ فقاطعني محتداً . ان هذا الذي تشير اليه خاص بمضمون الشعر . والثورة على الخليل ثورة على الشكل ! قلت : رحم الله الخليل ! . . لو كان معنا الآن لقال لك ان الشكل والمضمون والشاعر والجمهور . كلهم اجمعين . وجدة واحدة لا تتجزأ . وان القصيدة لا تستمد حياتها من قائلها دون سامعيها والا لما عاشت قصيدة قديمة واحدة الى الآن . قال : انت اذن مع القديم، وضد الجديد قلت لا حول ولا قوة الا بالله ! . . من قال هذا ؟ . . انني اقول فقط الشعر فن جميل . والمفروض فيه ان يكون ـ بجماله هذا ـ مقنعاً . دامغ الحجة . آسراً للقلوب، دافعاً لها نحو الاعلى والاحسن . كان برهانه في حرارته . ورقته وفتنته . سواء أجاء على تفاعيل الخليل . أم على ما تترنم به الطبيعة من انغامها اللطيفة والعنيفة التي لا تكاد تقع تحت حصر . بشرط ان يكون صداها في الشعر امتداداً لصداها في النفس . في نفس شاعرنا نحن . لا شاعر صيادي الدببة والحيتان . تحت جبال الجليد . يا سلام اسمع .

كلفتمونا حدود منطقكم
والشعر يغني عن صدقه . كذبه
والشعر لمح تكفي اشارته
وليس بالهدر طولت خطبه

ووقف صاحبي يقلب وجهه في اركان مكتبته الكبيرة يميناً ويساراً . ويقول قد تكون على حق . فانا أرى على هذه الرفوف عدداً كبيراً من المؤلفات ـ القديمة والجديدة ـ لا اتوقع انني سأعود الى قراءتها ابداً فهي ليست بالمراجع التي يمكن ان استشيرها عند كتابة بحث او مقال . ولا عند التفكير في مشكلة ما واكثرها ليس له من العمق ولا من الطرافة . ولا من خفة الظل . ولا حتى من يقينية المعلومات . ما يجذب اليها حينا بعد حين . وما ادري لماذا اقتنيتها ؟ لماذا دفعت فيها المبالغ الطائلة من حر مالي الذي حصلته بكدي وعرق جبيني ؟ ثم لماذا ضيعت من وقتي ما ضيعت في قراءتها ؟ فبادرته في لهفة وهل قرأتها كلها ؟ فاطرق لحظة ثم اجاب ما اظن ! فمثلاً هذا المجلد الضخم الماثل امامك . اذكر انني جلبته من الخارج . وانه كلفني غالياً جداً . ثم عجزت عن ان اصل فيه الى اكثر من الصفحة العشرين تقريباً . وسألته فلماذا اشتريته اذن ؟ قال كان ذلك على اثر مقال كتبه احد النقاد في جريدة . وزعم فيه ان (المثقف) في زماننا هذا لن يكون جديراً بهذه الصفة . اذا لم يكن قد قرأ هذا الكتاب قلت : وما هو موضوعه ؟ قال في حدود ما قرأته منه . هو تفسير نسائي للحوادث الكبرى في تاريخ العالم، وضحكت ثم ضحكت وانا اقول لكن المؤلف رجل، فأجابني متبرماً : اسأل الناقد الذي اغراني بشرائه . قلت له : يا صديقي يا عزيزي لا تصدق ناقداً واحداً في مثل هذه المسائل الفكرية الجوهرية . فقد يكون صديقاً للمؤلف او سمساراً لدار النشر . او بوقا تنفخ فيه هيئة ذات اتجاه معين . وما

يصدق هنا يصدق ايضاً في نقد مسرحية او اغنية او مسلسل تلفزيوني او معرض للفن التشكيلي او عطر من العطور او زي من الازياء. ان خوف الناس من تهمة التأخر والتخلف وحرصهم على ان يكونوا في سنان الرمح من الصف الاول من التقدم الحضاري. يلقي بهم في عمايات الاستغفال والابتزاز ويجعل منهم سوقاً لسماسرة الخرافات. يشبه سوق المضاربات والمساهمات وما فيه من النصابين الذين يستغلون طالبي المال. وقد كنت انت نفسك منذ لحظة تنظر الى الركن القديم في مكتبتك وتتساءل عن جدوى ان تعرف اسم كلب اهل الكهف او عمر امرأة العزيز فاعلم - وانت سيد العارفين - ان سماسرة الخرافات ليسوا وقفاً على زماننا هذا. وطالب العلم اذا كان منهوماً لا يشبع. ينبغي له اولاً وقبل كل شيء ان يكون ناقداً متذوقاً دقيقاً مرهفاً قاسياً. والا لكان من اولئك المنهومين الذين يريدون ان يحشروا اكبر قدر من اي شيء في بطونهم. حتى لو أكلوا التبن. الم تسمع عن مجموعة من سماسرة الخرافات. تفرعت وترعرعت في صخب النهضة العلمية الاسلامية منذ الف عام او تزيد. فدست فيها كثيراً من هذا التبن. وكان اغلبه منقولاً من التلمود الاسرائيلي مباشرة او عبر سماسرة آخرين من الفرس والهند واليونان؟ . . اما كتبك الحديثة جداً التي دفعك الى اقتناء الكثر منها حياؤك من ان توصم بالجمود، فانها - عموما - تهويمات مملة لكثرة ما تلوكها الاوراق والاقلام. وقد تبهرك بجدتها في اول اتصالك بها، حتى اذا وغلت فيها. وجدتها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء. وهي في مجتمع المثقفين. الباحثين عن الجديد بأي ثمن تشبه نكت الحشاشين. قال الراوي: كان الحشاشون يسهرون في مجلس لهم. حتى اذا طاب المقام. وتم الانسجام راح كل واحد منهم يحكي نكتة من منتخباته، تشيع الضحك والمرح والبهجة في الجماعة، وفطن واحد منهم. بعد سنين من ادمان النكت. انها هي هي. تتكرر ولا تتغير فقال لاصحابه .اسمعوا يا جماعة الخير! إن عندي اختراعاً عبقرياً بشأن هذه النكت. الواقع انها تسلينا وتضحكنا. ولكننا نكاد نحفظها لكثرة ما سمعناها. والرأي عندي ان نميزها بأرقام مسلسلة. وبدل ان نضيع الوقت في الاصغاء كل مرة. يكفي ان يذكر صاحب النكتة رقمها المميز فنتذكرها ونضحك. وراقتهم الفكرة واخذوا من فورهم في تطبيقها ثم شاءت المصادفات ذات ليلة ان يدخل اليهم حشاش غريب. ولم يكن وصله بعد سر الاختراع المدهش. وجلس ينصت خمسة! ها. . ها. . ها! ثمانية! ها. . ها. . ها! ثلاثة! ها. . ها. . ها!. . ولم يفهم شيئاً لكنه وجد نفسه بعد لحظات يقهقه معهم باخلاص واتقان. ثم خطر بباله ان يشارك لا في الضحك فحسب، بل في الاضحاك ايضاً. فصاح سبعة عشر! فانفجرت العصبة كلها ضاحكة. واستمر احدهم يقهقه ولا يستطيع السكوت. وقد وضع كفيه في بطنه. ها. . ها. . ها. . الى ما لانهاية. فصاح به آخر كفى ضحكاً يا اخانا. فاجاب بدون ان يتوقف عن القهقهة سبعة عشر! هل سمعت! انها جديدة. ليست عندنا في السجلات.

وكثير من هذه المجلدات المتزاحمة هي من النوع رقم سبعة عشر. لكنا - اعزك الله - لسنا مساطيل ولا حشاشين. ولابد ان نسأل اولاً قبل شراء الكتاب. ما القصة؟ بهذا ننجو ان شاء الله. من سماسرة الخرافات. وليست هذه الا الخطوة

الاولى من خطوات التصدي لهذا الخطر فجميل جداً ان تنجو من أكل التبن لكن اجمل من ذلك ان تنجح في تحذير غيرك منه ايضاً. والعبد الفقير الذي يتشرف بهذا الحوار معك. قد طوحت به الظروف شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً. فرأى عشرات من أمم الارض. واتيح له ان يناقش بعض شبابهم (المثقف) فاكتشف كارثة.. اي والله! اكتشف ان هؤلاء المنهومين للمعرفة لا يعرفوننا الا من سماسرة الخرافات.. من اعدائنا وان الصورة المخجلة المبكية المرسومة لنا في اذهانهم مايزال الذين رسموها يعمقون خطوطها.. ويملأون صفحتها بالنكتة سبعة عشر. حتى تحول التشويه الى عاهات مستديمة تحتاج في سبيل ازالتها الى جهد طويل. وهم ثقيل.

وفي اعتقادي ان الحقيقة - بخيرها وشرها - هي امضى سلاح للقضاء على سماسرة الخرافات وان اجهزة الاعلام الرسمية وحدها لن تحوز انتصاراً حاسماً في هذه المعركة. وهي معركة مصير لا شك في ذلك فالناس في العالم الكبير لا يأبهون كثيراً للاعلام الرسمي حتى عندما يكون صادراً من حكوماتهم وهم بعكس ذلك يقبلون بشراهة على ما له صيغة التسلية البريئة. يفضلون الشعر على المحاضرات والطبل والزمر على المؤتمرات والتوصيات والتمثيل والرقص على المظاهرات والبيانات والهدايا الصغيرة الجميلة على القنابل والمفرقعات والاجتماع للأكل والشرب والسمر على تجرع الخطب والتهام المطبوعات واعداء هذه الأمة يعرفون ذلك. ويكثرون منه ويدسون فيه من الخرافات ما يشاءون. آمنين مطمئنين الى اننا لاهون بأكل التبن عن التفكير في التصدي لهم يكفي ان نعلم مثلا ان تدمير بيروت الذي مايزال دخانه وعجاجه يخيم علينا جميعا قد اصبح في اذهان من لم يكتووا بناره لا يزيد في خطورته عن معرفة كلب اهل الكهف وقد سمعت بعضهم وهو يقرأ في جريدته فكرة اسرائيلية عن انسحاب جزئي من لبنان. يثني على «انسانية» الغزاة. ورأيت آخر يسألني هل كان في الجولان سكان من قبل ان يضمها مناحم بيجن الى امبراطوريته؟ والذي يسألني هذا السؤال (مثقف) بين قومه. والله العظيم! وكان من النادر في جولاتي هذه ان أرى احد الرسميين في الحكومة الصهيونية يأتي لغير مهمة رسمية بينما الاتصال بالناس والحوار مع الشارع العالمي متروك للفنانين والرياضيين والادباء، ولبعض الجميلات جداً ايضاً من مندوبات الموساد او عميلات المنظمات الصهيونية التي لا تكاد تحصى في العالم؛ فاذا كان هناك داع لايفاد اسم من الاسماء الكبيرة للمشاركة في تشويهنا والقضاء على حقوقنا، او ما بقي منها، ارسلت الحكومة الصهيونية احد اقطاب المعارضة للقيام بالمهمة فان افلح كان هذا انتصاراً للصهيونية كلها ومظهراً لاتحادها واجتماع كلمتها. والتزامها برسالة واحدة. وان خاب فانه يتكلم باسم المعارضة بينما الفئة الحاكمة منه براء، متى يا قوم؟ متى نفهم ما يجب علينا؟

والجمال؟.. سيداتي.. سادتي!

اللغة العربية من اغنى لغات العالم بمصطلحات الجمال وبضدها ايضا. . وهي ظاهرة تدلنا على مبلغ حساسية النفس العربية بما يتجلى به الكون، ويتحلى، من الصفات التي تحبها القلوب. . ولاشك في اننا جميعا نستطيع ان نسرد الكثير من هذه الصفات: الجمال، الحسن، الملاحة، البهاء، الرونق، الوسامة، الرواء، القسامة، الفتنة، وعشرات غير هذه فضلا عن اعداد اخرى من الالفاظ التي تدل على جوانب جزئية من الجمال لايكاد ينالها الاحصاء، لاسيما اذا ادخلنا (الصياغة) في الحساب، او اشركنا معها موسيقى الكلام. فمن شاعر يصف جمال الطبيعة في الربيع، معتمدا على الصورة والنغم فيقول:

اتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا
من الحسن.. حتى كاد ان يتكلما

وآخر من المتيمين، يرى بعينيه جمال صاحبته ولا يدري كيف يعبر عنه فيصل بهذا العجز الى الاعجاز اذ يقول:

فرقت، وراقت، واسبكرت، واكملت
فلو جن انسان من الحسن جنت

وهذا الاعرابي العاشق الذي سئل عن صبيته فقال: لو قسم جمالها على كل نساء الارض لكفاهن. . !

لكن. . ماهو الجمال؟ القيت هذا السؤال على آنسة اوروبية جميلة جدا. . جدا. فراحت تضرب في متاهات الموضوع على غير هدى، باحثة عن (مؤثرات) فكرية وثقافية لا تحسنها وعن جمل متكلفة، يتدهور بعضها فوق بعض في ثرثرة مزعجة وفوضى اكثر ازعاجا، فهذه العبارة تهوي بكل ثقلها، بينما تظل اخرى معلقة في الهواء تناطح غيرها. . وهكذا، وهمس إلي احد السمار في المجلس: صدق المثل

الفرنسي القائل اصمتي حتى تظلي جميلة! . . ولكنني لم اقتنع، وقلت لصاحبي: وما هو الجمال في رأيك انت؟ فاجابني بان هذه مشكلة محيرة لم يصل فيها احد الى الجواب الوافي الشافي. . ثم اضاف، بلهجة الناصح الامين، ان الغموض في هذا الامر له اكثر من سبب. . فهناك (الجمال) وهناك (علم الجمال)، الذي يسمونه في الغرب (الاستاطيقا) ثم هناك اختلاف الناس في مفهوم الجمال من عصر الى عصر ومن امة الى امة ومن مستوى اجتماعي الى مستوى آخر. .

فانصرفت عنه يائسا. . ورحت اقول لنفسي: هذا رجل اديب، وجامعي، ومثقف جدا. وهو، مع ذلك كله، لا يستطيع ان يعطيني فكرة - ولو تقريبية - عن الجمال بينما يلتهم بعينيه اللوحات الفنية التي تزين هذا البهو وما تيسر من الوجوه الصبيحة التي تطالعه، في هذه الامسية الباريسية الرغدة. وحاولت ان اعتمد على التحليل اللغوي، فلم يسعفني. فالجمال - قبل ان يدل على معناه المعروف - كان يعني الجسامة، والبدانة، والمتانة، والضخامة، وتراكم الشحم، ولذلك سمي الواحد من الابل جملا، ووصف الصبر بانه جميل، مع انه لا يكون الا مع المكاره والكوارث، لانه يضفي على الصابرين ثقلا ورزانة فلا تطير نفوسهم شعاعا. والجملة هي الكمية الكبيرة من كل شيء. يا سلام!. يعني ان الجمال في الاصل ضد الهزال!. وانني يجب ان ادير ظهري للقاموس حتى اقول ان هذه السيدة الجالسة في الركن الآخر من البهو، هذه الهيفاء الرشيقة النحيفة. . جميلة. وحتى اصالح القاموس ينبغي ان احلف ان هذه الشمطاء المترهلة، الغليظة التدوير والتكوير، البارزة اللحم والشحم. . جميلة! . . لا. . ثم لا! . . لقد اصطلح الناس بعد اجيال من الحضارة على اعطاء (الجمال) معنى آخر غير الذي كان عند مولده في اصل اللغة. لكن. . ما هو هذا المعنى الآخر. . ؟. . وهنا وثب في خاطري هاجس احتجاج يصيح: مالك وللرشيقة والبدينة، وانت تبحث عن معنى الجمال؟ اما يمكن ان تكون الالفاظ الدالة على هذا المعنى المحبوب المطلوب قد صنعت اولا لغير النساء، ثم اخذتها من بعد ذلك غصبا، كما (قتلننا ثم لم يحيين قتلانا). .

وانتهت السهرة الباريسية (الجميلة) وانا مازلت جاهلا كنه الجمال، وقضيت بعد ذلك اياما لا استطيع الفكاك من هذه الفكرة التي تحاصرني بالحاح وعناد. . انتقل من مروج خضراء، الى غابات ظليلة وارفة الى حقول قمح عسجدية ترصعها هنا وهناك زهرات رقيقة ياقوتية من شقائق النعمان، الى رمال بيضاء تنساح حواشيها في زمرد المحيط، الى سماء زرقاء باهتة بالنهار، داكنة عميقة بالليل تكاد تسمع على صدرها رنين النجوم. . كل هذا جميل! . . ولكن. . ما هو الجمال؟ . . وتذكرت ان ارسطو قال، منذ اكثر من الفي سنة، انه ظاهرة تدركها الحواس الخمس (البصر والسمع، والشم، واللمس، والذوق) فرادى او مجتمعة فيحدث هذا الادراك سرورا

في النفس. اهـذا كلام يـا ارسطو؟ انـك ايها الفيلسـوف اليـونـاني العـظيم، المعلم الاول، استاذ الاسكندر الاكبـر، لم تعرفني مـا هو الجمـال، بل هـربت من ذلك الى الحديث عن (سرور) النفس به وحتى هذا السرور فيه نظر. لقد شهدت مثلا جنـازة ام كلثـوم في القاهـرة منذ اعـوام ودون دخول في التفـاصيل اقـول انها كانت جميلة، ومؤثرة، وكانت تثـير في النفوس كـل ما يمكن ان يتخيله انسـان، الا (السرور) وانمـا يكـون السرور لامـر ـ حسن او قبيح ـ يـأتي كـما تهـوى الانفس. . فكثـير من غـلاة الصهيونية يشعرون بسرور اذا رأوا وجه مناحم بيغن، وكانوا يشعرون بنفس السرور كلما اطلت عليهم غولدا مائير. والواقع ان الاول ليس عمر الشريف والثـانية ليست نبيلة عبيـد! ومن هذا المنـطلق قال الاولـون: القرد في عـين امه غـزال! . . واذن لا فائدة لا من القاموس ولا من ارسطو في الجمال. .

وقلت: لعل (علم الجمال) ـ وهو احدث العلوم الفلسفية ـ يضعني على الصـراط المستقيم نحو شرح ينقـع الغلة ومضيت اغوص في طـوفان من الكتـابات حـول هذا العلم منذ مائتي عام تقريبا عندما سماه الالماني (بامفارتن) باسمه هذا (الاستاطيقا)، وتـوسع فيـه الماني آخـر هو الفيلسـوف (هيغل) الى ايـامنا هـذه ولم اخـرج بـطائـل! فكلهم، بعد مقدمة سريعة عن اثر الجمال في النفس ـ سامح الله ارسطو! ـ يأخذون في البحث عن القـوانين العـامة التي يتـوصل اليهـا الانسـان الى تحليـل الجمـال، او ضده. فيتحدثون عن الخضوع لنـظام معين، وعن التنـاسب والتناسق، والتنـاغم، والاستقلال، والتكرار، والترديد، والتقابل، والرتابة، والتوازن. ثم يـطبقون ذلـك على الفنون المختلفة، من شعر وغناء ومسرح ورسم وزخرفة ونحت. . الى ان يصـل بعضهم الى المقـاييس المطبقـة في اختيار ملكـات الجمال وابـطال كمال الاجسـام. . وخيل الي ـ وانا اقرأ ـ ان اصحابنا هؤلاء قد حاموا حول شيء يشبه (علم البديع) في البلاغة العربية. الذي لا يعدو الزخرفة الاسلوبية الـظاهريـة للكلام، فـطبقوه عـلى جميـع المحسوسـات بلا استبـطان للجوهـر، والروح، والكنـه الكـامن في الاشيـاء، وعلاقة بعضها ببعض، نعم، شعرت بـان (علم الجمال) شـأنه شـأن (علم النفس) مـايزال ـ بـاستثناء مبـادىء قليلة بديهيـة ـ يجـول في فـرضيـات وتهـويمـات ومعـارك ومناقشات، تشكك امثالي من سوقة النـاس فيما يقـوله هؤلاء المتخصصـون. . وكيف اصدقهم بينما (علم الجمال) على السنتهم واقلامهم وصحائف كتبهم (غير جميل). ؟ كـما انني اتـردد كثيـرا في تصـديق المتخصصــين في علم النفس والتحليـل النفسي، والعـلاج النفساني كلما رأيت (فـرويد) و(ادلـر) يكذب كـل منهما الآخـر ثم يخالفهـما (لاكان) او (لاغاش)، ويعلن اصحاب الطب الجسماني العصبي تهافت هؤلاء جميعا الى حـد ان بعضهم يحذر من التعـامل معهم. هـذا الى ما الاحـظه من ان الاكتئاب والجريمة والانحراف والانتحار قد ازدهرت وترعرعت في ظل حروب القرن العشرين

وتقنياته وحضاراته وزندقاته، دون ان يجدي فيها علم النفس، او يغني فتيلا، الحقيقة. . سيداتي، سادتي! . . ان الوضع مع (علم الجمال) غير مريح . .

وازدحمت الذكريات في رأسي. . ثم تركت مكانها فجأة لذكرى ليلة مرحة بهيجة من ليالي الشباب. . كان ذلك في باريس ايضا. وفي باريس ـ لمن لا يعرفون ـ مسارح صغيرة تبدو بجانب دور التمثيل الكبرى غاية في التقشف والتواضع وعلى منصتها يقدمون برنامجا منوعا للضحك وعصب هذا البرنامج اهازيج من الشعر الشعبي الفرنسي يكثر فيها اللعب بالالفاظ، يقوم بانشادها شخص واحد او اكثر، مع بطانة موسيقية مختصرة جدا. اما الموضوعات فكثيرة وكلها نقد لاذع، في السياسة المحلية والعالمية وفي الاجتماع والاخلاق وحول بعض الحوادث التي اثارت الرأي العام في فترة البرنامج ولذلك فالسائح لا يجد اية متعة في ارتياد هذه الملاهي، اذ يتعين لمن يدخلها ان يكون متقنا للغة الفرنسية ـ الفصحى والعامية بكل ما تدخره من الاعيب بريئة او خبيثة وان يكون متتبعا لما يردد في وسائل الاعلام من حوادث واخبار. وكان من بين اشهر هذه الملاهي: القطة السوداء، قبو الجمهورية، الآخرة، العاشرة مساء، القمر المكسوف. . وقد افلس معظمها الآن لتدني مستوى تذوق اللغة في الجيل الجديد ـ كلنا في الهوى سوا! ـ ولارتفاع التكاليف ونفقات الحياة، بما لا يسمح لمسرح ضيق ان يعيش من ايراد شباك التذاكر وحده. .

المهم انني تذكرت فقرة من البرنامج الذي حضرته وكانت بعنوان (الجمال عبر الزمان والمكان)! وخلاصة هذه الفقرة ان يرتفع الستار عن (الشاعر) مؤلف المقطوعات المصاحبة للمنظر، تصاحبه على البيانو فتاة طروب لعوب، تقوم اولا فتحضر نسخة من لوحة فنية شهيرة هي صورة لامرأة جميلة، فتعلقها امام الجمهور، وتشير بيدها، فتخرج من وراء الاستار امرأة قريبة الشبه جدا بالصورة وعلى الحان البيانو يلقي الشاعر رباعية نقدية مرحة تعليقا على هذا النمط من الجمال. ثم تتغير الصور والنماذج الحية والرباعيات والحان الموسيقى، فترى القدود السمهرية، والابتسامة الملائكية البريئة، والنظرة الناعسة الحالمة مع لوحات فنان النهضة الايطالية بوتيتشيلي، وترى البهكنة الصامتة الحلى، البضة، الغضة، مع صور للفنان الهولندي روبنز. ثم المرأة العصبية المتشنجة المتوترة، مع بعض آثار البريطاني جيمس انسور، وتلك السنغالية، الداكنة السمرة، مع قناع زنجي من الابنوس، وهكذا. وكنا ـ في ذاك الوقت ـ نجتاز فترة شعارها في الجمال النحافة المفرطة والهزال الشديد والجلد على العظم ومع لوحة من هذا النوع لجورج براك، خرج علينا من وراء الستار شبح! كانت امرأة كلوح رقيق من الخشب، مدببة من الجانبين، ومسطحة تماما من الامام والخلف، وقالت الالعبانة عازفة البيانو: وجه هذا (النموذج). . سيداتي سادتي! من جهة قطعة الحلى المدلاة من العنق! . .

ولم تساعدني هذه الذكريات المرحة على الوصول الى حقيقة الجما واستسلمت الى يأس مريح وانا اقول: ان الجمال امر نسبي ومتغير، والجميل هو ما تراه جميلا. ولكنني سمعت في داخل رأسي صوتا يقول: وكيف تراه جميلا؟ قلت: احبه، اسعد به، اشعر معه بالسرور، كما يقول ارسطو. فضحك الصوت هازئاً وقال: تحبه ام تشتهيه؟ وتلعثمت وهو يذكرني برباعية لعمر الخيام يقول فيها:

القلب قد اضناه عشق الجمال
والصدر قد ضاق بما لا يقال
يا رب! هل يرضيك هذا الظمأ
والماء ينساب امامي زلال؟

وراح هذا الصوت الداخلي يقرعني ويوبخني، ويتهمني انا وعمر الخيام وكثيرين من الباحثين عن الجمال بانهم شهوانيون ومعربدون، وحيوانات. صحت: اخرس! او تكلم عن عمر الخيام وحده ان شئت اما انا فدعني في حالي!. قال: ولم ذاك؟.. الم تمزج انت ايضا الملائكة العلوية بالبهيمية السفلية، وانت في غابة عند خط الاستواء، ترى كل جمال الطبيعة وجلالها ثم تنهار تحت سطوة الشهوة الفانية، فتعوي في النهاية وتعوي من السماء الى الارض؟.. اسمع يا سيدي!..

يا جمال الله في نظرة حب
يا جلال الله في خفقة قلب
يا رماد اليأس في النفس الوجيعة
يا مروج الامل الخصب على صدر الطبيعة..
يا الهي..
من مضنى القلب واه..
من للهوف بمحرابك صلى؟..
يا الهي.. اين ليلى؟.. أين ليلى؟..

قلت: انت لم تفهمني لانك حرفي، وسطحي، وسيىء النية. ان ليلى هنا وهي رمز للجمال الذي حرت في ادراكه، والوقوف على حقيقته. انها ليست ليلى العامرية، وانما هي ليلى العقل والقلب والروح، التي ظن آلاف الشعراء قبلي انهم وصلوها وواصلوها.. وليلى لا تقر لهم بذاكا..!

وأفقت وانا اكلم نفسي كالمجنون ـ عفوا مجنون ليلى! ـ واسأل بعد هذا كله عن حقيقة الجمال، وحضرني خاطر كتبه المرحوم عباس محمود العقاد في ذلك، مؤكدا ان الجمال هو الحرية والاستقلال. وذكر ان الشجرة الجميلة هي التي تشب بكامل شموخها، لا تستند الى شيء، اغصانها اماليد، وزهرها لا ينام على اوراقها، وكذلك الجسم الجميل، الذي لا يرتكن منه عضو على آخر، ولا يهوي منه نتوء

ليناطح نتوءا بجانبه او من تحته. وابتسمت وانا اترحم على الاستاذ، فقد كتب هذا والشعب المصري يناضل من اجل الحرية والاستقلال. ولما كان هو نفسه من رواد هذا النضال. فقد رأى فيهما الجمال كل الجمال. ورأى غيره ان الجمال في الحشمة، والحياء، والخفر، حتى وان اضفى فتكا ولعبا وعربدة في القلوب.

صدت بخد وجلت عن خد
ثم انثنت كالنفس المرتد

وهنا في اوروبا؟ في هذا العري الوبائي، عزف اكثر الناس عن جمال المرأة، بعد ان اصبح اكواما واكداسا في كل مكان، وراحوا يبحثون عنه في الطبيعة والفن والشعر والموسيقى، لكن افسد عليهم مزاجهم تسلط الفتيات الكامل على حياتهم حتى ان الطبيعة نفسها لم تسلم من شتى انواع التلوث..

ومرة اخرى وانا اكتب هذه السطور، عدت اراجع نفسي لعلي اكون قد نسيت اهم ما في الموضوع. نسيت افلاطون مرة واحدة! فيلسوف المثل الاعلى، الذي تصوره يجمع الحق والخير والجمال، جمعا جوهريا لا انفصام له فكل واحد من هذه العناصر الثلاثة يحتوي على الاثنين الآخرين بالضرورة فالحق لا يمكن ان يكون شريرا او قبيحا، والخير لا يمكن ان يكون باطلا او دميما، فإن الجمال المثالي هو الذي تتنوع ملامحه وقسماته وتجلياته، وهو ثابت لا يبلى ولا يتغير. ما اقسى افلاطون! ان مقياسه هذا ليمدنا بمكنسة رهيبة نطرد بها من عالم الجمال كل هلوك لعوب ضليعة بفنون الاثارة والاغراء لا علاقة لها بالحق والخير بقدر ما لها من صلات وثيقة بالشيطان.. وتوقفت لحظة اتذكر تعبيرا فرنسيا ريفيا ترجمته (جمال الشيطان)، وهو الجمال الزائل الزائف الذي تتباهى به أية فتاة بين الرابعة عشرة والرابعة والعشرين.. ثم.. ثم قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل! وبمكنسة افلاطون نسوق الى الزبالة كل عمل فني او ادبي يخون الحق والخير ويستمد الجمال من اثارة الغرائز، وايقاظ الشهوات.. جمال الشيطان..

الجمال، سيداتي.. سادتي! مقدس، لانه توأم الحق والخير ولا علاقة له بالملابس والمساحيق والعطور والانوار والسيارات، ولا بالتصنع والادعاء والرياء.

من قاموس الصهيونية

قال الراوي: كان ذلك في أول يوم يرى فيه شاؤول سيمونوف مدينة نيويورك، التي كانت في نظره امتداداً طبيعياً لأرض الميعاد، بعد أن قاسى الأمرين من التعقيدات السوفياتية في سبيل السماح له بمغادرة نهائية من «أوديسا». وانطلق من توه نحو «بروكلين» ليمتع نظره بالآلاف المؤلفة من اليهود الذين سمع أنهم يعيشون هناك في حيهم الحافل احراراً بلا خوف، ولا مراقبة، ولا احتقار. وملأ رئتيه بشهيق من هواء المدينة الأمريكية الملوث، وهو يهتز طرباً، كان يقول في داخل نفسه: ما أجمل الحرية!. وما أحلى الحياة بلا عقد! أنت يهودي؟ ما عليك! عش هكذا!!.. بلا وجل ولا خجل!. وقل، حتى في وجه ريغان، إنك يهودي!. قلها بفخر وشموخ واعتزاز!. والحي اليهودي هنا.. يا سلام!. كأنه الجنة!.. الأسماء مكتوبة على المتاجر والدكاكين بالانجليزية والعبرية، وصور بيغن، بكل جماله، تقبع في كل مكان!. لابد أن هذا بفضل دعاء الوالد يا شاءول!.. وفيما هو غارق في هذه الأحلام الوردية، صدمته لافتة بالانجليزية على دكان يبيع «السندوتش» والعصير. غير معقول!.. اللافتة تقول بوضوح: «ممنوع دخول اليهود»!.

وأحس شاءول سيمونوف بالدم يغلي في مخه، وبالأرض تميد تحت قدميه، وقرر أن يفجرها حرباً شعواء على هذه «العنصرية»، واقتحم المحل، حتى وصل الى صاحبه، ورأى أن يبدأ المناوشة ببعض الهدوء، فقال: جئت للتعارف فقط! اسمي شاءول سيمونوف، مهاجر من أوديسا، فرد «المعلم» بابتسامة عريضة وقال: وأنا.. موشيه ليفي كاغانوفيتش.. مهاجر من أوكرانيا!.. فبهت شاءول لحظة، ثم انفجر بغضب: فأنت اذن يهودي مثلنا.. وتتنكر لأخوتك وأهلك؟ لماذا تحرم عليهم أن يأكلوا ويشربوا في محلك؟ هل يستريح ضميرك الى هذا العقوق؟ هل تنحرف بهذه السهولة الى «اللا سامية»؟.. وقاطعه موشيه ليفي كاغانوفيتش هامساً: وأنت.. هل ذقت بضاعتي؟.. وهل رأيت كيف يصنعونها في المطبخ؟.. قبل أن تتهمني باللا سامية!. وفهم شاءول سيمونوف، وأحس بأن جبلاً قد ارتفع عن صدره، فهذه الأطعمة والأشربة لا تليق بشعب الله المختار، وهي بقذارتها، وما يشوبها من

غش في المواد، وغلاء في الأسعار، لا تصلح إلَّا للكفار ـ غير اليهود ـ «الجوييم». مبارك موشيه ليفي كاغانوفيتش ببركات الأبدي القدوس إله اسرائيل، آمين!. بهذا تمتم شاءول سيمونوف وهو متجه نحو باب الخروج و . . . ـ شالوم! . . شالوم! . . فالدنيا اليهودية لاتزال بخير! . .

وسألت نفسي، بعد أن قرأت هذه الأقصوصة الفكهة في كتاب لمؤلف يهودي، أيعلم الناس المعاني الدقيقة لجميع المصطلحات الصهيونية؟. ورحت أسأل مثقفين من العرب والانجليز والألمان والايطاليين والأمريكان والفرنسيين عن بعض تلك المعاني، فكانت في جملتها ضعيفة بكيئة مهتزة، وهكذا خطر ببالي أن آخذ آحاداً من أكثرها دوراناً على الألسنة والأقلام ـ الاسرائيلية خصوصاً ـ فأذكر عن كل منها نبذة، موجزة بقدر الامكان، تحدد مدلولها، وتوضح الظاهر والباطن من مراميها، والفروق القائمة بين ما يتشابه منها، أو تقاربت دلالته، كالفرق بين العبري واليهودي، والاسرائيلي والصهيوني، وكذلك الفرق بين العصبية العنصرية واللا سامية . . ونحو ذلك.

«عبري»

الفعل الذي يدل على «العبور» أي الانتقال من ضفة الى الضفة المقابلة، أو من حافة واد، الى نظيرتها، شائع بلفظه في كل لغات المجموعة السامية «العربية، الأكادية، الكنعانية، السريانية، العبرية، النبطية، الحبشية . . . وغيرها». والعبري هو الذي جاء من الضفة الأخرى، وربما كان اطلاقه على نوع من النبق راجعاً الى أنه دخل بلاد العرب من عبر الخليج، أي من ايران. أما تسمية بني اسرائيل بالعبريين فثابتة بنصوص كثيرة من التوراة كما هي الآن. والتوراة نفسها تدعي أن العبريين ينتسبون الى جد قديم اسمه عابر ابن شالح بن ارفكشد، من سلالة سام بن نوح. والباحثون يرون منذ القدم ان «العبريين» كلمة تعني الطائرين، النازحين. لكن من عبر أي نهر أتوا؟. قيل الفرات، وقيل الأردن. ويبدو لي أن هذا النوع من العبور لا يبرر التسمية، ففي العالم القديم كانت كل الشعوب والقبائل لا تكف عن عبور الأنهار والوديان والخلجان، والاستقرار فيما وراءها. وأظن ـ والله أعلم ـ ان هذا الاسم ظهر لتمييز بني اسرائيل بعد عبور البحر من وجه فرعون، وغرق هذا فيه، فكان ذلك يوماً نصر الله فيه عبده موسى. وفي التوراة قصيدة فخر بهذا العبور المعجز منسوبة الى موسى نفسه. فربما كان مولد كلمة «عبري» على اثر تلك الحادثة. وإذا كانت التوراة قد وصفت ابراهيم بأنه «عبري»، فذلك لأنها لم تكتب إلَّا بعد موسى بألف سنة، وبعد ابراهيم بألف وخمسمائة، وهي فترة تسمح بكثير من التخليط والتحريف، والزيادة والنقصان. وسميت لغة التوراة باللغة العبرية لنفس السبب.

وفي ظل الصهيونية المعاصرة عرفنا كلمة «عبري» صفة لبعض التنظيمات السياسية أو الثقافية. فقالوا: الجامعة العبرية بالقدس، ولم يقولوا: الجامعة اليهودية، أو الصهيونية. وفي باريس أصدر جماعة من الأطباء اليهود مجلة متخصصة اسمها «الطب العبري». . وهكذا، كما قررت الصهيونية استعمال «اللغة العبرية»

في التخاطب وهكذا، كما قررت الصهيونية استعمال «اللغة العبرية» في التخاطب والمراسلات والتعليم والاعلام لكن بعد أن «صهينتها» أيضاً، بحيث أصبحت قراءة التوراة فيما بينهم من أصعب الأمور فهماً، وأكثرها غموضاً. وأين بلاغة موسى بن عمران، من لكنة موسى ديان ؟

«اسرائيلي»

جاء في توراة اليهود أن يعقوب بن اسحق، عندما دخل بنسائه وأولاده أرض فلسطين هارباً من وجه حميه لابان، تخطى مخاضة اليبوق، بالقرب من مدينة شكيم «نابلس»، وهناك أوى الى مهجع لينام، فرأى الرب ـ كذا ـ يدعوه الى مصارعته ليختبر قوته، قبل أن «يختار» ذريته لتكون لها السيادة على جميع أمم العالم ! وصمد يعقوب في هذه المصارعة، حتى قال له الرب: إنك من اليوم لن تسمى يعقوب بل اسرائيل، من «الأسر» وهو القوة، وإيل ومعناها الله بالعبرية، فصار هذا اسمه الى أن مات، أي «قوة الله». وإليه ينتسب اليهود الى الآن، ويسمون دولتهم الصهيونية «اسرائيل» أيضاً، كما أن الضابط المنشق على سيدنا سليمان «شيء مثل سعد حداد» واسمه يربعام بن نباط، أقام لنفسه دولة في ذلك الزمن القديم أسماها «مملكة اسرائيل»، التي كانت عاصمتها من بعده في «السامرة» في شمال فلسطين، وهي البلدة التي تسمى الآن «سبسطية» نسبة الى «سبستيان» وهو أحد أسماء القيصر الروماني «أكتافيوس». وإذا كان أصل التسمية في القديم قد جاء من مصارعة للاختبار، فالاسم الحديث يوحي بأنه من قوم يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً.

«يهودي»

كان يهودا «بالدال والذال» من أبناء يعقوب ـ الأحد عشر كوكباً. ومن نسله انحدر داود وابنه سليمان، وأوتيا الملك والحكمة، فكانت أسرتهما اذن من سبط يهودا، فأصبحت رعيتهما تنتمي إليهما، وشتتهم في الأرض ـ «في الغزو الآشوري في القرن السابع قبل الميلاد، حيث سقطت السامرة، وفي السبي البابلي في القرن السادس، حيث دمرت مملكة اليهود في أورشليم، وفي التشريد الروماني على يد الامبراطور فسبازيان وابنه تيتوس في القرن الأول الميلادي، والامبراطور هدريان في القرن الثاني» ـ بقي القوم متعلقين باسم «اليهود» الذي يذكرهم بملك سليمان وداود، ويدعوهم الى العمل من أجل اقامته من جديد. وعلى مدى ألفي سنة كان اليهودي يبادل أبناء ملته التهنئة بالعيد بقوله: السنة المقبلة في أورشليم !.. وكان من يسمعونهم يظنون أن ذلك دعاء بالحج، والوقوف بحائط المبكى في مدينة القدس لا أكثر. ولكن الصهيونية الحديثة جعلت من ذلك برنامج اغتصاب واحتلال واستيطان، وكان ما كان، بسلاح الانجليز ثم الأمريكان.

«صهيوني»

«صهيون» اسم تل كان على مشارف القدس من جهتها الغربية، يقابله جبل الزيتون في شرقها، وعندما عسكر داوود «قبل المسيح بألف سنة» في تلك الجهة،

اتخـذ حصناً عـلى «جبل صهيـون» واشتقاقـه في اللغات السـامية القـديمة مضـطرب غامض، فما يمكن القول ان كان من «الصوان» وهو الحجـر الصلد، أو من «الصون» أي المناعة، أو من «الصية، والصوة» وهي المـرتفع الأجـرد، ومنها في لغتنـا العربيـة «الصياصي» وهي قمم المرتفعات الوعـرة ؟ . على أيـة حال، فقـد أصبح «صهيـون» المعقل الأول لمملكة داود.

وكانت تقوم في مواجهته هضبة «يبوس» وهـو الاسم القديم للقـدس وسكانها من الفلسـطينيـين، ولمـا ورث سليمـان داود، رأى أن يبني القصر والهيكـل والعـاصمـة اليهـودية عـلى الحافـة الغربيـة من هضبة القـدس، بحيث تنتهي أسوارهـا على بعـد كيلومتر من الحرم الاسلامي، ومن كنيسة القيامة، في القـطاع الشرقي من الهضبـة. ولا أسـاس لادعاء المتـطرفـين من أتبـاع منـاحيم بيغن ـ وهـو في مقـدمتهم ـ من أن الهضبة كلها كانت قاعدة لسليمان، وقد قاموا هم أنفسهم بحفائر لاثبات ما يدعـون فباءت بفشل يكـذبهم ويكشف باطلهم. وأمـر سليمان بـردم الوادي الضيق الـذي يفصل هضبة القدس عن صهيون، وهكذا انتهت معالم هذا الجبل، وأصبح حياً في القدس الغربية يحمل هذا الاسم. وكانت بكـائيات اليهـود في الشتات تتجـه بشكل خاص الى صهيون، رمز ملك داود وسليمان، وعنوان القوة والمنعة في مملكة اليهـود، منذ المرثية التي قالوها في القـرن الخامس الميـلادي وهم في السبي البابـلي، وهي تبدأ هكذا: على أنهار بـابل، هنـاك جلسنا، وبكينـا إذ تذكـرنا صهيـون ! . . «المزامـير ـ ١٣٧». وعنـدما تنبـه شباب اليهـود في القرن التـاسـع عشر الى ضـرورة اغتصـاب فلسطين واقامة وطن قومي لهم فيها، تحت وطأة التعصب والاضطهاد الذي تعرضـوا لـه في أوروبا، أسسـوا لهم جماعـات سياسيـة وثقافيـة تسعى لتحقيق هذا المـأرب، وأطلقوا عليها اسم «أحبـاء صهيون» وكـانوا يمـولون هجـرة الراغبـين منهم في اقامـة المستوطنات اليهودية، في هـذه القطعـة من قلب الوطن العـربي. وما أن آذن القـرن التاسع عشر بالانتهاء، حتى كان تيودور هرتسل قد نجح في جمع كل منظمات اليهود في الغرب في وحدة متماسكة، هي الصهيونية العالمية، وعقد مؤتمرها الأول في مدينـة «بال» بسويسرا، عام ١٨٩٧م. ومن يومها أصبح الصهيوني هـو المؤيد لهـذه الحركـة الاستعمارية العنصرية الـلا انسانيـة. وكان مؤيـدوها في أول الأمـر قلة من اليهود، ولكن العقـائد التعصبيـة المضادة التي اشتهـرت باسم «الـلا سـاميـة» شجعت عـلى انضواء أعداد كبيرة من اليهود تحت شعارات الصهيونية، واستحكمت الكارثة بقيام الفاشية في ايطاليا، والنازية في ألمـانيا واتفـاق موسـوليني وهتلر على تحـطيم التعصب اليهـودي، وما ينـطوي عليه من تـآمر. وهكـذا تبلور خلاص اليهـود من الفـاشيـة والنازية، في الاسـراع بالهجـرة الجماعيـة الى فلسطين، ولمـا كانت فـرنسا وانجلتـرا وروسيا وأمريكـا تحارب هتلر ومـوسوليني، فقـد تبنت هذه الـدول أكثر من أي وقت مضى مشروع اقامة الدولة الصهيونية على أشلاء الشعب العربي الفلسطيني، واتخذت من اسرائيل حليفاً لها، ثم شاءت روسيا أن تلعب بورقة القـومية العـربية، فنفضت يدها ـ الى حد ما ـ عن اسـرائيل. أمـا التمزق العـربي الذي هـو السبب الأساسي ـ وربما الوحيد ـ فيما مني به العرب من هزائم في الحرب والسياسة أمام الصهيونية، فقد كانت له نتيجة أفدح من ذلك كله، وهي وصول الصهيونية على اثر «انتصاراتها» الى

تحقيق اجماع يهودي على تأييدها، فيما عدا العالمين ببواطن الأمور في داخل اسرائيل نفسها، ومن استيقظت ضمائرهم لهول ما رأوا من بشاعة العدوان الصهيوني وامعانه في القتل والتدمير والاحتلال والاذلال. أما خارج اسرائيل فلا يزال السواد الأعظم من اليهود في ضلالهم يعمهون.

«العنصرية واللا سامية»

العنصرية هي العصبية ضد فئة أخرى من بني الانسان، أساسها الانتماء العرقي، ومظهرها الكراهية العدوانية بين العنصرين: السود والبيض، الآريين والساميين... وهكذا، والمقصود بالساميين في فلسفة التعصب الحديث، اليهود. ذلك ان البحث في السلالات البشرية ولغاتها قد حدا بالعالم الألماني «شلوتزر» الى أن يطلق على مجموعة لغات آسيا الغربية، التي منها العبرية والعربية، اسم اللغات السامية نسبة الى سام بن نوح، الذي تقول التوراة انه الجد الأعلى لأصحاب هذه اللغات. كان ذلك عام ١٧٨١ ميلادية. ولكن الممثل الوحيد للأمم السامية في أوروبا، والمزعج الوحيد لأهلها أيضاً، كان اليهودي لاغيره. يساكن القوم ويستغلهم ويمتص دماءهم، ويعبث بمقدراتهم وتراثهم، ولا يريد التحضر بحضاراتهم، ولا الاندماج فيهم، فبادلوه الكراهية بكراهية وتحول مقت الساميين، أي اليهود، الى برامج سياسية وعقائدية تهدف الى نبذهم أو اخراجهم من الديار، وأحياناً الى قتلهم وابادتهم. وهذه البرامج العدوانية الوحشية اتخذت اسماً اصطلاحياً هو «مناهضة اليهود» أو «عداء السامية» أو «اللا سامية» باختصار. وقد كتب المفكر اليهودي الفرنسي «برنار لازار» عن اللا سامية كتاباً ضخماً، يبحث فيه أسبابها، فاهتدى الى أن هذه الأسباب قسمة بين الحقد اليهودي، ورد فعله بالعداوة من الأمم الأخرى. ولما بلغت اللا سامية ذروتها في التعاليم النازية الهتلرية، وأصبحت عارا وشنارا على من يعتقدها، استخدمتها الصهيونية تهمة ووصمة لارهاب الناس. فإذا قلت إن اليهود في لبنان والجولان والضفة الغربية وغزة لصوص وسفاحون واستعماريون، فأنا ذنب للا سامية، يجب أن تحل بي نفس العقوبة التي أصابت المانيا كلها. وإذا قلت ان الوئام ـ لا الاستسلام ـ هو سبيل السلام. فأنا من اللا ساميين المتطرفين العتاه، ولا حول ولا قوة إلا بالله!..

في أدغال الحضارة

لا تتسرعوا فتغبطوني او تحسدوني على «النعيم» الذي انا فيه اثناء هذه الصيف، صحيح انني في اوروبا. وان المأوى الذي اعود اليه من كل جولة من جولاتي، هو شقة صغيرة هادئة، لها شرفة منيفة، تطل مباشرة على المحيط، من امام، وعلى السماء من فوق. وصحيح ان غرفة نومي، من الجهة المقابلة لها نافذة تشرف على غابة صنوبرية خضراء. وصحيح انني عندما انزل في الصباح للنزهة، يتلقاني نسيم البحر النقي المنعش، لا يعكره الا ما تتركه الكلاب الاوروبية المدللة، عند قضاء الحاجة، من علامات على الطريق، لا تملك عنها محيصا، ولا مفر لك من اذى رؤيتها بعينيك، حتى لا تقع فيها بقدميك. ثم اعود من نزهتي محملا بالجرائد والمجلات فاجلس في الشرفة اتطلع الى افواج المصطافين، وهم - وهن ايضا - يعدون نحو الرمال والامواج، كالغزلان حينا، وكالحمر المستنفرة احيانا، ولانني لست من هواة السباحة، ولا التمرغ بين هذه الاجسام العارية، فانني اقنع بجلستي تلك. الى هنا وكل شيء على ما يرام. لكن يبدأ الوقت الذي لا احسد عليه، عندما آخذ في قراءة ما احضرته معي من الصحف، ما هذا يا قوم؟ ما هذا الجنون الوبائي في العالم المتحضر؟ . . قراصنة الهواء يأسرون بعض الطائرات. . مذبحة في ماخور تشترك فيها شراذم من السكارى. . اختطاف بنات ونساء، واغتصابهن، وقتلهن. . الشرطة تعتقل مديرا كبيرا لبعض المؤسسات، لاتهامه بالتزوير والتهريب والسرقة. . شباب في ربيع العمر ينتحرون. . او يقتلون عجوزا مريضة وحيدة، ويستولون على ما عندها من المدخرات، لشراء المخدرات. . ديناميت، وقنابل، ومتفجرات موقوتة، في المطارات، والاسواق والملاهي، والحانات . منحرفون عقليا او عصبيا، يقتلون الاطفال، والنساء. . او يشعلون الحرائق في كل مكان. . متعصبون دينيون او عنصريون يعتدون على السود، واليهود، والآسيويين، والمسلمين. . عصابات من كل شكل، وكل تيار من تيارات السياسة، وكل اسلوب من اساليب الجريمة! . . كل هذا، وانا مازلت في اخبار الحوادث المحلية، العادية جدا، التي لم يعد يعني بقراءة

تفاصيلها الا القليل من «المتخلفين» امثالي، فاذا ما انتقلت الى الانباء العالمية، فذلك هو العذاب الاكبر، هذه الدول المتقدمة، التي تقوم على العلم، والخبرة الواسعة، والوثائق الدقيقة، والحاسبات الكهربية الجبارة، والاقمار الصناعية المذهلة، والكلمة العالمية المسموعة، والقوة الاقتصادية الساحقة، والمستوى الحضاري الرفيع . هذه الدول القائدة، الرائدة، كيف تعجز عن تحقيق السلام والعدالة والامن والرفاهية؟ وكل منها ـ في قنواته الاعلامية ـ يشنشن ويطنطن بكل المبادىء الشامخة الباذخة، التي ورثها عن مفكرين تبهرنا اسماؤهم: جان جاك روسو، صاحب نظرية العقد الاجتماعي، ابراهام لنكولن قاهر التعصب الاقليمي والعنصري، مونتسكيو مفلسف القانون، كارل ماركس ابو المادية الجدلية اللادينية، بنتام مقنن الاشتراكية العلمية، مارتن لوثر مزعزع البابوية، ومع ذلك فكل دولة من هذه الدول تتربص بجارتها الدوائر، ولا تفتأ تضربها في الصميم، الذي غالبا ما يكون نحن، امم العالم الثالث، فالشيوعية تضرب امريكا في فيتنام، فترد لها هذه ضربتها في افغانستان، ثم تتكرر نفس العمليات في امريكا اللاتينية، ليرتد صداها في الحبشة، ثم يتناثر الشرر احيانا ليمس بريطانيا والارجنتين في فولكلاند، او فرنسا ومنظمة الوحدة الافريقية في تشاد، حتى «تتوازن» العمليات مع موضوع البوليساريو، اما فلسطين فتبقى ورقة للمساومة بين العمالقة، وكلها لصالح اسرائيل .

ان حالي مع الانباء العالمية يرثى لها! . لدرجة انني اتهم نفسي احيانا بسوء الظن بمستقبل العالم. وانظر الى الشاطىء المترامي امامي، واقول: اذا كانت الدنيا كما تتوهم «على كف عفريت»، فكيف ساغ لهذه الحسناء الذهبية الشعر، ان تستلقي عارية هكذا تتجاذب اطراف الحديث مع هذا «العجل» المتكىء على كتفها؟ وهذه العروس السمهرية، التي تسابق في السباحة صديقها ذا اللحية الحمراء؟ وهذا الافريقي الاسمر الذي يلحس بعض المثلجات، وهو «يغلي» من النظر الى صدر رفيقته الشقراء التي تلتهمه بعينيها الخضراوين؟ اكل هؤلاء الآمنين الناعمين لا يعنيهم مصير الدنيا، وانت وحدك الذي ترى ما لا يرون، وتعلم ما لا يعلمون ؟

وتحولت هذه الفكرة في خاطري الى هاجس ثابت ملح، وذات مساء وكنت قد فرغت من قراءة اهم صحف اليوم، الانجليزية والفرنسية والالمانية، وبدأ شيء من الملل يغزوني مع الظلام، اضأت نور الشرفة، واغمضت جفني، ورحت افكر: ان هذه الحضارة قائمة على فساد، والا لاستقام امرها، وسعد بها الناس، ولانني لست فيلسوفا فقد ذهبت بذاكرتي الى كل من فضلوا الفطرة المطبوعة على الحضارة المصنوعة، وكل من حنوا الى جمال البساطة ـ على ما فيها من شظف، وعلى ما تفرض من الرضا والقناعة ـ ومؤثرين ذلك على صخب المدينة، وتعقيدها، وبريقها، تذكرت هذه المرأة العربية الاصيلة التي قالت:

لبيت تخفق الارواح فيه ... أحب إلي من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إلي من لبس الشفوف

الى آخر ما قالته رحمها الله، منذ اكثر من الف وثلاثمائة عام، وهي بعد في دمشق، لا في ميامي ولا دوفيل ولا كابري، ولا تعرف التلفزيون، ولا علب الليل، ولا اي شيء مما عرفناه نحن والعياذ بالله!

وقد عرفت احدى عجائز ذلك الزمان بصيصا ضئيلا من هذا، فكيف قالت؟ قال الراوي: انها خرجت من البادية الى حاضرة مجاورة لامر اضطراري، ورآها بعض الماجنين المجانين، فتآموا على ان يسخروا منها، للضحك والتسلية. وكان الحر شديدا، فاحضروا لها قدحا من النبيذ البارد، وقدموه اليها، ولم تكن المسكينة تدري ما هو. فلما شربته وبدأت تحس بنشوته، سألت اولئك الشباب: اتشرب نساؤكم من هذا؟ قالوا: نعم! قالت تزنين ورب الكعبة! وما احد في بلدكم يعرف من ابوه! وانصرف اولئك الفسقة صاخبين ضاحكين من «تخلف» هذه العجوز، غفر الله لها، واحسن اليها! فلو رأت ما آراه انا اليوم في ايدي البنات والنساء، من الشمبانيا، والكوكتيل، وكؤوس الاحمر والابيض والاصفر، لتقتلهن في سبيل الله! وافضى بي هذا الى ما قاله المتنبي في جمال الحضارة الزائف:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية   وفي البداوة حسن غير مجلوب

كل هذا، لان ابا الطيب رأى نساء «الحضارة» يخرجن من الحمام - وهو حمام السوق العمومي - «بادية كعوبهن.. صقيلات العراقيب»، فما باله لو رأى شواطىء العراة في اوروبا اليوم، او المصايف العادية في فلوريا ولوس انجليس، وحتى الاسكندرية والدار البيضاء؟!

وعدت من شرودي الى الصحف. لم يعد فيها شيء لم اقرأه، الا الاعلانات القصيرة المبوبة، وعهدي بها كان، منذ ثلاثين عاما، ان بعضها عن فرص للعمل، او مساكن وعقارات، او شيء من عروض التجارة او - احيانا - رغبات في التعارف من اجل الزواج، وخطر ببالي ان القي عليها نظرة سريعة، للمقارنة، ولتمضية بعض هذا الوقت الممل، الذي ان لم نقتله قتلنا، حتى في اجازة، باوروبا، على شاطىء من اجمل شواطىء المحيط. ومرت العناوين ورؤوس الاعمدة، كعهدي بها تقريبا، لكن.. ها هنا عنوان جديد لم اكن اعرفه في شبابي، هو في بعض الصحف «خاص جدا» وفي بعضها «الحب والحرية» او «نداء!» وما اشبه ذلك من المعاني. وتابعت القراءة لما هو منشور تحت هذه العناوين، فلم اكد اصدق عيني، اهذه هي حضارة التقنيات المعجزة؟. لقد سكنت في المدينة الجامعية بباريس وانا طالب، وكانت جدران دورات المياه فيها مملوءة بالكتابات، الجريئة، قليلة الحياء، وكنا نقرأ بعضها ونضحك، ونقول انها مجرد «شوارد» من رشاش البالوعة او المرحاض، وكانت المدينة الجامعية قد خصصت بعض عمالها لتطهير الحيطان من تلك القاذورات، ثم اخذت علما - بعد ذلك بما يناهز عشرين سنة - بان احد ضباط الآداب العامة في الدانمرك كان يعد رسالة دكتوراه عن التفسير النفسي والاجتماعي للكتابة على جدران الحمامات ودورات المياه العامة، وفي مجموعة مختارة من بلدان العالم المتحضر، وبلدان العالم الذي ليس كذلك. وارسل الى «زملاء» في شرطة

الآداب في تلك البلدان راجيا ان يوافوه بصفوة من «مختارات» هذا الادب المراحيض، وكان بعض اولئك الزملاء يسخر من هذا الدانمركي ويفكر في ان يرسل اليه نصيحة بان يقدم رسالته هذه، مكتوبة على جدران الكلية التي يدرس فيها! . .
ولكن الموضوع اثار فضولي. فبقيت اتابع تطوره، الى ان نوقشت الرسالة «مطبوعة على ورق» وكان من نتائجها ان «العالم المتحضر» اكثر تعبيرا في مراحيضه عن الشذوذ الجنسي والسلوكي بكافة اشكاله، بما في ذلك السكر والمخدرات والاباحية الفوضوية للاجساد والاعراض، بينما الدعاة «المراحيضيون» في العالم الثالث اكثر اهتماما بالسياسة، وتهجما على قادتهم وحكامهم، وهم اشد بذاءة في هذا الميدان من «المتحضرين» وقاموسهم صريح وغبي وضحل . .
نعم فكرت في هذا كله وانا اقرأ في مختلف الصحف الاوروبية، هذا النوع من الاعلانات ويا للهول! انها صرخات جنونية من التفسخ الاخلاقي والاجتماعي، تسللت في صحافة القوم تحت شعارين: حرية التفكير والتعبير، من جانب اصحاب هذا الكلام، وحرية الكسب والعمل عند اباطرة الاعلام، ثم هناك حق الحكومة من الضرائب على الربح والدخل، تأخذه حتى من المهربين، وبنات الهوى، واندية القمار، وتجار المخدرات، حتى لو قبضت على بعضهم، وزجت بهم في غيابات السجون، فلم لا تترك الناس احرارا، ما دام ذلك يجلب لها مزيدا من المال؟. وهل هي اقل قدرا من القيصر فسبازيان، عاهل الامبراطورية الرومانية في القرن الاول الميلادي، الذي استنفذ كل ما يمكن دفع ضريبة عنه، وماتزال خزائنه تحتاج الى المزيد. فبنى في مدن الامبراطورية مراحيض عامة، وجعل على دخولها ضريبة، كما جعل على الاستغناء عنها بالجدارن والخرائب غرامة، ويومها دخل عليه احد اعضاء مجلس الشيوخ «السناتور» وصاح به غاضبا: انه لشيء مقزز ان تدخل الى خزائن الامبراطورية العظيمة اموال من مثل هذا المنبع! قالها وهو يغطي انفه اشمئزازا، فرد القيصر بهدوء: النقود لا رائحة لها!. وذهبت الكلمة مثلا، واصبحت في الغرب الشعار الاول في السياسة والاجتماع والدين والاخلاق، الى يومنا هذا .
النقود لا رائحة لها، حتى عندما تأخذها صحيفة عن اعلان ينشره زوج لامرأة يصف هو اخص مواهبها في الاغراء والاثارة، ويقول انه يبحث عن رجل آخر «يشاركه» في هذا النعيم!. او هؤلاء الشواذ من الرجال او النسوة الذين يبحثون عن «اقامة علاقات حميمة جدا» مع عشيق او عشيقة من نفس الفصيلة!. وبعضهم يذكر بالتفصيل «التخصص الدقيق» الذي يحسنه في هذه العلاقات! او هذا الحطام البشري الذي يتوسل بمنتهى المذلة والمهانة، عله يجد امرأة عنيفة شرسة، طويلة اليد واللسان «سادية» اي مصابة بالجنون العدواني، لانه يسعد عندما تصفعه وتشتمه، سرا او علنا، وعندما تنهال عليه ضربا بالسوط والعصا والنعل، فان طاح من يدها ذلك، تناوله هو، واعاده اليها، ساجدا على الارض، مقبلا يديها وقدميها، لان المذكور مصاب باللون المقابل من الجنون «المازوشية» اي الرضا بالذل والعذاب والالم، بسعادة ولذة وسرور وابرنشاق !

وهنيئا للوحوش التي يأكل بعضها بعضا في مجاهل الدنيا، وطوبى لكل الحفاة الاميين المتخلفين الهائمين على وجوههم في الادغال، فقد نجوا من السادية، والمازوشية، والشذوذ، والانحراف! بل نجوا من قراءة الصحف، ورؤية اشرطة الفيديو، وتشنجات العربدة الليلية في ادغال الحضارة! . . ومع ذلك فقد ذكرتني بهم بعض الزوايا في هذه الاعلانات: الساحرة الافريقية كمبوناباريتا، تقرأ الغيب في الكف وورق اللعب وتحسب الطوالع وتسخر الجان للحب، والثأر، والمال، وتحقيق الآمال! . . العراف الهندي، ووريث الاسرار البرهمانية، سدر نابور راجا، كريشنا، يداوي - حتى بالمراسلة - الافكار السوداء، والضعف الجنسي، والعقم عند النساء ويحل ازمات الزواج للبنات! . . المنجمة المصرية نوبيشا كنديشا زوجة سفير العالم السفلي، الجني الجبار برلام كوشام، تعمل المعجزات، بالمحار والرمل واسنان التمساح وناب الافعى وقرن الخرتيت وشعر شوارب الاسد، رسم الزيارة كذا! . . يا عالم! . . اين المنطق العلمي؟ . . اين فلسفات ديكارت وكانت وبرتراند راسل؟ . . لا شيء . . لا شيء . . ! واذا كانت ادغال التخلف والجهل ماتزال تتقاتل بالرمح والسهم والخنجر، فقد ابقى هذا على رجولة ابنائها، وانوثة بناتها، وعلى شجاعة هؤلاء واولئك في لقاء الشدائد ومقاومتها، دون التفكير في الاستسلام او الانتحار او الخيانة .

اما في ادغال الحضارة - ومع هذا الغثاء من البشر - فان حرب الازرار، والاشعاعات، والفضاء الخارجي، قد اصبحت ضرورة دفاعية تفرض نفسها على هذا المجتمع العاجز عن مواجهة الموت وجها لوجه، لانه لم يعد يؤمن الا بالارقام، اما المبادىء فهي عنده لعبة من الالعاب كالملاكمة وكرة القدم، لا اكثر. وقفز الى تفكيري اسم بين اسماء كثيرة - هو رجاء جارودي، رجل السياسة والمفكر الفرنسي الذي ضاق ذرعا بالعيش في ادغال الحضارة، ووجد ان اعتناق الاسلام هو الحل الوحيد، وقد وصل الى هذه النتيجة بعد تعمق تام في الفكر الغربي، وشاترك كامل في السياسة الاوروبية، تحت شعار الوطنية الفرنسية طورا، والشيوعية الماركسية تارة، والرفض لكليهما ورفع راية الحرية مرة . . وهكذا . ولكن كل هذا تكشف له عن غاليط، واوهام، وصدوع، وخراب، وسراب !

وشاءت اسفاري ان القى كثيرا من المفكرين، وان اتبادل معهم الرأي حول الخطأ الواقع في بناء الحضارة الغربية الحديثة . وخرجت من تلك المناقشات بان الانسان يستطيع - اذا اقتنع - ان يخضع لقانون واحد، بينما يستحيل اخضاعه لقانونين، لاسيما اذا كانا متباينين من حيث المصدر والهدف . وقبل العصر الحديث، كانت كل امة من امم الارض تخضع لقانون واحد - حسنا كان او قبيحا - تتأقلم فيه، وتأمن، وتزدهر، وكان بعض ذلك من نوع «القانون العرفي» المستمد مما اختاره الناس على مر اجيالهم، وبالتجربة الطويلة، وبعض كان قانونا دينيا مقدسا . الى ان انتشرت في العالم الحديث نظريات اجتماعية جديدة، ترتب عليها اخضاع كثير من شعوب العالم لقانونين مختلفين في آن واحد . وكان الغرب من اشد اصقاع العالم

اصـابة بهـذا التناقض. فـالناس مسيحيـون. لكن القانـون الكنسي كـان قـد تمـزق واهتراً، لكثرة ما تعرض له من هزات وكوارث وألاعيب. كما انه كان قد تجمد بينـما العـالم يتطور وهكـذا نشأت القـوانين الـوضعية، بجـانبه اولا، وفـوقه بعـد ذلـك، وصادف هذا عصر الاستعمار، فنقل المستعمـر الغربي هـذه الازدواجية العـرجاء الى كثير من بلدان العالم الثالث. وهكذا انتقل الوباء، وتفشى بين اقوام لم تكن ظروفهم الاجتماعية لتقبل مثل هذا. وعندمافزعت بعض دول الغـرب من تلك الازدواجية، بـادرت بالغـاء القانـون السمـاوي، حتى «تصنـع» هي قـوانينهـا حسب مصلحتهـا العـاجلة. ومن اوضح امثلة ذلـك الشيوعيـة، وكان هـذا التلاعب ـ ومـايزال ـ يتم باسم الحرية. وكم من الجرائم ترتكب باسمها بكل اسف!

من الطبيخ الاسرائيلي

الطبيخ الاسرائيلي، في البيوت اليهودية، من اطيب انواع الطعام، لكننا ـ في لغتنا العربية، وفي لغات كثيرة في العالم ـ نستعمل كلمة (الطبيخ) زيادة على معناها الحقيقي، استعمالا مجازيا، اي ادبيا وفنيا، نخرج به من دائرة القدور والصحون والنيران، الى تخليط المعقول، باللامعقول، والشيء باللاشيء، والحق بالباطل، للوصول الى غاية خبيثة، ينخدع عنها الاغبياء، ويقع في ويلاتها البسطاء. فهذه الخلطة المسمومة، توصف بأنها (طبيخ). وهكذا يتبين لنا ان الطبيخ على الحقيقة قد يكون هنيئا مريئا، وقد يكون غير ذلك، بحسب الاصناف المستعملة في إعداده، وعلى قدر مهارة الطباخ وذوقه وخبرته. اما (الطبيخ) المجازي، في السياسة، وفي الادب، وفي السلوك والأخلاق، فانه شر كله. كامب ديفيد طبيخ، وابتكارات السيد فليب حبيب في منطقتنا طبيخ، وانجازات الاتحاد السوفياتي في افغانستان، والولايات المتحدة في امريكا اللاتينية طبيخ، ومعظم انتاجنا من المسلسلات التليفزيونية، والمؤتمرات الثقافية طبيخ، كما ان اخلاق الناس وضمائرهم، وراء الستور الحضارية الوقورة النقية، طبيخ في طبيخ، احسن منه تقشير البصل، وقدح الزند، والنفخ في الحطب.

ولكي يأخذ القارىء فكرة عن الطبيخ الاسرائيلي الحقيقي ـ اي بالمعنى الغذائي ـ بعد ان اثنيت عليه بلا تحفظ، اقول انه يقوم على مبادىء وقواعد دقيقة ومحددة، دون ان تكون له (اصناف) او اطباق معدودة محصورة. فهو مطبخ حر، داخل ضوابط معينة. فلا يحل لليهود من لحم ذوات الاربع إلا ما كان منها له ظلف مشقوق، وليست له انياب، ويجتر، كالبقر والغنم ونحوها. فلحم الخنزير حرام لأن هذا الحيوان له ناب، ولا يجتر، حتى وان كان ظلفه مشقوقا. والجمل محرم وكذلك الأرنب، لأن الاول له خف، والثاني مخالب واظافر، بدل الظلف المشقوق. والطيور حلال إلا الجوارح، ذوات المنقار المعقوف المخالب والمخالب الناشبة، من أكلة اللحوم والرمم، اما صيد البحر فانه في شريعتهم ضيق الحدود جدا، لا يحل منه إلا السمك الذي عليه قشور وزعانف، وجانباه متماثلان. فالاسماك الملساء الجرداء

كلها حرام، والقشريات كالسرطان والاربيان حرام، والسقنقور (وهو حيوان يشبه السمك لكن له ارجل) حرام. كما ان احكام ذبح الحيوان دقيقة، فالسكين يجب ان تكون ماضية، ليس في حدها تسنين، والحيوان لا بد ان يكون سليما مستريحا، غير جائع ولا عطشان ولا خائف. والدم حرام، كما يحرم الجمع بين اللحم واللبن، او مشتقاته ومستخرجاته، في طعام واحد. ولا اريد ان يطول بنا الحديث في هذا الباب، حتى لا ينقلب المقال درسا في الفقه اليهودي، على شدة حاجتنا الى من يحيطون بتفاصيل ذلك، وغيره من اشكال العرف والعبادة، عند القوم الذين زرعهم الغرب في ترابنا، رغم انوفنا، بطبيخه المعهود، واليهودي العادي شديد الحساسية ازاء هذه التفاصيل.

اذكر من ذلك ان اسيرا اسرائيليا جاء امامي للتحقيق اثناء حرب اكتوبر عام ١٩٧٣م. وبعد ان تجاوزنا مرحلة الخوف التي تخيم على الاسير في البداية، ورأيته يبتسم، ويذكر لي ان اسمه نحمان، وانه يعمل اجيرا في مستعمرة صهيونية زراعية (موشاف) لاحظت احمرارا في عينيه، فسألته عن السبب، فقال: لم انم منذ ثلاثة ايام، اذ بدأ كل شيء اعرفه عن الحرب يتحول الى متاهات، واسرار، وقلق، حتى الأكل الذي نأكله هنا، لا إدري احرام هو ام حلال، قلت: اطمئن، يا نحمان، فاللحم لحم بقر او غنم، والسمك من المغطى بقشور. ولم يدخل اللبن او الزبد في طبخه لغلائهما الشديد. وتنفس الولد الصعداء، ثم عاد يسأل: الذي يذبح الحيوان؟ قلت: هو شخص مأذون شرعا، يذكر اسم الله على الذبيحة، ومعه طبيب بيطري يتأكد من سلامتها. قال بسذاجة: ولماذا تحاربوننا اذن، وانتم تأكلون مثلنا؟ قلت: انت تقلب الحقائق يا بُني، فانتم الذين تحاربوننا، ونحن نحاول مستميتين ان ندافع عن انفسنا امامكم، قال: هذا عكس ما قيل لنا في اسرائيل! .. قلت: ادري. انهم يحشون ادمغتكم بخزعبلات (الأمن الاسرائيلي)، وبالتخويف من (الوحشية) العربية والاسلامية، ومن (اللا سامية) والثأر والغدر المتفشيين فينا شعوبا وحكومات. فاعلم يا نحمان انكم لو انتصرتم في هذه الحرب، ودخلتم القاهرة وعمان ودمشق وبيروت، فان كهنة الصهيونية في دياركم سيواصلون هناك صراخهم المسعور خوفا على الأمن الاسرائيلي المهدد. انه يا بُني طريقة سهلة لايجاد سبب مباشر للعدوان، ولتبرير الدماء المسفوكة منكم ومنا في هذه الحروب. انه يا نحمان لون من ألوان الطبيخ الاسرائيلي، الذي لا يذوقونه هم، ولكن تبتلعونه انتم، ونبتلعه معكم مضطرين مجبرين. قال: عجيب! .. ان صورتهم التي تصفها لي، هي الصورة التي يقدمونها لنا كل يوم عن مجرم الحرب يانحمان، الذي خطفوه وقتلوه. قلت: ألم تسأل الناس في غزة او في بيت لحم او الخليل او نابلس او القدس، كيف يتصرف الحاكم العسكري الاسرائيلي معهم؟ ان اسيادك يا نحمان يعرفون ان (مجرم الحرب) هو فقط الذي يخسر هذه الحرب. وفي يوم ما، عما قريب او بعد حين، سيصحح التاريخ نفسه، عندما تتكشف الحقائق، ويسقط قناع (البطل) عن وجه (مجرم الحرب). وأراكم بارعين في الحساب، إلا في هذه المسألة التي جلبت عليكم الدمار مرارا في التاريخ.

والمطبخ الاسرائيلي ـ السياسي ـ شديد التعقيد، ليست له بساطة الموائد اليهودية

الطيبة. ذلك ان الطباخ الصهيوني لا يكتفي بايقاد ناره في تل ابيب، بل لعل الناس في تل أبيب ليسوا إلا خدما في هذا المطبخ. اما الطباخون المهرة، الاساتذة، فكثير منهم يرى ان المطبخ الصهيوني يقوم بطهي الوانه المختلفة، بعيدا، في اماكن تتوفر لها التقنيات المتقدمة جدا، ولا يشتبه المرشحون للتسمم بها حتى في وجودها، اذ لا نار ولا دخان، ولا رماد. ولهذا امثلة كثيرة.

هل سمعتم مثلا في عالم (الطبيخ الاسرائيلي) بهيئة اسمها (ليكرا)؟. ومقرها باريس؟ واسمها هذا هو الحروف الاولى من اسمها الكامل باللغة الفرنسية، وترجمته: الرابطة العالمية ضد العنصرية واللا سامية. والاسم كما نرى جميل، ومعناه نبيل، حتى لقد فكرت ذات يوم في ان التمس (شرف) العضوية في هذه الرابطة العالمية، ذات الموقف المجيد، والمقصد الحميد، ولكنني - على عادتي من التردد آثرت ان ازداد بها علما، وقرأت قانونها الاساسي: كله شريف نظيف، ثم قرأت اسماء الاعضاء المؤسسين والممولين والعاملين. وهنا تحول ترددي الي يأس، وشعور بالنقص والتخلف، وخوف شديد... من المعلوم لا من المجهول. كل اولئك الاعضاء هم امن صحاب الاموال، وكبار رجال الاعمال، او من ذوي الاسماء العالمية الطنانة في ميادين السياسة والفن والادب والعلوم والاعلام. وعدت اقول لنفسي، بعد ان صعرت خدي، ولويت عنقي، ونفخت اوداجي، ونفشت صدري: وما عليك يا ولد! لا يأبى الكرامة إلا لئيم!.. صحيح ان احوالك المالية - بالنسبة لزميل المستقبل البارون روتشيلد - لا يمكن ان تقول انها مشجعة، كما ان شكلك يعجز - بكل تواضع - عن منافسة فلانه او فلان من كواكب المسرح والسينما، وفي الادب ربما يعرفك تلاميذك، واخوانك الدراويش قراء الكشكول، لكن اين انت من جائزة نوبل؟ ورئاسات الأكاديميات؟. وبريق الاوسمة وغيرها من الانعامات؟ وكاد الدمع يفيض من عيني، وانا اردد قول المرحوم الشاعر علي محمود طه: ان من ضيع في الأوهام عمره! لولا انني انطلقت (ادندن) بهذه الكلمات على لحن محمد عبدالوهاب. وكدت انسى في هذا الهياط والمياط الرابطة العالمية (ليكرا).

ولكنني عدت من جديد الى اسماء الاعضاء. كلهم من اشهر الاثرياء والفنانين والعلماء والأدباء، ولكن - وكأنها مجرد صدفة - اكثرهم من بني اسرائيل!.. وليكن!.. هل انت عدو لبني اسرائيل؟ ابدا، والله العظيم! لكن... كان عليك ان تتوقع هذا من اسم الهيئة، ووصفها لنفسها بأنها ضد العنصرية واللا سامية!.. صحيح.. والمسألة الآن شائكة جدا. فانا مستعد لأن اموت دفاعا عن اي يهودي يضطهد ظلما وعدوانا في العالم، ولكنني في نفس الوقت اموت دفاعا عن اية ارض عربية يدوسها اليهودي - عفوا! الصهيوني - ظلما وعدوانا. وهكذا صرفت النظر عن عضوية (ليكرا)، ليس شعورا بالنقص - هذه المرة - بل تجنبا للحرج، وابتعادا عن الشبهات.

وكنت دائما اتهم نفسي بعدم التعمق في الامور بما يكفي لاتخاذ موقف واضح منها. ثم جاءت الاحداث تبرئني من هذه التهمة، على الاقل في موضوع (ليكرا). ففي العام الماضي، والعسكرية الصهيونية تجتاح لبنان الى بيروت، والجبل وسهل البقاع، والمذابح تهز الضمير العالمي كله، وقفت (ليكرا) جامدة، وخرجت بالصمت

عن لا ونعم، إلا من بيانات مختصرة لا تدين فيها احدا، وتنصح بقبول (الحلول السلمية) التي يعرضها مناحم بيجن وشارون وريجان وفيليب حبيب. اي انه ترى ان (الطبيخ الاسرائيلي) هو اجود نظام غذائي للعرب، غني بالفيتامينات، ومدهش في بعث النشاط والحيوية على موائد المفاوضات.

في نفس تلك الفترة كتب شاب ـ يقال انه عربي، اسمه كامل ـ رسالة ملتهبة الى صحيفة (ليبراسيون) الباريسية المعارضة، يصرخ فيها ويولول من وحشية السلاح الصهيوني في بيروت، ويدعو الى (المعاملة بالمثل)، والا تأخذ الناس رحمة بالسفاحين. من هو كامل؟ يرد المحققون الفرنسيون بما معناه تقريبا: الله اعلم!..

المهم ان (ليكرا) رفعت قضية ضد صحيفة (ليبراسيون) تتهمها فيها باللا سامية، وتطلب لها الويل والثبور، وعظائم الامور. اما الصحيفة فقد دافع عنها محامون من جهابذة الاساتذة، وقالوا للقضاة ان صحيفة (ليبراسيون) نشرت سطور المسيو كامل في بريد القراء، وهو في كل قوانين العالم منبر حر، يعبر فيه القارىء عن رأيه هو لا عن رأي الجريدة. واضافوا ان الجريدة عقبت على رسالة هذا القارىء بما يعبر عن رفضها للاحقاد وألوان التعصب المختلفة. وطالت حبال هذه القضية الى هذا الصيف الحالي، حيث اصدرت الدائرة السابعة عشرة لمحكمة الجنح الجزائية بباريس، يوم الاثنين ٤ يوليو١٩٨٣ حكمها بخمسة آلاف فرنك غرامة، وخمسة آلاف اخرى تعويضا لمنظمة (ليكرا)، ونشر الحكم المذكور في ثلاث صحف او مجلات تختارها (ليكرا) في حدود اجور عن هذا النشر قدرها خمسة آلاف فرنك ايضا. وكانت (ليكرا)، وما تزال، تلاحق كل صحيفة فرنسية تتصدى للعربدة الاسرائيلية في الشرق العربي الاسلامي، ولم تفلت من انيابها ومخالبها حتى صحيفة (لموند) الوقورة، المشهورة بتشددها وتدقيقها فيما تنشر، وبالتزامها باسلوب رصين بعيدا عن التحرش او المهاترة، فضلا عن العنف او الاسفاف. لكن (ليكرا)، التي أخنى عليها الدهر، فانغمست حتى ام رأسها في (الطبيخ) الاسرائيلي، تريد ـ في بلد يفخر بحرية التفكير و التعبير ـ ان تمارس هذا اللون من الارهاب والابتزاز، حتى تكمم الأفواه والأقلام، عن تناول اسرائيل بالنقد او الملام.

نشرت صحيفة (ليبراسيون) تفاصيل الحكم عليها في صبيحة اليوم التالي. ثم علق عليه احد محرريها تعليقا طويلا. وكأنما ارادت الصحيفة ان تقلب قدور (الطبيخ الاسرائيلي) على رأس (ليكرا). اذ ان المحرر الذي كتب التعليق يهودي ـ اسمه لوك روزنزفيج ـ وهو يشير بالحاح الى صفته هذه في ثنايا المقال، ويصف ادعاء (ليكرا) التصدي للعنصرية واللا سامية في هذه القضية بأنه مغالطة من مغالطات الدعاية، تصيب العقل بالخبال (الهستيريا)، وان توجيه هذه التهمة الى رئيس تحرير الجريدة امر لا يمكن تصديقه، ولا يجوز التساهل فيه او السكوت عليه.

ويبدو ان رائحة (الطبيخ) الاسرائيلي قد فاحت هذه المرة بطريقة منفرة، قد تؤدي الى عكس النتائج التي ترجوها الصهيونية، فقرر (المجلس التمثيلي للمؤسسات اليهودية بفرنسا) انشاء مركز للدراسات المتخصصة في (اللا سامية) المعاصرة ـ يا ساتر يارب! ـ يقول صاحب فكرته، ورئيس هذا المجلس التمثيلي، المسيو اندريه ورمسر، انه سيكون على غرار معهد الشؤون اليهودية، في لندن، الذي يجمع

المعلومات، ويحلل الملابسات السياسية، والثقافية للكيان اليهودي. ويزيد صاحبنا الفرنسي ان المركز في باريس سيكون منتدى للتفكير والتحليل، وتبادل الباحثين والمناضلين، المحترفين، او المتطوعين. وسيكون آلة قتالية من اجل طائفة اليهود، كما سيكون للوطن الفرنسي حصنا امينا للمراقبة ضد الافكار او القوى غير الديمقراطية، او الدكتاتورية، او الفاشسة، اوالعنصرية، بكافة تياراتها.

وقد لا يصدق القارىء عينيه، لا يا سيدي! لقد ظهر نبأ هذا المولود الجديد للمطبخ الاسرائيلي في صحيفة (لموند) ـ عدد السبت ٩ يوليو١٩٨٣ ـ صحيفة ٧ ـ عمود ١، (في آخر العمود).

وبعد فقد صدق لوك، رونزفيج في مخاوفه من اصابة العقل بالهستيريا، بسبب هذا (الطبيخ الاسرائيلي)، الذي يسميه هو بحشمة وحذر (مغالطة). والطبيخ الاسرائيلي ليس وليد اليوم، فكم عانت منه شعوب وحكومات وحكام، وكم ذهب ضحيته أيضا كثير من فضلاء اليهود، الذين اهلكوا في قدور الطبيخ الاسرائيلي هذا. قال الراوي: ان اليهود بعد التشريد الروماني في القرنين الاول والثاني للميلاد، علي يد القياصرة: فسبازيان وتيتوس وكاليغولا، تراجان ونيرون وهدريان، كانون قد اجتمع شملهم من جديد، باعداد كثيفة، في روما عاصمة الامبراطورية. وكان احد فقهائهم يقوم بالتدريس لمن شاء منهم حتى لا ينسوا دينهم في هذا الشتات. وكان اولئك اليهود من جميع انحاء العالم المعروف اذ ذاك، وانطلق هذا الحاخام يعلمهم الحلال والحرام في الطبيخ الاسرائيلي. وبدأ ـ كما بدأت انا هذا المقال ـ بذكر ما يحل ذبحه من الحيوان، وهو ما له ظلف مشقوق، وليس له ناب، ويجتر، وضرب مثلا بالبقر والغنم. وبدأ الطلاب يسألونه عن حيوانات اخرى: الماعز؟ نعم! الغزال؟ ايضا! الوعول؟ كذلك! اليعفور؟ وسأل الشيخ، فلما عرف صفة هذا الحيوان احله ايضا. والتيمور. . . والباك. . ، الزيبو. والرنة واللاما. . والألباكا؟ . . . وضاق صدر الرجل بكثرة الاسئلة، فصاح قائلا: القاعدة واضحة. . كل ما له ظلف مشقوق، ويجتر، وليس له ناب. . اذا وجدتم هذه الصفات مستوفاة في (القيصر) فكلوه! . . . وكانت مباحث القيصر قد تعودت ان شيوخ اليهود اذا تكلموا كان كلامهم ظاهرا بريئا، وباطنا دنيئا. . وظنوا ان كلام هذا الفقيه الهرم من ذلك النوع. فأخذوه وذبحوه. وقد كان (الطبيخ الاسرائيلي) دائما يصطدم بطباخين امهر منه، واعتى. فحذار يا بني اسرائيل من طباخيكم، حتى لا تنطبخوا معهم في قدر واحدة.

المــال القــذر

من فنوننا الادبية العريقة، والمظلومة في آن واحد، فن القصة القصيرة، فنقادنا يتناولونها عرضا لا غرضا، بحيث يشعر المطلع على كتاباتهم بان هذا الفن المنشأ، اوروبي المذهب فان عنى احدهم بما كان من تراثنا الشرقي الاصيل في هذا المضمار فانه يقدمه على عجل، من غير كبير اهتمام او احتفال بحيث يبدو بجانب القصة الغربية الحديثة مثل شوهاء العروس في بعض المجتمعات القديمة وكانت دائما فتاة ممن يتصفن بالفقر المدقع في كل شيء حتى في الجمال بل في هذا على الخصوص فاذا ما ظهرت في الزفة بجانب العروس زادها ذلك التناقض بهاء وحسنا وتألقا وبضدها تتميز الاشياء، هذا، مع ان تراثنا في فن القصة، منذ القدم، عالم كامل حافل، واسع الثراء، لانه رافق الحياة في كافة الوان نشاطها، جدا وهزلا فلدينا القصة الاسطورية التي تنطلق من حادثة حقيقية، فتجعلها ـ بما تنسجه عليها من شطحات الخيال الخصب ـ حديث خرافة وهناك من اساطير الاولين البابليين واليهود والفرس والهند والسريان والعرب. تحف نادرة من القصص الاجتماعي والسياسي والاخلاقي وكذلك القصة القصيرة التي تتخذ ابطالها من الحيوان والطير والنبات، واشهرها كليلة ودمنة، التي انتقلت غربا الى اليوناني ايزوب. ثم الفرنسي لافونتين، بل هناك خبر في «سفر الملوك» من كتب اليهود، يقول ان سليمان، عليه السلام، بما اوتى من معرفة منطق الطير، قد كتب الفين من ابلغ القصص الحكمية في هذا الفن فان صح هذا الخبر، كان ذلك اسبق من بيدبا الهندي وكتابه «كليلة ودمنة» ولست اريد ان استرسل في تاريخ القصة القصيرة في التراث الادبي للشرق القديم، وبحسبي ان اعيد الى الذاكرة على سبيل المثال الف ليلة وليلة، ونوادر جحا، ومصارع العشاق. واعلام الناس بما وقع للبرامكة مع بني العباس، وكتاب لطف التدبير، واخبار الحمقى والمغفلين، والاذكياء، والاغبياء، والمجانين، والمعلمين، ومجاميع الامثال العربية والقصص التي صحبتها .

والذي احضر كل هذا الى ذهني قصة قصيرة من ذلك التراث المظلوم قال الراوي كان حاكم البلد ملكا صالحا عادلا، لا تأخذه في حق الله لومة لائم وذات يوم دخل بلده رجل وافد تبدو عليه علامات الغنى الباذخ، فمعه عبيد وجوار، وخدم وحشم، ودواب محملة بالكثير من النفائس، ورأى الملك ان يكرم هذا الضيف الممتاز، فدعاه الى الغداء واتصلت اطراف الحديث بينهما، على حين كان الطباخون يأتون، الواحد تلو الآخر، بكل شهي طيب من الطعام ودخل واحد منهم بطبق فاخر من الحجل المشوي فتناول الثري الغريب حجلة من الطبق، وقبل ان يبدأ في أكلها، اخذ يديرها بين اصابعه، ويحملق اليها بعينيه، ويضحك ساخرا وتعجب الملك من ضيفه، وسأله ما به؟ قال كنت يا مولاي، منذ بضع سنين، صعلوكا فقيرا. اكمن في الجبل، واقطع الطريق على القوافل، وافرض عليها الاتاوات وذات مرة، رأيت تاجرا يسلك دروب الجبل وحيدا، راكبا بغلة، وواضعا امتعته على ظهر اخرى ففاجأته وشددت وثاقه، وفتشت في امتعته فوجدتها كلها من الاحجار الكريمة والجواهر التي لا تقدر بثمن وقررت - اختصارا للموقف - ان اقتله واستولي على كل ما معه فلما رأى الموت بعينيه قال سيكون دمي في عنقك، قلت ومن يشهد؟ فنظر من حوله يائسا، ولم ير الا حجلة تنقر في الارض، فقال هذه الحجلة تشهد عليك، وقهقهت ضاحكا من بلاهته، ثم ذبحته ومن يومها وانا اعيش عن سعة بمال هذا الاحمق، وصاح الملك العادل الله اكبر! لقد شهدت عليك الحجلة من حيث لم تكن تتوقع، ثم امر بالقصاص منه، والبحث عن اولياء القتيل، وتسليمهم ما كان اغتصبه ذلك اللص المتجبر.

واكثر النقاد في زماننا يرون ان امثال هذه القصص ليست «فنية» وهم عندما يقولون هذا، يأخذون سمت الفلاسفة الخبراء باحوال الناس، المحنكين في شؤون الكون، فالبشر في نظرهم لا تحكمهم هذه العدالة الدقيقة المطلقة والا فلماذا يكثر بينهم السفاحون واللصوص والظلمة، ويشغل بعضهم الاماكن الاولى في اقوى وارقى امم العالم، آمنين من العقاب؟ هذا ما يبدو في نظرهم، وهو نظر قصير لانهم دائما ينتظرون العدالة العليا في الزمان والمكان والهيئة التي يحددونها هم. ويرونها، ويتخيلونها بينما لنظام الكون اسرار وطرق ووسائل لا تعبأ بما ارادوه، ولا تخضع لما رسموه ولو انهم اخذوا هذه الاشارة المتواضعة في حسابهم وهم يفحصون الادب السريالي او الوجودي او العبثي اللامعقول، في الفكر الغربي الحديث، لاكتشفوا - ربما! - بعض الدقائق التي تعينهم على تصحيح احكامهم، وتلوينها بشيء آخر غير هذا التعميم المريح فاكثرهم يأخذ على قصتنا القصيرة القديمة انها في المقام الاول وعظية اخلاقية تنتهي دائما بهلاك الباغي والشرير والمعتدي واندحاره امام الخير والفضيلة والاستقامة ولم لا؟ اليس هذا على الاقل هدفا يقصد لذاته كما يهدف الآخرون الى ابراز الشر والرذيلة في مكان المنتصر الغالب المطمئن؟ واسمع بعضهم يقول، بل يجب ان يرتبط الفن بالواقع وان يترك لغيره مهمة الوعظ والارشاد ولهؤلاء

اقول ان الفن حر، لا يمكن لاحد ان يرغمه على ان يكون «اخلاقيا» . . لكن بشرط، هو الا يفرض عليه آخر ان يكون «لا اخلاقيا» واذا كنا ـ حتى من الناحية المادية العلمية ـ لم نكتشف من سر الكون الا اقله، فكيف بقوانين التوازن العادل ـ او المتعادل ـ بين الخير والشر في تصرف الناس وسلوكهم ؟

في هذه القصة التراثية الصغيرة مثلا صورة للمال القذر الذي يكسبة الانسان من غير حقه وهي صورة مصغرة لما لا يحصى من نماذج المال القذر في «واقع» عالمنا الحديث ففي تقرير امريكي دقيق ان ما كانت تنفقه الولايات المتحدة من الاموال في حرب فيتنام لو وزع على القتلى والجرحى من اهل هذا البلد لاصاب الواحد منهم ما يكفيه لبناء دار انيقة وانشاء محل تجارة او صناعة او مزرعة، وبقي له بعد ذلك اكثر من مائة الف دولار، وبمعنى آخر، ان اولئك الذين حاربتهم امريكا خوفا من الشيوعية، كان من الممكن ابعادهم عنها نهائيا برفع مستوى حياتهم وخلق ما يلهيهم عن انشاء الخلايا السياسية السرية، وتدبير الانقلابات والاصغاء الى المحرضين، ولولا المال القذر الذي تبدده القوى العظمى في سبيل الارهاب الحربي، بالاسلحة السرية المختلفة التي يطلقون عليها اسماء «اخلاقية» انيقة، من نوع «القوة الرادعة» او «اسلحة السلام» او «الدفاع عن الانسانية» لولا هذه السفاهة السخية جدا بالمال القذر لما اصبح اكثر من نصف سكان الكرة الارضية يتضورون جوعا، او تحصدهم الامراض او يقتلهم الجهل والتأخر، والمال القذر لا يتأتي الا بعائد قذر ايضا، ولننظر الى اندية القمار، واسواق الدعارة وعصابات السطو وتصنيع المخدرات وتسويقها، وشراذم السفاحين «المافيا» لنرى ان المال القذر يأخذ بعضه بمناكب بعض، فيعلو شأنه احيانا حتى يأخذ، في فرص معينة، بمقاليد السياسة ـ اسمع يا اسرائيل ـ ولكنه في النهاية يؤول الى اسوأ مصير، ومن هنا اجمعت القوانين كافة ـ السماوية والوضعية ـ على تحريم المال القذر، لا حرصا على النقاء والنظافة والبراءة فحسب ولكن حماية للمجتمعات من التفسخ، ففي الشريعة الاسلامية ان مهر البغي حرام، وان صدقتها مال قذر وان الربا كذلك وهي في ذلك تتفق مع كافة الشرائع المنطقية والعادلة في العالم .

والخلاف في التفاصيل بين هذه الشرائع والقوانين بعضها وبعض، لا يمس المبدأ، ولكنه يعود الى مفاهيم وتفاسير، وفتاوى تتأثر بتنوع طرق الكسب، ووسائل الارتزاق، وتقاليد التعامل، بحيث يبدو بعضها متشددا متزمتا شديد التدقيق . اذا قيس بغيره من القوانين، وهناك من فقهائنا رضي الله عنهم، من افتى بان جلوس الدائن في ظل حائط المدين حرام يدخل في الربا، وقال ان المدين قد يحتاج هو نفسه الى ان يستظل بحائطه، ولكنه لن يجرؤ على طرد الدائن عنه، فهي منفعة نالها الدائن بالاكراه والاستغلال فيها شبهة الفائدة التي تفرض عند اقراض المال، استغلالا لحاجة المقترض واضطراره واتفق اكثر المشرعين على انه اذا كان رأس المال قذرا فان عائده قذر ايضا وبالغ بعضهم في ذلك ـ كاخواننا الدروز مثلا ـ اذ ذهبوا الى ان

الواحد منهم اذا باع من ثمر بستانه او من ماشيته شيئا لرجل آخر رأس ماله الخمر او لحم الخنزير او احياء حفلات يحرمها الدين فان الثمن الذي يحصل عليه «مال قذر وحرام» واذكر اذ كنت في لبنان ان ربطتني اواصر الصداقة بواحد من المتدينين الدروز، وكان يتكسب من سيارة اجرة ينقل بها الناس نقلا جماعيا لقاء مبلغ معلوم يدفعه كل منهم وكان صديقي السائق يدهشني بسعة اطلاعه في مذهبه والقدرة على ما تقتضيه الاحوال من الفتوى والقياس وفي احدى رحلاتي معه، استوقفه (اسطفان) الذي يدير خمارة مشهورة على الطريق. فوقف صاحبي وصعد اسطفان الى السيارة وسلم الاجر المعلوم وهمست في اذن السائق سائلا أليس هذا من المال الحرام عندكم، لان منبعه حرام؟ قال: نعم ولذلك اضعه جانبا فلا آكل منه ولا اشرب، ولكن ادفعه لمضخة الوقود، عندما اتزود منها، وهكذا انت ترى ان مصيره الى النار، وضحكت طويلا وقلت له هذه فتوى تستطيع بها ان تضحك على الناس، لا على الله عز وجل.

واذا كانت هذه جزئيات صغيرة فان العصر الذي نعيش فيه يتعرض ـ في طوفان المادية الجارف ـ الى ظاهرة من طغيان «المال القذر» لعلها لم تحدث من قبل، بنفس البشاعة، في تاريخ الانسانية كلها، فالكرة الارضية مرصعة الآن بالمئات من البقع الملتهبة الدامية، لان لعبة المال القذر قد حلت بها امريكا اللاتينية، بولندة، انغولا، سري لانكا، افغانستان، الصحراء الافريقية، تشاد، اريتريا، فلسطين، ايران، جبل طارق، هونغ كونغ، لاوس، لبنان، والقائمة ما تزال طويلة جدا، وكأنها موكب ضخم للموت والدمار واليأس والضياع والانين والدموع، اما المسؤولون الحقيقيون عن هذه الكوارث، فانهم بدورهم ليسوا سعداء كما يتوهم الناس وكيف يسعدون بين نداءات الهاتف الاحمر وتقارير الجواسيس ونافرات الانباء بالكهرباء واسعار الاوراق المالية، واخبار المؤامرة التي نجحت هنا، وتلك التي باءت بالفشل هناك، وبعض الفضائح التي ينغمس فيها الاعوان الى الاذقان، من سرقات واهدار اعراض، وتصفيات جسدية وهو الاسم المحتشم لاقذر جرائم القتل ومن جرى وراء السمسرة او الاختلاس من اجل الحصول على مزيد من المال القذر وقد اراد اصحاب فكرة البنك الدولي والمؤسسة العالمية للنقد ان يقيموا بعض الحواجز التي تمنع المال القذر من حكم العالم ولكنهم تعبوا في النهاية ويئسوا وجرفهم التيار وراح الملايين من البشر يقرأون اسعار البورصة آناء الليل واطراف النهار، وقد حلت عند اكثرهم محل الصلاة والتسبيح والاستغفار، لان البورصة هي معبد المال القذر الذي آمن به كثيرون من دون الله، ولعل بعض قرائي يقف وقفة لغوية ليسأل: لماذا «البورصة بدلا من سوق الاوراق المالية» والكشكول فيه متسع لمثل هذا الاستطراد، والا لما استحق اسمه فاقول كان «دي لا بورصة رجلا ايطاليا يشتغل بالصرافة وقد رحل الى بلجيكا هو واسرته نحو ثلاثة قرون، وفتحوا هناك ـ لاول مرة في اوروبا ـ مكاتب للصرافة اكثر امانة وشرفا من الصيارفة اليهود الذين كانوا يحتكرون هذه

المهنة بصورة وبائية في الشـرق والغرب جميعـا واشتهرت هـذه المكاتب بـاسم الاسرة المؤسسة لها بـورصة ، فهي اذن اسم علم وليست كلمـة دخيلة ، شأنها في ذلـك شأن الفاظ اخرى كثيرة مثل الفولت ، والوات ، والسنـدوتش ، والمكدام واللوغـاريثم وهو التحريف الاوروبي لاسم الرياضي المسلم ابي بكر الخوارزمي ، وقد آثرت استعمالهـا على «سوق الاوراق المالية» لانها كلمة واحدة بدل ثلاث ، ولانها ـ تاريخيا ـ تنطق بان اصل هذا اللون من التعامل ، في صورته النـظيفة ، كـان انتفاضـة غربيـة ضد المـال القذر ، اليهودي الذي حمى المسلمين من ويلاته ـ تقـريبا ـ نـظام الحسبة في الاسـلام وليتني كنت من علماء الاقتصـاد ، اذن لتركت الادب ، وعكفت عـلى دراسـة تـاريـخ المال في الشرق فربما اهتديت الى شيء مرن ومنـاسب لحضارة العصر ، ولـه مع ذلـك مناعة تامة ضد المال القذر .

واذا كانت القصة العربية القصيـرة التي سردتهـا لتكون مثـلا لتشاؤم مجتمعنـا من المال الحرام ، واشمئزازه منه ، فان «المال النـظيف» له عنـدنا اكـثر من قصة واكـثر ما جاء في الف ليلة وليلة من هذا القبيل السندباد الشاطـر حسن ، معروف الاسكـافي ، وغيرهما لكن هناك من تلك الطرائف قصة اساسهـا تاريخي وثـوبها اسـطوري ، وهي المقابل النظيف الشريف لقصة اللص صاحب الحجلة .

قال الراوي : كان عبدالله بن جـدعان تيميـا ، من ابناء عـومة السيـدة عائشـة ام المؤمنـين ، وكان من كـرام العرب ، يضـرب المثل بضخـامة الجفـان التي يطعم فيهـا النـاس في مكة قبـل الاسلام وكـان اول امره صعلوكـا شـريـرا فـاتكـا لا يـزال يجني الجنايات فيعقل عنه ابوه وقومه ، اي يغرمون الدية حتى ابغضته عشيـرته ، ونفـاه ابوه فخرج في شعاب مكة حائـرا يتمنى الموت ان ينـزل به فـرأى شقا في جبـل ، فتعرض للشق يرجو ان يكون فيه ما يقتله فيستريح فلم ير شيئا فدخل فيه فاذا ثعبان عظيم له عينان تقدان كالسراجين فحمل عليه الثعبان واقبل اليه كالسهم فافرج له ، فـانساب عنه لا ينظر اليه فوقع في نفسه انه مصنوع فامسكه فاذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان ، فكسره واخذ عينيه ثم دخل الى بيت فاذا فيه جثث طـوال على سـرير عنـد رؤوسهم لـوح مكتب فيه انـا نفيلة بن عبد المـدان بن خشـرم بن عبـد يـاليـل بن جـرهم بن قحـطان بن هـود نبي الله ، عشت خمسمـائـة عـام ، وقـطعت دور الارض بـاطنهـا وظاهرها في طلب الثروة والتملك فلم يكن ذلـك لينجيني من الموت ، وينتهي النقش بشعر في نفس هذا المعنى ، وفي التحذير من الجرى وراء عرض الدنيا ، قال الراوي : ووجد في وسط البيت كوما عظيـما من اليـاقـوت واللؤلؤ والذهب والفضـة والزبـرجد فاخذ منه ماخذ ثم علم على الشق بعلامة واغلق بابه بالحجارة وارسل الى ابيه بـالمال الذي خرج به يسترضيه ويستعطفه ووصل عشيرته كلهم فسـادهم ، وجعل ينفق من ذلك الكنز ، ويطعم الناس ، ويفعل المعروف ولما كبر وهرم اراد بنو تيم ان يمنعوه من تبذير ماله ولاموه في العطاء فكان يدعو الرجـل فاذا دنـا منه لـطمه لـطمة خفيفـة ثم يقول : قم فانشد لطمتـك واطلب ديتها ! فيعـطيه بنـو تيم من مال ابن جـدعان حتى

يرضى، هذا ما حدث بـه الرواة وهي قصـة قصيرة تمـزج الحقيقة بـالخيال وتبـين ان البركة في المال النظيف الذي لم يأت من سرقة او قتل او عدوان وينفقه صاحبه في البر والكرم، ويتصرف حتى يدفعه على انه دية لا صدقة .

واسأل نفسي في النهاية لماذا اخترت التحدث في هذا الموضـوع؟ ألأن جيبي بحمد الله نظيف؟ ام لان المال القذر الذي يغـرق العالم في حمـاته: هـو الطوفـان الجديـد، الذي تمناه ابو العلاء المعري في قوله :

الارض لـلطوفـان محـتـاجـة لعلها من درن تغسل

واللغة ؟... إذا سمحتم !

ليست اللغة بالمشكلة الثقيلة، الا عندما يتناولها الثقلاء، ونحن مطالبون ـ اذا شئنا ان نشارك في الحياة بنشاط، واصالة، وكرامة ـ بان نوليها حقها من العنايه والصيانة والتقوية، حتى لا يمسها الكبر واليأس والعقم، اذ هي المطية الوحيدة التي نقطع بها رحلة الفكر، وهي ايضا ـ عندنا نحن العرب ـ الوثيقة الكبرى لعروبتنا فاكثرنا ـ ونحن نقارب المائة والخمسين مليونا ـ يصعب عليه ان يصعد بنسبه الى عدنان او قحطان في سلسلة لا يرقى اليها الشك، ومع ذلك فكلنا عرب لان لساننا عربي، لغتنا هي عصب قوميتنا، وهي، من هذه الزاوية، تعتبر ظاهرة انسانية فذة ـ او نادرة جدا على الاقل ـ تحل فيها لغة ما محل العصبية العنصرية، وترقى بالناطقين بها الى ارفع مراتب التقدم الحضاري، حيث لا يكون الانتماء الا للفكر والثقافة والتراث، دون التشدق بالاجداد، والتعلق بالاسلاف، اما كيف نجحت اللغة العربية في عمل هذا (الانقلاب) وتحقيق هذه المعجزة. فمرجعه ـ في المقام الاول ـ الى ايغالها في القدم من ناحية، مع اتساع نطاق تحركها من ناحية اخرى، وما اظن احدا حتى الآن، لا من الشرقيين ولا من المستشرقين، قد بحث ذلك الامر بحثا علميا منهجيا، وما نقرؤه من ذلك لا يعدو اشارات غامضة، مبعثرة هنا وهناك، اشبه بوقوف الشعراء على الأطلال، ووصفهم ـ اعزكم الله ـ بعر الآرام، ومن هنا اصبحنا نتصور ان الجاهلية السابقة لظهور الاسلام بقرنين من الزمان هي بداية اللغة العربية فاذا (تعمق) بعض المحققين، فانه يصل بنا الى بدايات الوثائق المكتوبة بالعربية الفصحى ـ تقريبا، ومع كثير من التسامح ـ قبل هذه الجاهلية بقرنين آخرين وفيما وراء ذلك لا نجد الا نقوشا وخربشات، بلهجات مختلفة، قريبة من العربية، لكن ـ عند المقارنة ـ شتان ثم شتان، فمن ذلك لهجات اليمن القديمة الحميرية والسبئية والمعينية والقتبانية، وكانت كلها تكتب بخط المسند، الذي حار الناس في اسمه، وظنوا ـ خطأ ـ انه بشكله العمودي قد اشبه الواح الخشب المسندة!.. بينما الامر بكل بساطة يرجع الى ان فصحاء العرب كانوا يسمون الجد، او السلف الذي

ينتمون اليه (المسند)، وهو في تفكيرهم بمعنى (القديم الخالد الذكر)، وخط المسند هو خط السلف القديم، ورحم الله اللغوي ابا الحجاج يوسف البلوي المغربي، من علماء القرن السابع الهجري الذي نبهني الى هذا باشارة منه في كتابه (الف باء)، ومن هذا القبيل نقوش ثمود والصفا والنبط في شمال شبه الجزيرة، وكذلك نقوش مملكة كندة القديمة، في قلب نجد، حيث منطقة الفاو (خشم الواد) الاثرية العظيمة، لكن اين العربية الفصحى من كل هذا؟ هي اقدم، بكثير جدا جدا، ربما بآلاف السنين، لكن المشكلة هي ان العلماء كثيرا ما يخلطون بين اشياء ثلاثة يجب التفريق بينها، هي اللغة، والكتابة والادب، فهناك لغات كثيرة جدا عاشت كل حياتها لم تعرف الكتابة بل ان بعض هذه اللغات، في افريقيا السوداء، ولدى الهنود الحمر في امريكا، وفي قبائل كثيرة في وسط آسيا لاتزال حية لكن بلا كتابة واما الادب - حيث لا كتابة - فيعتمد على الرواية الشفوية وعلى عنعنات كثيرة ما يعوزها التحري والتدقيق، لاسيما عندما يكون الموضوع للامتاع والمسامرة، لا ينبع من تشريع، ولا سياسة، ولا ايمان مقدس، مع ما نعلم من ان ذاكرة الشعوب قصيرة ومقصرة .

لكن عندنا منذ اكثر من خمسة آلاف عام، نصوص مكتوبة بلغة من اخوات العربية، بل من بناتها هي اللغة الاكادية في العراق، هذه اللغة تشبه العربية الفصحى في نحوها، فهي الوحيدة من كل اللغات السامية - الى جانب العربية - التي تخضع لاحكام الاعراب: الفاعل مرفوع بالضمة، وكذلك المبتدأ والخبر والمفعول به منصوب بالفتحة، وكذلك: الحال والتمييز والظرف، والمضاف اليه مجرور بالكسرة، وكذلك ما سبقه حرف جر. ومع ذلك فان البحث في تصريف هذه اللغة، واصواتها يثبت انها - على الرغم من هذا التاريخ العتيق، ومن التشابه الكبير في الالفاظ ومعانيها - تمثل خطوة (انحراف) نحو التساهل العامي بالنسبة للعربية الفصحى، التي تبدو لغويا اكثر محافظة على الصفات الاولى والاصيلة، لدرجة ان ارسخ العلماء قدما في اللغات السامية المقارنة، يعتبرون العربية الفصحى هي الصورة المثالية للام التي تفرعت عنها كل هذه اللغات السامية: البابلية الاشورية والسريانية والعبرية والحميرية وغيرها، اننا امام مشكلة عويصة جدا سببها ان العربية الفصحى، من حيث خصائصها اللغوية هي اقدم واصفى وانقى لغة من المجموعة السامية، ومن حيث الكتابة هي احدث كل هذه اللغات عهدا بها، وقد دعاني ذلك الى ان احاضر ذات مرة، في الندوة العلمية العالمية لتاريخ شبه الجزيرة العربية قبل الاسلام، في جامعة الملك سعود بالرياض، داعيا الى بذل كل الجهود الممكنة في سبيل تبديد ما يحيط بهذه الامور الحضارية الجوهرية من ظلمات، وكان مما قلته، ان النوازل الطبيعية التي عصفت بعاد وثمود وطسم وجديس وجرهم ووبار، وغيرها من قبائل العرب (البائدة)، وما اعقب ذلك من ابتلاع هذه الصحراء الهائلة الحافلة بالاسرار، لما قد يكون اولئك تركوه من آثار، يفرض علينا ان نجعل قاموس العربية الفصحى هو ايضا منطقة حفائر، وميدان تنقيب، ان كلمة (غنم) في هذه

اللغـة تلتقي مع كلمـة (خنم) الفرعـونية ـ وهي اسم إلـه وثني على صـورة الكبش ـ لفظا ومعنى وكذلك الامر في (تمساح وهو في المصرية القـديمة (تمسيـه)، و(الباه) وهـو القدرة على الزواج (باح) بالهيروغليفية والآسي وهو الطبيب بالعربية يقـابله (آسو) في السومرية العراقية منذ ستة آلاف عام .

وهذه الملاحظة الخاطفة توصلنا الى الملاحظة الثانية حول العربية الفصحى، وهي اتساع نطاق نشاطها الحضاري، وحركتها في التعامل السياسي والعسكري والتجاري مع العالم القديم كله، مما جعلها ـ في قديم الزمان على الاقل ـ من اغنى لغـات العالم بـالالفاظ، تصـوغها بـالاشتقاق: كـالمنفاخ والمثقـاب والمنشار والمصبـاح، والميـزان، والمفتاح، والمرقب، والمئذنة، والفعـل (تلاشى) اي اصبـح (لاشيء)، وبالتعـريب: كـالابريق، والفلفـل، والكون، والسكـر، والشاي والارز، والحـرير، والـديبـاج، والياقوت، وبالتوليـد: كالصـدرية، والمحـرك والبرقيـة والحافلة والجـريدة، والمجلة والسيـارة، والطائـرة، والباخـرة، والمدفـع، والدبـابة. . الـخ وكـان الفصحـاء من الناطقين بـالضاد يـرون ان العروبـة في الأعراب، امـا استعارة الفـاظ ضروريـة من لغات اخرى، فلم يكونوا يشعرون في ذلك بحرج، لا من الجاهليـة الاخيرة فحسب بل من جاهلية العرب البائدة، الجاهلية الاولى المـذكورة في القـرآن الكريم، بـدليل الالفاظ الكثيرة التي (تعاصرت) في العربية مع الفرعونية او السومرية، اي منذ اكـثر من خمسة آلاف عام. وبادلة اخرى منها الاشارة الى العرب بهـذا الاسم في النقوش العراقية المسمارية منذ اكثر من ثلاثة آلاف عام، وفي النصوص الدينية اليهودية منـذ الفين وخمسمائة عام، وفي اسفـار العهد القـديم مثل سفـر حزقيـال وسفر نحميـا، وهذا الاخير عـلى الخصوص، الـذي يذكـر ملكا عـربيا اسمـه (جشم) كان يشجـع المقـاومين لهـذا الاحتلال اليهـودي في فلسطين قـديما، بينـما يلقى اليهود العـون كل العون من ايران، ويبدو ان التاريخ يعيد نفسه، لاسيما في الامـور السيئة، ولا حـول ولا قوة الا بالله!

وبعد، فقد تبينت لنا عراقة هذه اللغة الموغلة في اعماق التاريخ، واحسسنا ـ ولـو لومضات خاطفة ـ بتحركها الحضاري النشيط في الزمان والمكان، حتى كانت حركتها الحاسمة مع ظهور الاسلام، حيث حققت احدى الخوارق التاريخية المنقطعة النظير، وهي (عروبة) كـل النصف الشمالي من افـريقيا وكـل النصف الغربي من آسيـا. او ليست هذه اللغة ـ والحالة هذه ـ جديرة بنظرة اكثر جدية، وبجهد اشد حرصا على ا لاستمرار، والتقدم نحو الاحسن، حتى تسلم للمنطقة ثقافتها وكرامتها وحضارتـها؟ ان عصـورا مديـدة من الجمود، والحـذلقة، والاميـة، والتهريـج، بتصعيب اللغة، وتعقيدها، والمبالغة في تثقيل مئونتها من ناحية، وفي عزلها عن الحياة الحقيقية العاديـة للناس من جهة اخرى، قد انتهت بان يئس الكثير منـا من لغته، وشجـع على ذلـك الاستعمار الغربي في الشرق العربي، فخيل للناس ـ اذا كانوا طيبين ـ ان مكان هـذه اللغـة يجب الا يعدو المسجـد وحلقات العلوم الشـرعيـة، وبعض الغـذاء الفكـري القديم، المعاد تسخينه، اما اذا كانوا من غير الناس الـطيبين فحـدث ولا حرج: من

استخفاف باللغة واصحابها، ومن دعوة الى تقنين العاميات، والكتابة بحروف وارقام اخرى، بل استعمال لغة اوروبية (محترمة) لدراسة العلوم، وكذلك التسول على ابواب جميع تلك اللغات (المحترمة) من اجل شيء يمكن ترويجه في سوق الادب العربي .

من الجانب الآخر تمترس حراس الفصحى وراء تزمت من شأنه ان يزيد الطين بلة، فالكتاب التعليمي جاف الاسلوب، قبيح المنظر، منقطع الصلة بفكر الناشيء العربي وعالمه ومثله، واحلامه وقواعد اللغة والفاظها لا تخضع بدقة لمنهج الاحصاء والتصنيف، الذي برع فيه اسلافنا، ثم توسع فيه اللغويون الاوروبيون، مستعينين بالحاسب الآلي حتى اصبحت معرفة اللغة العربية اصعب من الفوز ببطولة الكرة او المصارعة او الكلمات المتقاطعة، فاذا اراد واحد من اساتذتنا الافاضل ان ييسرها للمتعلمين والمتكلمين فانه يعمد الى واحد من امرين احلاهما مر كما يقولون :

فهو اما ان يختار الحل (العنيف) فيعمد الى قواعد النحو والى القاموس قطعا وبترا واقتلاعا وانتقاصا يسميه التسهيل والتقريب والاختصار والاقتصار، وليس هو في اغلب الاحيان الا الدق والخنق والشنق، لأن ما اراده من التبسيط انما نفذه بابسط الوسائل، وهي الجراحات العشوائية بما تخلفه من ضعف وكساح، وآفات مزمنة، وعاهات مستديمة، ذلك ان اللغة ـ اية لغة في العالم ـ انما هي بناء فكري وحضاري كامل متماسك في وحدة عضوية تعاون على ايجادها ما لا يحيط به علما الا خالق الاجيال الكثيرة المتعاقبة ـ المعروفة والمجهولة ـ التي اسهمت في ذلك البناء، واذا كان تطويره وصيانته من الضرورات التي لا مفر منها، فان تنفيذ ذلك بجرة قلم، في اسابيع او شهور قليلة، لن يكون الا عملية هدم وتشويه، وقتل في بعض الاحيان .

واما الامر الثاني في تحقيق حلم (المعاصرة) واخراج اللغة من خمولها وسباتها فيتم بادوية مستوردة من الخارج وطبيب اللغة المنتمي الى هذا الاتجاه يفترض مبدئيا ان هذه اللغة المسكينة مصابة بجميع الامراض في آن واحد، وفي مقدمتها الامراض العقلية والعصبية، فنرى من بين وسائله الحبس والربط والتقييد وشل الحركة، مع تسميم اللغة جسدا وروحا بعقاقيره التي لم يخضعها لأية تجربة تبعث الطمأنينة الى جدواها في شفاء مواجع لغة لا علاقة لها بهذا اللون من العلاج فاذا سمع انه كان في ديار تلك اللغة حكماء اسهم سيبويه والجوهري والفراء وابن دريد وابن مالك وابن سيده وابن هشام، ورم انفه، وتمططت شفتاه، وصاح: يا ناس! افهموا! واعلموا ان هذه (المخلفات) القديمة مكانها الآن في المتحف، او في غياهب القبور، وان الترياق اليوم في يد تشومسكي ـ دكتور عبقري ! ـ ومارتينيه ودي سوسير وهليداي وماثيو وغيرهم من اطباء اللغة النطاسين، صانعي المعجزات، فيقول له امثالي من (المتخلفين) حبا وكرامة ! لكن بفحص بسيط يبدو ان اسيادنا هؤلاء، وهم من البشر العقلاء الى حد كبير، قد قسموا نشاطهم قسمين، احدهما لخدمة لغاتهم الوطنية فقط، وليست من بينها لغة الضاد، والثاني نوع شامل من البحث العام في علاقة الكلام بالفكر وبالمجتمع وبالنفس البشرية وبالصوت وبما جد في عالمنا من وسائل

الاتصال القريب والبعيد وهي بحوث قيمة بلاشك، وضرورية مع غيرها للكشف عن مواطن الداء في اللغات ولكنها قليلة الجدوى في تحقيق الشفاء ثم انها بعيدة كل البعد عن نوع الشكوى التي تعاني منها لغتنا العربية ومعروف ان الخطأ في العلاج انما هو استعجال للموت ونحن هنا نسلم بالمرض لكننا مطالبون بألا نستسلم للموت، على انه الوسيلة (الجذرية) للقضاء على المرض، اذ لا شك في ان القضاء على المريض يؤدي الى ذلك لكن مريضنا - يا جماعة الخير - ليس في النزع الاخير، كما ان عناصر الحياة فيه اضعاف اضعاف نذر الوفاة، ويذكرني هذا بمقال كتبه الاديب الامريكي مارك توين في اوائل هذا القرن تعليقا على اقتراح (جذري) من احد اعضاء الكونغرس للتخلص من مشكلة الزنوج في بلاده، خلاصته القضاء الكامل عليهم بالقتل وقطع النسل، ونحو ذلك، لانهم وباء اجتماعي يتمثل في قذاراتهم وجهلهم، وكان رد مارك توين ان تشخيص الوباء الزنجي على يد السيناتور الابيض صحيح، لكن الخطأ في الدواء فهو قد وصل الموت حيث تكفي قطعة من الصابون وابجدية، للقضاء على القذارة والجهل، وفي تراثنا نجد المتنبي يقول في العلاقة بين الداء والدواء :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

والى جانب النوعين السالفين من (المصلحين) للغة العربية هناك نوع ثالث لا يريد اصلاح اللغة، او تقويم الاقلام والألسنة، بقدر ما يرمي الى الادلال بمعارفه الواسعة في هذا الميدان، وكأنه يقول لك من طرف خفي: ان اللغة - يا بني - ليست لعبة، واستيعابها امر يحتاج الى رجال من سبيكة خاصة كالذهب الابريز او الكبريت الاحمر! هل تعرف مثلا اعراب (اكلت السمكة حتى رأسها) ؟

وما دمنا في ذكر السمك فهل يمكنك ان تشرح لي كل وجوه التخريج في قولهم (لا تأكل السمك وتشرب اللبن)؟ ثم ما هي آراء البصرة والكوفة في المسألة الزنبورية، مسألة الكحل؟ لا - يابني - دع عنك هذا واقعد فانك انت الطاعم الكاسي ! وهكذا تتصور ان تركيب اللغة في العقل العربي ينطوي على اهوال وتكمن في ثناياه عقد شيطانية، تندحر امامها جميع رقي السحر، وعزائم المنجمين واذا باللغة الشريفة العظيمة تنهزم في كل ميدان، الا الخطب وبعض الآثار التي توصف بانها أدبية، بينما تبقى علوم الطب والهندسة والعسكرية والكيمياء والزراعة وابحاث الفضاء وما يتبادله الناس العاديون في الشارع واحيانا في الاذاعة والتلفزيون والصحافة يبقى هذا كله فاقد الثقة باللغة القومية يائسا من قدرتها على تلبية متطلباته .

ونقطة البدء في اية نهضة ان تكون للامة لغة قومية تقول بها ما تشاء، وتفهم بها ما تقول، وبغير هذا لن نحصل الا على فكر لقيط، في ادنى مراتب الفكر الانساني .

العلماء .. وصفاء الماء ..

ارتشاف الظمآن للماء العذب، متعة لاتدانيها اخرى في الوجود، والحرمان منه نكبة تضع الاحياء على طريق الفناء، لذلك اقتضت الحكمة العليا ان يكون عطاؤها منه لجميع المخلوقات زاخرا غامرا، فياضا بالجود والسخاء، ينعم به الاولياء والاعداء على السواء، (ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى الكافر منها شربة ماء)، وصدق خاتم الانبياء .

مرت بفكري هذه الخواطر وانا اقرأ العبارات الكوثرية الحلوة التي وجهها الي الصديق والاستاذ العلامة الدكتور احمد الضبيب في العدد الماضي من الرياض الاسبوعي، تحت عنوانه الرشيق (السقاء لم يمت) تلميحا الى عبارة جارية على ألسنة المصريين تقول (السقا مات)، والواقع ان السقاء لم يمت، لكن رحمه الله من (عرق القربة) وهذه العبارة الاخيرة عربية فصيحة صحيحة، في تصوير ما ينبغي لبعض ا لاعمال من جهد وكد يتصبب منها الانسان عرقاً، مهما كان العمل جميلاً ومشوقاً، كما يتصبب السقاء عرقاً في تجواله حاملاً قربة الماء البارد على ظهره ليوزعه على المتعاملين معه، فكانت العرب تقول: هذا أمر انجشم له عرق القربة، أو لعل الصورة آتية مما يرشح على ظاهر القربة من ثقل الماء الذي تمتلىء به، وحيا الله ابا عمرو الذي مد لي بسؤاله مائدة للحديث، وموائد الملوك للشرف لا للعلف! وقد شرفني بسؤاله هذا اكرمه الله! كما تفضل بافادتي بهذا النبع الثر من المعلومات عن حرفة اندثرت - او كادت - بعد ان امنت الحضارة الهندسية الحديثة وصول الماء الى بيوتنا عبر شبكات الانابيب وافواه الصنابير .

ولا يذهبن بأحد الظن ان السقاء كان عندنا وحدنا، رمزا لتخلفنا وتأخرنا، فان انداده كانوا على نفس الشاكلة في الغرب ايضاً، الا حيث تكون المنازل على ضفاف الانهار او المستنقعات او الغياض والغدران، او عندما تكون الدار مزودة ببئر او عين في فنائها، كما كانت الحال عندنا تماماً، بل اننا كنا في العصور الوسطى اكثر رقياً من حيث التعامل مع الماء فبيوتنا، مهما بلغت من التواضع والتقشف، كانت مزودة بحمام لكل اسرة يختلف في مستوى الراحة والفخامة بحسب الاحوال، ولكنه دائماً

موجود، لارتباطه باحكام النظافة والطهارة والعبادة في الاسلام، بالاضافة الى حمام السوق الذي دخل مع اليونان والرومان، من قديم الزمان.

أما في الغرب، فان مساكن الناس، ما عدا القصور، لم تكن بها حمامات، وكان الحمامي من الحرفيين المتجولين، يطوي الشوارع والحارات بعربته الثقيلة التي يجرها ثور او بغل، وقد وضع فوقها اوعيته، وصابونه، ومناشفه، فاذا ناداه بعض المواطنين ادخل ذلك الى الدار حتى يفرغ (الزبائن) من اغتسالهم، ويتقاضى عن ذلك اجرا ليس بالقليل، ولذلك كان تعاملهم مع (الحمامي) نادراً، مما يفسر لنا اجادتهم لصنع العطور الكحولية التي كانوا يمسحون بها جلودهم كلما وجدوا رائحة العرق فيها لا تطاق.

ونعود الى السقاء في بلادنا لنسأل، هل مات حقاً؟ ان بلادنا تغلب عليها الحرارة، ويسودها الاسلام، وهكذا كان الماء القراح هو الشراب الاساسي لكل عطشان، لان ما سواه إما حرام، وإما غالي الثمن ولا يكاد ينقع غلة، كالعصير وانواع المشروبات السكرية المطيبة بمختلف الافاوية، وهذه انما كانت تقدم في المناسبات، ولا تغني عن الماء، كما ان حرص الناس عندنا على نظافة الابدان والثياب وما يأكلونه من اللحوم والخضر والاسماك، قد جعل من صناعة السقاء ضرورة شعبية تشمل المجتمع بأسره، فكان السقاءون يأتون الى كل منزل بما رتبه سكانه من الماء كل يوم، وكان السقاء يصيح وهو يخطو نحو داخل الدار، يا ساتر! حتى يفسح له الحريم الطريق من غير تعويق.

ومنذ اواخر القرن الماضي بدأت شبكات المياه تعم المساكن، وتؤذن بانقراض عهد السقاء، وكانت بعض القصور، ودور الاثرياء من الناس، تضم وراء اسوارها حدائق، توجد في بعضها حظائر للغزلان وطيور الزينة كالعصافير الملونة والطاووس والببغاء تصطف بجانبها أوعية الماء من جرة او (زير) او اجانة او حوض، ويسمع الببغاء (او تسمع إذ يجوز فيها التذكير والتأنيث) عند دخول السقاء صيحته التقليدية، يا ساتر! فيصيح مثله، ثم ان هذه القصور كانت أول ما دخلتها انابيب الماء فاستغنت عن السقاء لكن الببغاء كان ما يزال هنا، فما ان يرى بعض الزوار حتى يصيح يا ساتر! واحياناً تكون الزيارة من سيدة فاذا سمعت يا ساتر! تأذت بهذه الصيحة، وربما فهمت منها تعليقاً على حظها المحدود جداً من الجمال، فتدخل الى صديقاتها شاكية من هذا الطائر الفضولي الوقح، الى ان يشرحوا لها انه لا يعنيها، وانما يقلد صيحة السقاء، فابتكر الناس عبارة للرد على الطائر هي: ابوك السقا مات! وهو كما قلت لم يمت، وانما راح يرتزق من عمل آخر بعد ان كسدت تجارة الماء، واحب الاطفال هذه العبارة العدوانية، فما يكادون يلمحون الببغاء في قفص أو في حديقة للحيوان حتى يصيحوا، ابوك السقا مات!

ومن طريف ما يروى من استعمال هذه العبارة واقعة حدثت في مدينة رشيد في اقصى الشمال من مصر، وقد اشتهر اهلها بالحرص على نطق القاف العربية الفصحى صحيحة لا يقلبونها همزة مثل أهل المدن المصرية، ولا كافا جاسية مجهورة مثل أهل الصعيد وكثير من البوادي العربية، كما اشتهروا بنقدهم اللاذع لكل ما تقع عليه عيونهم، قال الراوي، ومثل واحد من أهل رشيد امام القاضي، الذي كان

يلبس ملابس اوروبية فاقعة الالوان، وراح القاضي يعنفه بشدة على مخالفة صغيرة ارتكبها، ويهدده، ويتوعده، بكلام مهول، طويل الذيول، كثير النقول، والرشيدي صامت، الى ان انتهى القاضي من كلامه، وطلب منه ان يقول شيئاً، فقال ببرود تام، يا سيدنا القاضي، الطربوش احمر، وربطة العنق زرقاء والقميص اصفر فاقع، والصدرية قرنفلية، والسترة فستقية! . . وصاح القاضي، ثم ماذا؟ . . فقال الرشيدي، ابوك السقا مات؟ وانفجرت قاعة المحكمة بالضحك من الشبه الذي وصفه المتهم بين ملابس القاضي والوان ريش الببغاء .

وعندنا في الشرق الاوسط اسر كثيرة تحمل اسم (السقا)، نسبة الى جد قديم كان يشتغل بهذا العمل، اذكر منهم استاذنا العلامة مصطفى السقا، الذي يعد من اوائل من اسهموا في نشأة جامعة الملك سعود بالرياض، رحمه الله، وكان ابوه من كبار علماء الازهر، والمشاهير من اساتذته، وكان له زميل عالم جليل هو الشيخ محمد قطة، وبينهما مفاكهات ترتفع فيها الكلفة، وتحلو فيها النكتة، التقى الشيخ السقا ذات صباح بصاحبه الشيخ قطة في صحن الجامع، فصاح متصنعاً التعجب، ماذا جاء بالقطة الى الازهر؟ فأجاب صديقه على الفور، سؤال ابرد من ظهر السقا، وهو مثل دائر على ألسنة العامة .

وبعد يا أبا عمرو، فانني اشعر، وقد امتدت بي حبال الثرثرة، بانني (ابيع الماء في حارة السقائين) معتمداً على سعة صدرك، ومرة اخرى شكراً لتشريفك اياي بالسؤال ومعذرة اذا تعثرت في الجواب ثم معذرة في الاستطراد، الذي اظن انه اليق بالكشكول .

ولما كنا نتحدث في تأصيل التعابير، فان سؤالا يقفز الآن الى رأسي حول اصل لفظة (الكشكول)، من أين؟ وكنت اظن ـ لا أدري لماذا ـ انها كلمة فارسية معربة، ربما لأن اشهر كشكول في تاريخ الادب العربي هو ذاك الذي اختاره وجمعه بهاء الدين العاملي اللبناني الاصل، المولود في قزوين في منتصف القرن العاشر الهجري (سنة ١٥٤٦م) والمتوفى في اصفهان في حوالي ١٠٣٠ هجرية (سنة ١٦٢١م) وقد دون فيه منتخبات من قراءاته في كل علم وفن، كما دون مجموعا آخر سماه (المخلاة) فظننت ان الرجل العربي الاصل الفارسي المنشأ جعل الكشكول والمخلاة اسمين بمعنى واحد، احدهما لفظه فارسي والآخر عربي فصيح، وقوي هذا الظن عندي ان لفظة (كشكول) شائعة في اللغة الفارسية قالوا في شرحها: انه كيس الفقراء، يضعون فيه حاجياتهم، وفي الهند يصنع من القشور الصلبة لبعض الثمار مثل جوز الهند، وهو ايضاً اناء من المعدن او الفخار يجمع فيه الشحاذون الصدقات ثم قيل (كشكول) للمتسول نفسه ولا حول ولا قوة الا بالله ! وزاد بعض الشراح ان اصل الكلمة من الفارسية (كش) بمعنى جر وسحب و(كول) بمعنى الكتف او الكاهل فيكون الكشكول هو الكيس الذي يلقى به الشحاذ على كتفه، للاشتغال بتجارته الرابحة على الدوام الجامعة لكل انواع الترف والنعيم، فهذا احدهم واسمه ابودلف الخزرجي الينبوعي من شعراء القرن الرابع الهجري، يقول من قصيدة طويلة ضمنها الفاظ المعجم السري للمتسولين :

جـبـيـنـا جـزيـة الخـلق
مـن الـصـين الى مصر
فـنـصـطاف عـلى الـثـلج
ونـشـتـو بـلد الـتـمـر

وهنيئاً لـه ولابنـاء حـرفتـه الـزيـارة والتجـارة، حيث لا يلزمهم رأسمــال، ولا جوازات، ولا مكتب سياحـة، ولا دفتر صكـوك (شيكات)، ولا فنـادق، بل تكفي العصا، والاسمال البالية، والصوت المجلجل، من مال الله! و. . . . الكشكول.

اخلدت اذن الى راحة الاصل الفارسي للكلمة، لاسيما ان الشحاذين قـد درجوا على تسمية انفسهم بالاسم الفارسي الطنان الرنان (بنى ساسان)، لكثـرة ما زعمـوا بـين المسلمين انهم من سـلالة الاكـاسرة الـذين حطم الاسـلام طغيانهم، فـآلوا الى ما يراه الناس، وسبحان المعز المذل! فهل يكون الكشكول الا كلمة فـارسية مـع بني ساسان؟

لكنني فوجئت بان الكلمة ربما كانت آرامية الاصل، والآرامية من اخوات العربية القريبات في مجموعة اللغات السامية، فهي موجودة عندهم بصيغتها هذه، ومشتقـة من الفعـل (كشا) الـذي يقابله (كسا) بالعـربية، بمعنى غـطى، ومن كلمـة (كـل) الشائعة في العربية ايضاً بمعنى جميع، فالكشكول هـو الوعـاء الذي يحـوي كل شيء ويغـطيه، وفي قصيـدة ابي دلف الخـزرجي مـا يشـير الى استعمـال الكشكـول لـدى المتسولين، اذ يقول مستعملا الشفرة السرية الساسانية في نوع منهم.

ومن رعس او كبس او غلس في الفجر.

ويشرح ابو منصور الثعالبي هذا الكلام بقـوله: (رعس) اذا طـاف على حـوانيت الباعة فاخذ من هنا جوزة، ومن هنا تمرة وتينـة (مما بـه يمتلىء الكشكـول) ـ و(كبس) اذا دار فاذا نظر الى رجل قد حل سفتجته (اي كيسه) كبسه واخذ منه قـطعة (غلس) اذا خرج الى الكدية (التسول) بغلس (اي في ظلام الليل) وقانا الله واياكم التغلبس والتكبيس والترعيس، وكفانا التفليس، وخلو الكيس! ولك هـذه الاحوال العجيبـة مقابل في اوروبا في العصور الوسطى فالمتسولون عندهم كانوا يلبسون ثياب الحجـاج الى بيت المقـدس ويحملون الكشكول وكـانوا يسمـونه (حـاوي كل شيء) ويـزعمون انهم من الامراء، وانهم يؤدون نذراً بالحج مشاة على الاقدام، مع التسـول للحصول عـلى طعامهم امعـانا في التقشف والتـذلل وكـان بعضهم يركـب فـرسا، ومعـه سيفه ورمحه ودرعه، ويزعم انه سيلحق بجيوش الصليبيين للقضاء على المسلمين، كما كان بعضهم يلبس ملابس الرهبان ويعقد الزنار ويعلق الصليب ويتقلد المسبحة، ويحمل في يـده محارة من الصـدف تشبهاً بـالقديس جـاك دي كمبوستيـل، هي البديـل عن الكشكول، يجمع فيها الدراهم او الطعام.

فاذا وجدت، عزيزي القارىء في مطعم احد الفنادق الفخمة، بين الوان الطعـام الغربية الفاخرة شيئاً اسمه (محارة سان جاك) او (قواقع سان جاك) فأعلم انها صدفة دائـرية مفلطحـة فيها بعض الـرخويـات البحريـة، وشيء من لحم السمك وبعض الخضروات في عصيدة غنيـة باللبن والـزبد والملح والبهـار وعند دفـع ثمنها تـذكر ان القديس جاك لم يكن له منها الا الوعاء الصدفي، أما ما بداخله فلم يكن يراه حتى في

المنام، فمحارة الرجل كانت من نوع (كشكول . . . أيها المحسنون) .
واظن في النهـاية ان كثيـرين منكم يمدون إلي الان كشكـولاً فارغـاً لعلي اتصـدق عليهم فيه بشيء من الصمت .

صدر من كتاب الرياض

١ ـ امرؤ القيس العربي — المرحوم: فوزان الدبيبي
٢ ـ ربيــع الحـــرف — نورة خالد السعد
٣ ـ اللغة مفتاح الحضارة — نخبة من أ. د. المختصين باللغات

الفهرس

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م

طبعت بمطابع مؤسسة اليمامة الصحفية
الرياض - طريق القصيم - حي الياسمين
ص ب ٨٥١ الرياض ١١٤٢١ ت ٤٤٢٠٠٠٠





المؤلف

- حسن محمد توفيق ظاظا.
- مواليد القاهرة ١٩١٩م
- بدأ دراسة قرآنية في الريف، ثم تحول حسب رغبة أهله إلى التعليم العام وبعد الثانوية العامة.
- ليسانس اللغة العربية واللغات السامية من جامعة القاهرة عام ١٩٤١.
- ماجستير في الأدب العبري والفكر اليهودي من الجامعة العبرية بالقدس (فلسطين) عام ١٩٤٤.
- دبلوم الدولة العالي في الآثار وتاريخ الفن والحضارة من مدرسة اللوفر بباريس عام ١٩٥١.
- دبلوم مدرسة اللغات الشرقية بباريس ١٩٥٥.
- دكتوراه الدولة في الآداب من السربون بباريس، بدرجة الشرف الأولى وبالاجماع وحق التبادل مع الهيئات العلمية العالمية ١٩٥٨.
- عمل معيداً ومحاضراً ومدرساً إلى أن شغل كرسي الدراسات اللغوية بجامعة الاسكندرية ١٩٦٩.
- قام بالتدريس في عدد كبير من الجامعات مثل: الرباط (المغرب) - بيروت (لبنان) - الموصل وبغداد والبصرة (العراق) - الخرطوم وأم درمان) (السودان).
- أستاذ فقه اللغة والدراسات العبرية بجامعة الملك سعود بالرياض لمدة ١٢ عاما.
- يعمل حالياً مستشاراً بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الاسلامية بالرياض.
- متزوج وله ابنة وابن وثلاثة أحفاد.
- من مؤلفاته المنشورة بالعربية:

المجموعة اللغوية:

(١) اللسان والانسان، (٢) الساميون ولغاتهم، (٣) كلام العرب.

البحوث اليهودية:

(١) الفكر الديني اليهودي (٢) الشخصية الاسرائيلية (٣) أبحاث في الفكر اليهودي (٤) الصهيونية العالمية واسرائيل، بالاشتراك مع د.فتح الله الخطيب (أستاذ الاقتصاد والسياسة بجامعة القاهرة)، و(الدكتورة عائشة راتب استاذة القانون الدولي بكلية حقوق القاهرة ووزيرة الشئون الاجتماعية سابقا).

وعدد كبير من المؤلفات باللغات العبرية والفرنسية والانجليزية.

ISBN 9960 - 780 - 02 - 3 ردمك
ISSN 1319 - 190 X ردمد

السعر: ١٠ ريالات سعودية